مقتطفات أدبية وتاريخية

يوسف الياس عبدالله القرغاني

الطبعة الثانية - ٢٠٢٦

مقتطفات أدبية وتاريخية

يوسف الياس القرعاني

الطبعة الثانية – 2026

مزيدة ومنقحة

مقدمة

بسم الله نبدأ وعليه، جل وعلا، نتوكل وبه نستعين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين محمد صلى الله عليه وسلم، ونسأل الله التوفيق والسداد في عملنا هذا وفي كل عمل. أما بعد، فسنستعرض في هذا الكتاب، بإذن الله تعالى، عددا من الشخصيات والمواقف التاريخية والأدبية، وسنستهله بنبذة عن مراحل ما قبل العصر الجاهلي ومن ثم العصر الجاهلي وصدر الإسلام والأموي والأندلسي والعباسي، وصولا إلى عصور الدول المتتابعة أو العصر المملوكي ونبذة أخرى موجزة عن العصر العثماني والعصر الحديث وما تخلل تلك العصور من محطات تاريخية مهمة. تشتمل بعض الأقسام المكونة لهذا الكتاب على شخصيتين إحداهما يغلب عليها الطابع الأدبي والأخرى يغلب عليها الطابع التاريخي وفي بعض الأحيان يتم التركيز على شخصية واحدة فقط لأنها تغطي الجانبين الأدبي والتاريخي.

يهدف الكتاب إلى تزويد القارئ بمقتطفات عن تاريخ منطقتنا، منطقة الشرق الأوسط، خاصة أن هذه المنطقة تربعت على عرش الأحداث التاريخية المهمة على هذا الكوكب، متضمنة أكثر الأحداث العالمية أهمية وسخونة في المسرح العالمي نتيجة تعدد الحضارات التي قامت عليها واندثرت وما حدث من تنافس شديد ومعارك ضارية لتأكيد

السيادة والسيطرة على الموارد وبلوغ المجد الذي كان بمثابة هدف أسمى لكل الأمم والحضارات.

شهدت منطقتنا قيام وكذلك أفول حضارات عظيمة كانت قد تميزت بالعلم والأدب وحققت إنجازات لا تزال شاهدة عليها إلى يومنا هذا وفي مجالات مختلفة مثل الطب والفلسفة والأدب والعلوم بشكل عام مثل الهندسة والرياضيات وغيرها، بل معظم هذه الإنجازات مهدت الطريق للعلوم والاكتشافات الحديثة التي تمتعت بها البشرية في العصر الحديث، وبذلك يصدق القول بأن الماضي هو أصل الحاضر والمستقبل.

من الحضارات القديمة التي برزت في العصور السالفة في منطقتنا الحضارة السومرية والحضارة الآشورية والإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية والحضارة الفينيقية في الشام التي ازدهرت قرابة 2500 قبل الميلاد.

سنتحدث عن هذا بإيجاز شديد لأن مثل هذه الأمور تتطلب مجلدات كثيرة ولن تكون كافية لبيان ما أنجزته وتميزت به الحضارات السالفة، ولكننا سنختصر خاصة أن قراء العصر الحديث يميلون إلى الاختصار وما أوجز من القول. سنجمل في هذا الكتاب، إن شاء الله تعالى، الأحداث التاريخية المهمة ليحصل القارئ على موجز عن تاريخنا مما سيساهم في تعزيز الفهم والوعي العام عن تاريخ هذه المنطقة الحافل بالأمجاد والحروب وكذلك الانتصارات والهزائم التي منيت بها كثير من الحضارات والدول على مر التاريخ.

يهدف الكتاب أيضا إلى تسليط الضوء على بعض الشخصيات والأعمال الأدبية المميزة من لغتنا وتاريخنا العربي المجيد، متحرين الدقة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، خصوصا فيما يتعلق ببعض الشخصيات التي أثير حولها جدل كثير مثل الحجاج بن يوسف الثقفي، وشعارنا في ذلك الآية القرآنية الكريمة:

(تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ)[1]

سننقل ما كتب عنهم في أمهات الكتب وهي المصادر التي كنت أستقي منها بعض المعلومات مثل كتاب تاريخ الإسلام للذهبي والبداية والنهاية لابن كثير رحمهم الله تعالى وأسكنهم الفردوس الأعلى من الجنة ونسأل الله سبحانه أن يلحقنا بعباده الصالحين وأن يجمعنا بهم في مستقر رحمته.

وفي معرض الحديث عن مثل هذه الشخصيات، فإننا سنحاول أن نقدم ما ذكر عنهم في المصادر القديمة ومن ذلك إنجازاتهم وما ذكر عنهم من قسوة وظلم، ومردهم جميعا إلى بارئهم وهو يفصل بينهم يوم القيامة لتجزى كل نفس بما عملت، فإن كان خيرا فقد أفلح صاحبه وإن كان غير ذلك فقد خاب وخسر.

[1] سورة البقرة: (134).

ومن هذا المقام، أود أن أتقدم بجزيل الشكر لكل من ساهم في هذا العمل من تنسيق وإخراج وتصميم وطباعة، ونسأل الله تعالى التوفيق والسداد وأن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا، وله الحمد أولا وآخرا.

يوسف الياس عبدالله القرعاني

تمهيد

يعود أصل اللغة العربية إلى اللغات السامية، وهي إحدى أقدم اللغات في العالم. إن أقدم النصوص التي عثر عليها في اللغة العربية تعود إلى القرن الثالث الميلادي، وهي عبارة عن قصائد جاهلية. وتشير أكثر الروايات إلى أن الموطن الأصلي للغة العربية هي أرض الحجاز؛ أي الجزيرة العربية ومنها امتدت إلى أماكن أخرى حتى جاء الإسلام ونزل بها القرآن ونقلتها الفتوحات الإسلامية إلى مختلف أرجاء العالم.

أهمية اللغة العربية

كفى باللغة العربية فخرا أنها لغة القرآن الكريم، وكفى بالقرآن الكريم أنه كلام الله تعالى. وكان القرآن الكريم، بفضل الله تعالى، العامل الأهم في حفظ اللغة العربية وإبراز جزالتها وقوتها وحفظت من خلاله قواعد اللغة ومفرداتها وثبتت على حال واحد منذ زهاء ألف وأربعمائة عام وستستمر إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها على حالها هذا لأن الله سبحانه وتعالى قال: (إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ)[1] فلغة حملت الكلام الإلهي تستحق كل الاحترام والتبجيل وكذلك بذل كل الجهود الممكنة لتعلمها وفهم معاني مفرداتها الوافرة.

[1] سورة الحجر: (9).

لقد بذل علماء اللغة منذ القدم جهودا جبارة لتوثيق قواعدها وضبطها من خلال وضع النقاط على الحروف لتيسير قراءتها وفهمها خصوصا عندما يتعلمها غير العرب، ووضعوا قواعد النحو والإعراب وبحور الشعر كما سيمر معنا في مقالات مقبلة، إن شاء الله تعالى. لقد أطلق عليها المسلمون لغة القرآن والسنة. وقال الله تعالى:

(وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٞ)[1]

وقد نزل القرآن على شكل معجزة للعرب الذين كانوا يعتزون بفصاحتهم ويتميزون بدقة التصوير والتشبيه فجاءهم القرآن وتحداهم في نفيس بضاعتهم، وخلدها خلود الزمن. حتى إنها أصبحت اللغة الوحيدة الخالدة على وجه الأرض، لما تتعرض له اللغات الأخرى من تحديث وتغيير كبير خلال تاريخها.

وهنا قد يقول البعض: إن لغات قديمة كانت ولا تزال موجودة، وهذا صحيح من حيث المبدأ، ولكن هذه اللغات دخلت عليها تعديلات وتغييرات كثيرة. لو أخذنا اللغة الإنجليزية مثالا على ذلك نجد أن جذورها تمتد منذ منتصف القرن الخامس إلى القرن السابع الميلادي، ومع ذلك فقد تغيرت كثيرا ولو طلبنا من شخص متعلم من إحدى الدول التي تستخدم فيها الإنجليزية كلغة أولى أن يقرأ لنا نصا من القرن السادس فلن يفهم كثيرا

[1] سورة النحل: (103).

من مفرداته. وهذا عكس اللغة العربية فهي نفسها التي كان يتكلمها أجدادنا قبل 1400 سنة وإن كنا قد ابتعدنا عنها بسبب اللهجات، ولكن نستطيع أن نقرأها ونفهمها كما هي.

لمعرفة ما تميزت به اللغة العربية عن اللغات الأخرى يمكننا أن نجري مقارنة بسيطة بينها وبين اللغات الأخرى من حيث عدد المفردات ثم سندرك سعة الفرق بينهم وأنه لا مجال هناك للمقارنة. نأخذ على سبيل المثال أحد أكثر اللغات استخداما في العالم وهي اللغة الإنجليزية التي يقرب عدد مفرداتها من 600 ألف كلمة وأعلى تقدير لها أشار أنها تقرب من مليون كلمة، بينما تضم اللغة الفرنسية نحو 150 ألف كلمة والروسية نحو 130 ألف كلمة والتركية نحو 111 ألف كلمة، وفق لعدد من الإحصائيات بينما تتجاوز مفردات اللغة العربية 12 مليون كلمة وهناك تقديرات تقول بأن مفرداتها أكثر من ذلك.

الشعر في اللغة العربية

عندما نتأمل الأدب العربي عموما نجد أن الشعر يطغى عليه ويتجاوز كثيرا المجالات الأدبية الأخرى كالمسرح والرواية والنثر. وقد أبدى العرب اهتماما كبيرا بالشعر منذ القدم وسطروا قصائد رائعة خلدت على مر الزمان. وكان للشعر أغراض مختلفة لدى القبائل العربية المنتشرة في مختلف البلدان ومن ذلك الدفاع عن أنفسهم والذب عن قبائلهم. وكان الشعراء يقومون بمقام المدافع عن بلدانهم وقبائلهم مثلهم في ذلك مثل الصحفي أو الناطق الرسمي أو وزير الإعلام في الدول المعاصرة.

كان الشعراء ينظمون القصائد لإبراز محاسن ومميزات قبائلهم والنيل من أعدائهم بالهجاء وكان هذا أكثر وضوحا خلال العصر الجاهلي من العصور الأخرى. ويعرف الشعر أيضا بأنه ديوان العرب وفيه سجل حياتهم وسطور أمجادهم وتصوير انتصاراتهم، وهو مصدر للحكمة التي تستفيض من بين أبياته. وكان بعض الشعراء يلعبون دور المصلح الاجتماعي من خلال مدح الأعمال الحسنة والمفيدة للمجتمعات وكذلك ذم الأفعال الدنيئة ومدح مكارم الأخلاق والأشخاص الذين يتحلون بها وذم الأمور التي تؤثر على أخلاق الفرد وتساهم في إفساد المجتمع.

مكانة الشعر في اللغة العربية

لقد تميز العرب في الجاهلية والإسلام بفصاحة النطق لذا أنجبت الأمة الكثير من الشعراء وكان للشعر مكانة عظيمة بين العرب وكان يستخدم ليس فقط للمدح والهجاء وإنما لحفظ التاريخ أيضا. فقد وثق الشعر العديد من الحوادث قبل وبعد الإسلام بقصائد شعرية رائعة، ولن نستطرد في سرد الأمثلة لأنها كثيرة جدا وسنذكر فقط معركة ذي قار التي خلدها صناجة العرب (الأعشى) في قصيدة طويلة قال فيها:

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي وراكبها يـــوم اللقـــاء وقلت

هم ضربوا بالحنو حنو قراقر مقدمة الهامرز حتـــى تولت

فلله عينا من رأى من عصابة أشد على أيدي السقاة من التي

أتتهم من البطحاء يبرق بيضها وقد رفعت راياتهـــا فاستقلت

فثاروا وثرنا والمنية بيننا وهاجت علينـــــا غمرة فتجلت

فجادت على الهامرز وسط بيوتهم شآبيب موت أسلت واستهلت

تناهت بنو الأحرار إذ صبرت لهم فوارس من شيبان غلب فولت

لقد كان وما زال الرافد الرئيس للأدب العربي هو الشعر الذي طغى على كافة المجالات الأدبية الأخرى، وكذلك تبقى للشعر مكانته في معظم لغات العالم وإن تقدمت عليه بعض الجوانب الأدبية في لغات أخرى كالمسرح في اللغة الإنجليزية قديما والرواية حديثا؛ لذا يمكننا القول بأن اللغة العربية هي "لغة الشعر" وأن اللغة الإنجليزية هي "لغة المسرح" لما للمسرح من مكانة كبيرة تفوق بها على مكانة الشعر في الماضي ثم بدأت الرواية بالتفوق على المسرح باللغة الإنجليزية خلال القرون الثلاثة الماضية.

لقد تربع الشعر على عرش اللغة العربية لأن أهلها تميزوا بالبلاغة والفصاحة فكان للشعر التأثير البالغ عليهم وكان يستخدم أيضا لإثارة الحماسة ورفع الهمم وكان العرب يتفاخرون فيما بينهم من خلال نظم القصائد المميزة والمعلقات الشعرية، وكان الشعر هو الذي وحد بعض قبائل العرب قبيل معركة ذي قار فكان النصر حليفهم.

فصاحة العرب في الجاهلية وصدر الإسلام

كان العرب يتمتعون بفصاحة اللسان وحسن المنطق وكان رسول الله ﷺ أفصح العرب وقد أعجب ببلاغته كل من سمعه. قال الصديق أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه: "لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم، فما سمعت أفصح منك"، أي رسول الله ﷺ. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "ما سمعت كلمة غريبة من العرب إلا سمعتها من رسول الله ﷺ" وسمعته يقول: "مات حتف أنفه"، وما سمعتها من عربي قبله. وقال رضي الله عنه: "يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نعرفه، فمن علمك". وكان رسول ﷺ يقول: "حق لي فإنما أنزل القرآن علّي بلسان عربي مبين". ولا عجب في ذلك لأن القرآن الكريم الذي أذهل الفصحاء الكافرين منهم والمسلمين نزل على رسول الله ﷺ والله تعالى وصفه بأنه لا ينطق عن الهوى في قوله تعالى:

(وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۞ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۞ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ)[1]

الكثير منا يعلم أنه عندما تلا الرسول ﷺ الآيات الأخيرة من سورة النجم:

(وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ۞ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ۞ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۞ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ۞ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ۞ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ)[2]. إلى نهاية السورة.

سجد بعدها كل من كان في البيت الحرام الكفار والمسلمون إلا رجلا واحدا مسنا. وكان سجود الكفار تأثرا بفصاحة وبلاغة الآيات.

---

[1] سورة النجم: (3-4-5).

[2] سورة النجم: (43-44-45-46-47-48).

وبعد ذلك بلغ المهاجرين في الحبشة بأن قريشا أسلمت ورجع فريق منهم إلى مكة لكنهم عادوا إلى الحبشة بعدما تبينوا أن قريشا لم تسلم كما بلغهم، وإنما تأثروا بما تلي عليهم من القرآن الكريم فسجدوا.

الشعر في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

ما كان الرسول ﷺ شاعرا وما ينبغي له، قال تعالى: (وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ)[1]. ولكنه عاش ﷺ في بيئة مليئة بالشعر ويغمرها البيان والبلاغة فأحب الشعر واستنشده وكان له شعراؤه مثل حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة. وقال ﷺ: "إن من البيان لسحرا"[2]. وقد كان شاعر الرسول ﷺ حسان بن ثابت يجب ويدافع عن الإسلام والمسلمين بشعره وربما كان شعره على الكفار أمضى من ضربات السيوف وطعن الرماح.

وقد أوتي رسول ﷺ جوامع الكلم وكان ﷺ فصيح المنطق وافر المفردات وساعده ذلك على اشتقاق وتصريف الكلام وكان كلامه موجزا ومعبرا. وقد قالت العرب: "البلاغة في الإيجاز وخير الكلام ما قل ودل". وقال ﷺ: "أعطيت جوامع الكلم"[3]. و"الآن حمي الوطيس". و"هذا يوم له ما بعده". و"رفقا بالقوارير"، وكثير غير ذلك.

---

[1] سورة يس: (69).
[2] رواه البخاري: (5767).
[3] رواه مسلم: (1167).

وكما أسلفنا سنستعرض في هذا الكتاب، بإذن الله تعالى، بعض المواقف الأدبية والتاريخية لشخصيات عربية وسنسلط الضوء على إنجازات تاريخية تحسب لمن قاموا بها وبذلوا الجهود الحيثية لتحقيقها كوضع النقاط على الحروف ووضع التشكيل (الحركات) على الحروف أيضا، وغير ذلك من الجوانب الأدبية والتاريخية لشخصيات مختلفة على مر العصور.

نبذة عن بعض الأحداث التاريخية

التي سبقت العصر الجاهلي في الشرق الأوسط

مراحل ما قبل الإسلام وقبل الميلاد

منذ أن أنزل آدم عليه السلام من الجنة إلى الأرض، توالت الأحداث التاريخية الكبيرة بسبب السلوك البشري بدءا بأول جريمة في التاريخ وهي قتل قابيل لأخيه هابيل. ثم بعد ذلك تكاثر البشر وتنوعوا وأصبحوا أمما وتفرقوا فزادت بينهم المنافسة مما أدى إلى مناوشات ومعارك ضارية ذهب ضحيتها كثير من البشر، إضافة إلى الكوارث التي أنزلها الله جل وعلا بالناس بما كسبت أيديهم مثل الطوفان الذي أهلك معظم البشرية في زمن نوح عليه السلام.

في الألفية السادسة أو الخامسة قبل الميلاد، نشأت الحضارة السومرية في بلاد الرافدين، العراق، حيث ظهر اسم سومر في ألواح طينية مدونة بالخط المسماري كتبت لاحقا في الألفية الثالثة قبل الميلاد. لقد شيد السومريون عددا من المدن مثل كأور ونيبور ولارسا ولجش واختلطوا بأهل الشام لقربهم منهم جغرافيا وساهم كل هذا في جعل اللغة السومرية لغة الاتصال في الشرق الأوسط آنذاك. بعد تلك الحضارة، نشأت الحضارة

الفرعونية في مصر بعد أن وحد الفرعون مينا عددا من المدن بين عامي 3100 و2800 قبل الميلاد.

نشأت كذلك الحضارة الفينيقية في الشام قرابة 2500 قبل الميلاد وهي حضارة سامية ازدهرت في الفترة ما بين 3000 و1500 قبل الميلاد وتوسعت كثيرا خلال فترة ازدهارها وقيل إنها امتدت حتى المحيط الأطلسي.

بعد ذلك قامت الحضارة الآشورية حيث نشأت في مدينة آشور في شمالي العراق واتسعت كثيرا في الألفية الثانية قبل الميلاد. وفي عام 1760 قبل الميلاد، استولى حمورابي، ملك بابل، على مدينة آشور حيث سن عددا من القوانين والتي اشتهرت في التاريخ باسم قوانين حمورابي. وقرابة عام 1250 نهضت آشور مرة أخرى وغزى ملكها آنذاك واستولى على بابل. ونحو عام 650 ثار البابليون على حكم الآشوريين بعد منازعات بين الطرفين دمر خلالها الآشوريون بابل.

حدث بعد ذلك ما يعرف تاريخيا بالسبي البابلي وهو سبي اليهود على يد نبوخذ نصر، الملك البابلي، عام 587 قبل الميلاد، حيث قام ملك بابل بحملة عسكرية كبيرة على اليهود في فلسطين نتيجة خلافات سياسية حصلت في تلك الأيام حيث ساند اليهود مملكة أخرى ضد بابل فحقد عليهم ملك بابل فسباهم. وبعد ذلك كانت ولادة الإمبراطورية الرومانية عام 509 قبل الميلاد. وفي عام 559 قبل الميلاد، ولدت

الإمبراطورية الفارسية واستمرت هي والإمبراطورية الرومانية إلى أن تم هدمهما على يد سيف الله المسلول خالد بن الوليد، رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

مراحل ما بعد الميلاد وقبل الإسلام

بعد ذلك كانت ولادة المسيح عيسى ابن مريم، صلى الله عليه وسلم، حيث كانت الإمبراطورية الرومانية والفارسية أكبر قوتين في الشرق الأوسط والعالم. وفي عام 356 بعد الميلاد حكم الإسكندر المقدوني، الملك اليوناني، وهزم الفرس وكان أحد أكبر وأهم القادة العسكريين في مرحلة ما قبل الإسلام. ويرى بعض المؤرخين بأن الإسكندر المقدوني هو ذو القرنين الذي ذكر في القرآن الكريم، والله أعلم. وكان يسمى أيضا الإسكندر الأكبر والإسكندر ذو القرنين.

الفصل الأول

العصر الجاهلي

العصر الجاهلي

العصر الجاهلي هو العصر الأدبي الأول أو ما يعرف بعصر ما قبل الإسلام واستمر قرابة 150 سنة قبل بعثة النبي ﷺ، وسمي بذلك لانتشار الجهل بين العرب، لكنه لم يكن الجهل العلمي وإنما هو الجهل العقدي والديني خاصة بعدما اجتاحت عبادة الأوثان الجزيرة العربية بعد أن كانت خالية منها، وكان سائدا بين العرب حينذاك دين إبراهيم الخليل عليه السلام. لقد ذكر ابن كثير في كتابه "البداية والنهاية" أن أول من أدخل الأصنام إلى جزيرة العرب هو عمرو بن لحي الخزاعي، أحد سادات مكة المشهورين بالكرم، وكان قد جلب أحد هذه الأصنام من الشام خلال رحلة قام بها إلى تلك البقاع.

أما من الناحية الأدبية والفكرية، فقد أبدع العرب في تلك الفترة وتم نقل الكثير من شعرهم الذي صور حياتهم وتاريخهم واشتهروا بالفصاحة ودقة التصوير والتعبير وبرز منهم عدد كبير من الشعراء خاصة في المائة سنة التي سبقت الإسلام وهو زمن المعلقات الشعرية والكثير من القصائد الشعرية التي وثقت جوانب مهمة من حياتهم في تلك المرحلة. يعد شعراء المعلقات من أبرز شعراء العصر الجاهلي والأدب العربي عموما مثل امرئ القيس والأعشى وعنترة وعمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد.

لقد كان العرب أهل فصاحة وشعر منذ القدم لكن أغلب القصائد التي تم حفظها تعود إلى المائة عام التي سبقت الإسلام وربما كان ذلك بسبب قربها من العصر الأموي

حيث بدأت حركة التدوين وحفظ الشعر والقصص المختلفة من خلال تدوينها في كتب خاصة بها ولم يكن ذلك متوفرا في العصر الجاهلي ولا عصر صدر الإسلام، وشهدت حركة التدوين ازدهارا كبيرا آخر مع بدايات العصر العباسي.

كان أدب العصر الجاهلي أجود الأدب العربي وفيه المعلقات التي لو لم يقل غيرها الشعراء لكفت. وكان العرب يعقدون المجالس الأدبية والندوات الشعرية في الأسواق كسوق عكاظ حيث يتوافد إليه الشعراء والتجار من مختلف الأماكن. وقد تميز العصر الجاهلي بتصوير البيئة الصحراوية التي عاشوا فيها والتي كان يسودها الجفاف والبداوة فغلب هذا الطابع على أهلها وساهم في صقل مهاراتهم وخصالهم لذا كانوا يتحلون بصفات حميدة مثل الشهامة والوفاء والكرم وإغاثة الملهوف والشجاعة.

يتسم هذا العصر بجزالة اللغة وصفائها لأنه لم تختلط العربية بغيرها من اللغات كما كان في عصر الفتوحات، وتم نقله إلينا عن طريق الحفظ لا التدوين نتيجة لضعف حركة التدوين في ذلك العصر واعتماد الناس في تلك الأيام على الذاكرة لحفظ ونقل الموروث الأدبي وخاصة الشعر رغم أن ذلك العصر اشتهر بالشعر والنثر أو الخطابة ولكن الشعر فاق كافة الأصناف الأدبية من ذلك الحين وحتى يومنا هذا. تميز هذا العصر بوجود المعلقات وهي القصائد البليغة حيث كان يتم تعليقها على الكعبة المشرفة تكريما لتلك القصيدة ولجزالتها.

أما عن نظام الحكم في حقبة ما قبل الإسلام، فقد كان حكما قبليا في كثير من المناطق خاصة القبائل التي تقع في قلب الصحراء أو بعيدة نسبيا عن الممالك التي اعتادت على فرض الإتاوات على القبائل القريبة منها. وقد تشكلت بعض الممالك في العصر الجاهلي مثل مملكة كندة كما سيرد ذكرها في مقالة امرئ القيس. وكان هناك ممالك أخرى تتبع الإمبراطوريات الكبرى في ذلك الزمان مثل مملكة الحيرة في العراق حيث كانت تتبع للفرس. والغساسنة في الشام التي كانت تتبع الإمبراطورية الرومانية وحكموا مناطق واسعة في سوريا والأردن لأكثر من أربعمائة عام. وقد كانت بعض القبائل أيضا تخضع لنفوذ الممالك القريبة منها سواء في الجزيرة العربية أو مناطق أخرى.

نتيجة لهذه الظروف، كان العرب متفرقين متناحرين وأودت الحروب بينهم بآلاف الأشخاص حيث كانت تنتشر في تلك الأيام حروب الثأر مثل حرب البسوس وحروب المنافسة على السيادة كحرب داحس والغبراء إضافة إلى الغزوات التي كانت تشنها بعض القبائل ضد قبائل أخرى لأسباب مختلفة ومن ذلك السلب وتحقيق بعض المكاسب المادية.

امرؤ القيس

حياته ونسبه

هو جندح بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر الكندي. ولد بالجاهلية نحو 520 م في نجد. يعتبر امرؤ القيس أحد أهم شعراء العصر الجاهلي وشعراء العرب عموما، وكان والده ملك أسد وغطفان، وأمه فاطمة بنت ربيعة، أخت الزير سالم وكليب.

كانت حياة امرئ القيس حافلة بالأحداث التاريخية والأدبية، ولكننا سنركز، إن شاء الله، على الجانب الأدبي من حياته والتي أثارت الكثير من الجدل خصوصا بعض أبياته وقصائده التي وصفت بالفاحشة. مع ذلك، يبقى امرؤ القيس الشاعر الذي لا يشق له غبار، حيث يعتبر شعره حجة عند الأدباء وأهل اللغة.

ولن نتحدث طويلا عن حياة اللهو والمجون التي عاشها امرؤ القيس في بداية حياته والتي كانت سببا للنفور بينه وبين أبيه، ملك كندة، فتبرأ منه ثم ابتعد امرؤ القيس عن أبيه، ولكنه ازداد مجونا في هذه المرحلة، إلى أن قتل بنو أسد أباه فانقلبت بعد ذلك حياته رأسا على عقب. لذا تقسم حياته إلى مرحلتين، الأولى مرحلة اللهو والمجون قبل مقتل أبيه، والثانية مرحلة الجد والأخذ بالثأر بعد مقتله.

يسمى امرؤ القيس بالملك الضليل لأنه ضيع الطريق الذي يوصله إلى الملك الذي فقده من أبيه، ويسمى أيضا بذي القروح لأصابته بقروح أدت إلى موته بسبب عباءة مسمومة ألبسها إياه جنود قيصر فتسببت هذه العباءة أو الحلة بجروح مميته في جسده.

مقتل والده والثأر له

كانت وفاة والده نقطة فارقة في حياته، حيث اختلفت تماما عن المرحلة السابقة لأنه أحس بعظم المسؤولية التي وقعت على عاتقه، مع أنه لم يكن الابن الأكبر للملك، إلا أنه كان المبادر من بينهم. عندما سمع بمقتله قال: "ضيعني صغيرا وحملني دمه كبيرا، لا صحو اليوم ولا سكر غدا، اليوم خمر وغدا أمر". عندها بدأ الإعداد للحرب وتوجه نحو بني أسد، فخافوا منه وحاولوا استرضاءه لكنه قاتلهم وأثخن فيهم القتل. وتوجه أيضا إلى اليمن ليطلب المدد من أعمامه هناك، فجمع جمعا غفيرا من حمير ومذحج ثم اتجه نحو بني أسد مرة أخرى وانتقم من قاتل أبيه وذبح عمرو بن الأشقر سيد بني أسد، حينها أنشد منتشيا بنصره:

قد قرت العينان من مالك ومن بني عمرو ومن كاهل

ومن بني عنم بن دودان إذ نقذف أعلاهم على السافل

حتى تركناهم لدى معرك أرجلهم كالخشب الشائل

حلت لي الخمر وكنت امرأ عن شربها في شغل شاغل

فاليوم أسقى غير مستحقب إثما من الله ولا واغل

قال أبو الفرج الأصفهاني: ناصر امرؤ القيس أقاربه من تغلب وبكر في قتاله، وأوقع تحالفهم مع امرئ القيس الرعب في بني أسد فأرسلوا رسلا إليه عارضين، علاوة على الفدية المعتادة، تقديم أحد زعمائهم إليه ليفعل به ما يشاء، لكنه رفض عرضهم، وأعاد الرسل وهاجم بني أسد وهزمهم مرة أخرى. أراد امرؤ القيس أن يتابع مطاردتهم، لكن تغلب وبكر رفضتا، تشاؤما، وعادتا إلى ديارهما. في هذه الأثناء بدأ أنصاره يتخلون عنه فطلب العون من أمير الحميرية مرتضى الخير، الذي وعده بخمسة مائة رجل، لكنه مات ولم يفعل خلفه هذا. وحين وجد أنه لم يحصل على مساعدة من أمير اليمن، قصد بلاط الإمبراطور جوستينين، لكن لسوء حظه أن عربيا كان قد سبقه هناك وكان والد امرئ القيس قد قتل والد ذلك العربي، فأثر على الإمبراطور وجعله يحقد على امرئ القيس ولم يحصل منه على شيء.

طلب امرؤ القيس مساعدة أقاربه الآخرين، لكنهم رفضوا تباعا، وبمساعدة مرتزقة من القبائل استطاع متابعة ثأره. وذات يوم التجأ امرؤ القيس إلى مطالعة طالعه عند صنم يقال له "ذو الخصلة"، كما كانت عادة العرب في الجاهلية قبل اتخاذ القرار، فسحب سهام الحظ الثلاثة "الآمر والناهي والمتربص" وكان حظه المنع ثلاث مرات. كسر الأسهم وألقى بها في وجه الصنم قائلا: "لو أبوك قتل ما عقتني". وتبع بني أسد وظفر بهم مرة أخرى.

وصلت هذه الأخبار إلى المنذر، ملك الحيرة، فأرسل فرسان لحرب امرئ القيس الذي هرب من مكان إلى آخر ومن قبيلة إلى أخرى، من اليمن حتى نهر الفرات، باحثا عن مأوى وحاملا معه ما تبقى من إرث. وكان يستقبل في كل مكان بالترحاب بسبب قصائده، لكن بخشية من غضب ملك الحيرة.

وبعد ترحال طويل لجأ إلى السموأل الذي بنى لنفسه حصنا في واحة تيماء شمال نجد، حيث كان بإمكانه تحدي كل القادمين. ويقال إن امرأ القيس كان ما زال يحمل خمسة أطقم قتال ورثها عن أجداده، لكل منها اسم، وكان معه ابنته هند وابن عمه زيد. استقبل السموأل كل هؤلاء تحت حمايته وبقوا هناك حتى زادت ضغوط المنذر ولم يود امرؤ القيس توريط مضيفه في المشاكل وبناء على نصيحته ذهب إلى القيصر في القسطنطينية.

شعره

جاءت معلقة امرئ القيس على البحر الطويل حيث ينتهي كل بيت بتفعيلة مزدوجة وبصوت "لي". وقال بعض المستشرقين إنها الأنموذج الذي استخدمه باقي شعراء المعلقات فيما بعد حيث أسس لمدرسة جديدة في الشعر العربي. وهي التي تحتوي، من بين المعلقات السبع، على أهم العناصر الإنسانية والطبيعية ويسهل فهما أيضا. يبدأ الشاعر معلقته بمغامراته ثم يذهب إلى وصف الليل في الصحراء والسحر وامتطاء جواده، والضباء والاحتفال عند الغروب. وهكذا خالف امرؤ القيس الكثير من التقاليد، خصوصا

التقاليد الشعرية وذلك من خلال غزله الفاحش، ويعتبر أول من أدخل الشعر إلى مخادع النساء. قال ابن الكلبي إنه كان يختلط مع شذاذ العرب من طي وكلب وبكر بن وائل فيقيمون في الأماكن التي يتوافر بها الصيد والماء فيذبحون النوق ويشربوا الخمر، لذا لم يكن والده راضيا على نمط حياته هذا. وقال ابن قتيبة: إنه كان من عشاق العرب حيث اشتهر بحبه لفاطمة، والتي كانت السبب وراء نظم معلقته الشهيرة التي يقول فيها:

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

وإن تك قد ساءتك مني خليقة فسلي ثيابي من ثيابك تنسل

أغرك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمري القلب يفعل

وأنك قسمت الفؤاد فنصفه قتيل ونصف بالحديد مكبل

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل

ويرى بعض الأدباء أن هذه الأبيات من أجود ما قيل في الغزل ويرون أن البيت الثاني والثالث أفضل الغزل على الإطلاق، ولكن يخالفهم البعض، فمنهم من يرى أن الأفضل من هذا هو قول جرير:

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

قال ابن كثير في "البداية والنهاية": إن المعلقات السبع كانت معلقة في الكعبة، وذلك أن العرب كانوا إذا عمل أحدهم قصيدة عرضها على قريش، فإن أجازوها علقوها

على الكعبة، تعظيما لشأنها، فاجتمع من ذلك هذه المعلقات السبع، والأولى لامرئ القيس بن حجر، والثانية للنابغة الذبياني، والثالثة لزهير بن أبي سلمى، والرابعة لطرفة بن العبد، والخامسة لعنترة بن شداد، والسادسة لعمرو بن كلثوم، والسابعة للبيد بن أبي ربيعة.

لا خلاف بين أصحاب اللغة المعاصرين منهم والقدماء بأن معلقة امرؤ القيس هي أحد أهم وأفضل التحف الأدبية في الشعر العربي، وترجمت إلى عدة لغات أيضا. قال في مطلعها:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمـــأل
وقوفا بها صحبي علي مطيهـــم يقولـون لا تهلك أسى وتجمـــل
وإن شفائـــي عبـــرة مهراقـة فهل عنـد رسم دارس من معول
ففاضت دموع العين مني صبابة على النحر حتى بل دمعي محملي
ويـوم عقرت للعذارى مطيتـــي فيا عجبـا من كورها المتحمـــل
فظـل العذارى يرتمين بلحمهـا وشحـم كهداب الدمقس المفتـل
وليل كموج البحـــر أرخى سدوله عليّ بأنـــواع الهمـــوم ليبتلي
ألا أيها الليـل الطويـل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل

مع مرور الوقت، بدأ أنصار امرئ القيس بالتخلي عنه بعدما طالت هذه الحرب. أما في بدايتها، فقد حصل امرؤ القيس على دعم متواصل ومؤازرة من عدت أطراف، ولكن كعادة الأمور لا تدوم على حال، إذا من طبع البشر التملل عندما يطول بهم الأمر أو المقام. لما بدأت المؤازرة تضعف تحرك امرؤ القيس في عدد من الاتجاهات لضمان استمرارها، لكن لم يتحقق له ذلك، لذا قرر التوجه إلى قيصر عملا بنصيحة السموأل. وقال يصف حال صديقه قبيل التوجه إلى قيصر طالبا المدد:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقـن أنا لاحقـــان بقيصـــرا

فقلـت له لا تبك عينـــك إنمـا نحاول ملكـا أو نمـوت فنعذرا

الحكمة في شعر امرئ القيس

أصبحت بعض كلمات وأبيات امرئ القيس حكمة وامثالا يرددها العرب، ومن ذلك قوله عندما سمع بمقتل أبيه "اليوم خمر وغدا أمر". وتعني هذه العبارة أن وقت اللهو والمسرات قد انصرم وانتهى مع نهاية ذلك اليوم وجاء وقت الجد والحزم. وله كثير من الأبيات التي أصبحت أمثالا فيما بعد كقوله:

وليس غريبـا من تناءت دياره ولكن من وارى التراب غريب

وقوله:

وإن تك قد ساءتك مني خليقـة فسلي ثيابي من ثيابك تنسـل

والمقصود بالثياب في هذا البيت ليس الملابس التي نعرفها، وإنما هو القلب، واستخدمها عنترة بن شداد في معلقته على نحو مماثل عندما قال:

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

وأيضا الثياب هنا تعني القلب. أما امرؤ القيس فيقول: إن كرهت خصلة من خصالي فردي علي قلبي كي أفارقك، أو استخرجي قلبي من قلبك حتى أنساك.

ماذا قال عنه الأدباء؟

قال محمد بن سلام: سألت يونس النحوي عن أشعر الناس فقال: لا أومي إلى رجل بعينه، ولكني أقول: امرأ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب.

وروى البيهقي في المعارج قال: سأل رجل الفرزدق عن أشعر الناس، فقال: الذي يقول:

وما ذرفـت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلـب مقتل

وسأل الأخطل عن أشعر الناس، فقال الذي يقول:

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرجلنا الجزع الذي لم يثقب

كل هذه الأبيات قالها امرؤ القيس. وذكر أن هشام بن عمرو التغلبي، والي السند، كان يفضل النابغة على امرئ القيس، وكان معه من العرب من يفضل امرأ القيس على باقي الشعراء. فقال هشام ذات ليلة في سمره: من يحسن أن يقول مثل قول النابغة:

كليني لهم يا أميمـــــة ناصـــــب وليـل أقاسيه بطـــيء الكواكـــب
وصدر أراح الليـــــــل عازب همـــه تضاعف فيه الحزن من كل جانب
تطاول حتى قلـت ليس بمنقـــض وليس الذي يرعى النجوم بآئب جانب

فقال ذلك الرجل الذي يفضل امرأ القيس: أحسن من ذلك امرؤ القيس الذي قال:

وليل كموج البحـــر أرخـى سدوله عليّ بأنواع الهمـــوم ليبتلـــي
فقلـــت له لما تمطـــى بصلبه وأردف أعجـــازا ونـــاء بكلكل
ألا أيها الليـــل الطويـــل ألا انجلي بصبح وما الإصبـــاح منك بأمثـــل

فاعترف هشام بتفضيل امرئ القيس.

ما روي عنه من غرائب

رويت عن امرئ القيس الكثير من الغرائب، وبعضها جاء تقليدا لبعض آي القرآن الكريم، ولكن هذه الأبيات رويت في مواقع متفرقة ولم ترد في ديوانه الشعري على الإطلاق

ولم ترد ضمن القصائد المعروفة لامرئ القيس، وإنما كانت أبيات متفرقة يسهل تلفيقها، مثل:

دنت الساعة وانشق القمر غزال صـــاد قلبي ونفـــر

مرّ يـوم العيـــد بي في زينة فرماني فتعاطـــى فعقـــر

بسهام من لحاظ فاتك فـرّ عني كهشيـــم المحتظـــر

وهذه محاكاة لبعض آيات القرآن الكريم في مطلع سورة القمر. قال تعالى:

(ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ)[1]

إن هذه الأبيات لم تثبت عن امرئ القيس، وروي عنه أبيات أخرى على نحو مماثل، كما أن هذه الأبيات لم ترد بأي من كتب الأدب أو المصادر الأدبية الموثوقة.

وقد ورد في شأن امرئ القيس حديث نبوي، ولكن بعض رواة الحديث قالوا إنه ضعيف. ويصف هذا الحديث امرأ القيس بأنه حامل أو صاحب لواء الشعراء إلى النار. ففي مسند الإمام أحمد ومعجم الطبراني وغيرهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال عن امرئ القيس: "ذاك رجل مذكور في الدنيا منسي في الآخرة، شريف في الدنيا

[1] سورة القمر: (1-2-3-4).

خامل في الآخرة، يجيء يوم القيامة بيده لواء الشعراء يقودهم إلى النار". قال الأرناؤوط: إسناد هذا الحديث ضعيف جدا، كما ضعفه الألباني أيضا.

أيامه الأخيرة

قال ابن كثير في "البداية والنهاية": إن امرأ القيس امتدح قيصر ملك الروم، يستنجده في حربه، فلم يجد عنده ما كان يأمله منه فهجاه بعدها، وقيل: إنه سقاه سما فقتله، فألجأه الموت إلى جنب قبر امرأة، عند جبل يقال له عسيب. فقال في ذلك:

أجارتنا إن الخطـــوب تنـوب وإني مقيم ما أقـام عسيـب

أجارتنا إنا غريبـــــان ههنـا وكل غريـب للغريب نسيـب

فإن تصلينا فالقرابـة بيننـا وإن تصرمينا فالغريب غريب

أجارتنا ما فـات ليس يـؤوب وما هو آت في الزمان قريـب

وليس غريبا من تناءت ديـاره ولكن من وارى التراب غريب

يضم البيت الأول إشارة عجيبة من الشاعر إذا استشعر نهايته وأنه لا محالة هالك بذاك المكان وأنه لن يبرحه طالما عسيب شامخ بجانب مثوى أمرئ القيس الأخير، وكأن الشاعر يقول: بأنه سيمكث في ذلك المكان إلى نهاية الزمان ويوم القيامة. وهذا صحيح تماما لأن الموتى باقين في قبورهم حتى يبعثهم الله جل وعلا ليوم القيامة والحساب، وإذا

آن أوان ذلك نسفت الجبال كما قال ربنا جلا وعلا سبحانه: (وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ)[1]. وهذا يحدث يوم القيامة فتنسف الجبال ويقوم الناس لرب العالمين لكي تجزى كل نفس ما كسبت بالعدل، فمن فعل الخير أفلح ومن فعل السوء خاب وخسر.

خاتمة

توفي امرؤ القيس نحو 565 م، ولم يعش عمرا طويلا لكنه كان حافلا في اللهو بداية حياته وبالحروب في نهايتها، وكانت له مساهمات أدبية عظيمة أثرت المكتبة العربية بعدد كبير من القصائد الرصينة إضافة إلى معلقته.

[1] سورة المرسلات: (10).

طرفة بن العبد

حياته ونسبه

هو عمرو بن العبد بن سعد بن مالك وهو من بكر بن وائل. كان يلقب بطرفة وغلب لقبه اسمه الحقيقي، وكان أيضا يلقب بـ "الفتى القتيل"، لأنه مات قبل أن يتجاوز سن السادسة والعشرين. ولد في البحرين سنة 543 م، من أبوين شريفين. ولم يعمر طويلا، ورغم عمره القصير فإنه يعد أحد أبرز شعراء العصر الجاهلي المجيدين ولم تكن أشعاره بالفاحشة مثل امرئ القيس وكانت تفيض الحكمة على لسانه. ينتمي لأسرة غنية بالشعراء من جهة الأب والأم وكانت سيرته في صباه مشابهة لسيرة امرئ القيس حيث كان عاكفا على اللهو ومعاقرة الخمر، وساهمت مكانته في قومه في زيادة جرأته على الهجاء.

مات أبوه وهو صغير فأبى أعمامه أن يقسموا له وظلموه، أي رفضوا أن يعطوه شيئا من إرث أبيه، وتربى في كنف أمه ثم انصرف إلى اللهو ولما اشتدت عليه وطأة التمرد والبعد عن القبيلة عاد إليها وراح يرعى إبل أخيه "معبد" إلا أنها سرقت منه. ولم تمهله المؤامرات كي يعيش عمرا طويلا وإنما مات مقتولا وهو في العشرينيات من عمره، ولم يكن له ذنب سوى إبداعه الشعري وذلك بعد أن هجا عمرو بن هند، ملك الحيرة، وهو من حمل الكتاب الذي كان به موته لعامل عمر بن هند في البحرين.

يمثل مقتل طرفة بن العبد، في ريعان شبابه، دفنا لكنز من العلم والمعرفة التي كان يمكن له أن ينقل للأجيال التالية من خلال قصائده، وكذلك إرواء عطش عشاق الأدب والباحثين عن مصادر لتأريخ حياة العرب في حقبة ما قبل الإسلام. يمثل موته أيضا دفنا لخيال مبدع وعطاء وفير، وتبقى معلقته الشاهد الحاضر على مر العصور، وهو القائل:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

شعره

لم يكن شعر طرفة بالكثير لأنه لم يعش طويلا، ولكنه حافل بذكر الأحداث المهمة التي وقعت خلال حياته. لقد ترك لنا طرفة ديوانا من الشعر أشهر ما فيه "المعلقة". ويحتوي الديوان على 650 بيتا من الشعر تقريبا، منها 104 أبيات في المعلقة وحدها.

يرى بعض النقاد أن معلقة طرفة تسمو على جميع الشعر الجاهلي لأنها تحتوي على شعر إنساني فريد من نوعه لما فيه من العواصف المتضاربة والآراء في الحياة والموت. تقدم معلقته أيضا الكثير من الفوائد التاريخية كما صورت جانب مهم من الأخلاق الكريمة التي كان يتحلى بها العرب قبل الإسلام.

يعود سبب نظم معلقته، التي كتبها دفعة واحدة كما يرى البعض، إلى الظلم الذي لقيه من ابن عمه والتقصير والإيذاء والبخل الذي أدى إلى حرمانه من كافة حقوقه. وربما

نظمت المعلقة في أوقات متفرقة فوصف الناقة الطويل ينم على أنه وليد التشرد ووصف اللهو والعبث يرجح أنه نظم قبل التشرد وقد يكون عتاب الشاعر لابن عمه قد نظم بعد الخلاف بينه وبين أخيه معبد. يقول طرفة في معلقته:

لخولة أطـــلال ببرقـــــة ثهمـــــد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وقوفا بها صحبي علي مطيهـــم يقولون لا تهلـــــك أسى وتجلد

كأن حدوج المالكيـــــة غـــــدوة خلايا سفين بالنواصـــف من دد

عدولية أو من سفين ابن يامـــن يجور بها الملاح طورا ويهتـــد

يشق حباب المـــــاء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليـــد

ووجه كأن الشمس ألقت رداءها عليه نقي اللـــــون لم يتخـــدد

إلى أن تحامتني العشيرة كلهـــــا وأفردت إفراد البعيـــر المعبـــد

رأيت بني غبـــــراء لا ينكروننني ولا أهل هذاك الطرف الممـــدد

أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلـــة وما تنقص الأيام والدهر ينفـد

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد

فأصبحت ذا مال كثير وزارنـــي بنون كـــــرام سادة لمســـود

وقال:

ولا خير في خير تــرى الشر دونه ولا قائـــل يأتيك بعد التلدد

لعمرك ما الأيـــام إلا معــارة فما اسطعت من معروفها فتزود

طرفة وعمرو بن هند

ذكر أن عمرا بن هند خرج للصيد ذات يوم مع عبد عمرو بن مرثد بن سعد وكان سيدا كريما جوادا وكان متزوجا من أخت طرفة فشكته في يوم من الأيام إلى طرفة فهجاه. وخلال رحلة الصيد هذه اصطاد الملك حمارا وحشيا وقال لعبد: انزل فاذبحه، فحاول ذبحه لكنه أتعبه، فضحك الملك وقال: لقد أبصرك طرفة حيث يقول:

ولا خيــر فيه غير أن له غنى وأن له كشحا إذا قام أهضمضا

تظل نســاء الحي يعكفن حوله يقلن عسيب من سرارة ملهمــا

فقال عبد أبيت اللعن: ما قاله فيك أشد مما قاله في. قال الملك وماذا قال: قال عبد قال فيك:

فليت لنا مكان الملك عمــرو رغوثا حـــول قبتنـــا تخور

من الزمرات أسبـــل قادماهـا وضرتهـــا مركنـــــة درور

يشاركنـــا لنا رخلان فيهـــا وتعلوهـــا الكباش فما تنـــور

فقال الملك: أبلغ به الأمر أن يقول في مثل هذا الشعر! فأمر عامله بالبحرين بقتل طرفة، ولكن بعض جلسائه قالو له: إن قتلت طرفة هجاك المتلمس، وهو حليف طرفة، وكان من الشعراء الذين يخشى الناس هجاءهم. فكر الملك قليلا ثم أرسل إلى طرفة والمتلمس يدعوهم إلى قصره فجاؤوا إليه فكتب إلى عامله بالبحرين يأمره بقتلهما حيث أعطى كل منهما رسالة ليسلمها لوالي البحرين. وعندما غادرا مجلسه نزلا في الحيرة، فقال المتلمس لطرفة: تعلمن والله أن ارتياح عمرو لي ولك لأمر عندي مريب، وإن انطلاقي بصحيفة لا أدري ما فيها لأمر أكثر ريبة عندي. فقال طرفة: إنك لتسيء الظن، وما نخاف من صحيفة إن كان فيها ما وعدنا وإلا رجعنا. فأبى أن يجيبه إلى النظر فيها، ففك المتلمس ختمها ثم جاء إلى غلام من أهل الحيرة فقال له: أتقرأ يا غلام؟ قال: نعم، فأعطاه الصحيفة فقرأها فقال الغلام: أنت المتلمس؟ قال. نعم. قال الغلام: النجاة! فقد أمر بقتلك، فأخذ الصحيفة فقذفها في البحيرة. فقال المتلمس لطرفة: إن الذي في كتابك مثل الذي في كتابي. فقال طرفة: لئن كان اجترأ عليك ما كان بالذي يجترئ علي، وأبى أن يطيعه، فسار المتلمس من فوره حتى أتى الشام. وخرج طرفة حتى أتى صاحب البحرين بكتابه، فقال له صاحب البحرين: إنك في حسب كريم وبيني وبين أهلك إخاء قديم وقد أمرت بقتلك فاهرب إذا خرجت من عندي فإن كتابك إن قرئ لم أجد بدا من قتلك، فأبى طرفة أن يفعل، فجعل شبان عبد القيس يدعونه ويسقونه الخمر حتى قتل.

الحكمة في شعر طرفة بن العبد

كان شعر طرفة كما وصفه الأدباء بأنه تفيض منه الحكمة فله العديد من الأبيات التي أصبحت مثلا ومن الحكم الشائعة التي يستخدمها العرب منذ أمد بعيد، ولا زالت كذلك إلى يومنا هذا، مثل قوله:

وظلم ذوي القربى أشـــد مضاضة على المــرء من وقع الحسام المهند

وقال عن الأصدقاء:

عن المـــرء لا تسأل وسل عن قرينه فكـل قريـــن بالمقارن يقتـــــدي

وهناك المزيد من الأبيات على هذه الشاكلة، سنذكر منها البيتين التاليين:

ستبدي لك الأيام ما كنـــت جاهلا ويأتيك بالأخبـــــار من لم تـــزود

ويأتيك بالأخبــار من لم تبـــــع له بتاتا ولم تضرب له وقـــت موعــد

وله أبيات تحث على فعل الخير، كقوله:

الخير خير وإن طـــال الزمـــــان به والشر أخبـث ما أوعيـــــت من زاد

نهايته

مات طرفة مقتولا، سنة 569، وهو فتى وكان شعره هو الذي أودى به، خصوصا تلك الأبيات التي هجا فيها ملك الحيرة، ولكنه ترك ورائه سيرة أدبية عطرة توجت بالمعلقة التي خلدت اسمه على مر الزمان.

الأعشى

صناجة العرب

حياته ونسبه

اسمه ميمون بن قيس بن جندل بن بكر بن وائل بن ربيعة. لقب بالأعشى لأنه كان ضعيف البصر، ويقال له: أعشى قيس. ويكنى 'بأبي بصير' تفاؤلا، وهكذا كانت عادة العرب، فكانوا يطلقون كلمة سليم على المريض ليشجعوه على أن يتميز ويبدع في حياته ويتخطى ما يواجه من عقبات. عاش الأعشى جل حياته في الجاهلية وأدرك الإسلام ولم يذكر أنه أسلم. ولد الأعشى في قرية منفوحة باليمامة سنة 570م، وفيها داره وبها قبره.

شعره

يعتبر الأعشى من شعراء الطبقة الأولى، وهو أحد أبرز شعراء الأدب الجاهلي. لقد قدم قصائد رائعة، لكن كثيرا منها لم يصل إلينا، وهو صاحب المعلقة الشهيرة 'ودع هريرة'. وقد ورد في كتب الأدب والتاريخ أن محمد بن سلام الجمحي قال: "سألت يونس النحوي من أشعر الناس؟ فقال: لا أومئ إلى رجل بعينه، ولكني أقول: امرأ القيس إذا غضب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب". وشهادة يونس النحوي تشير إلى الحالات التي يبدع فيها هؤلاء الشعراء، فيأتي شعرهم تصويرا لإحساسهم وواقعهم والظروف التي كانوا يمرون فيها، لذلك كان شعرهم صادقا ومعبرا عن زمانهم وحياتهم وكان له تأثير عظيم على حياة العرب وحشد الرجال في حالات الحرب.

كان الأعشى كثير الوفود على ملوك العرب والفرس؛ لذا استخدم بعض الألفاظ الفارسية كالصنج، وهي آلة موسيقية وسمي الأعشى بها. وهو غزير الشعر، وكان يغنى بشعره أيضا وهذا سبب آخر في تسميته بصناجة العرب.

وقيل: إن الأعشى ما مدح أحدا إلا رفعه وما هجا أحدا إلا وضعه. وله قصة مشهورة ذكرت كثيرا في كتب الأدب مع المحلق وبناته. فقد كان المحلق رجلا فقيرا وكان أبا لثمانية بنات عوانس لم يتقدم لخطبتهن أحد، لمكانة أبيهن وفقره. فقالت زوجة المحلق لزوجها عليك باستضافة الأعشى عله يشيد بذكرك فيتيسر أمر بناتك. ففعل المحلق، واستضاف الأعشى ونحر له ناقة مع أنه كان رجلا فقيرا ليس له سواها. سأل الأعشى المحلق عن حاله أثناء الطعام فذكر المحلق حاله وحال بناته. فقال الأعشى كفيت أمرهن، وأنشد قصيدة بليغة في المحلق في سوق عكاظ في مكة، قال فيها:

أرقــت وما هذا السهـــاد المؤرق وما بي من سقـــم وما بي معشــق

نفى الذم عن آل المحلــق جفنة كجابية الشيــخ العراقي تفهــق

ترى القـوم فيها شارعين وبينهــم مع القـوم ولدان من النســل دردق

لعمري لقد لاحت عيـــون كثيرة إلى ضـــوء نـــار باليفاع تحـرق

ترى الجود يجري ظاهرا فوق وجهه كما زان متـــن الهندواني رونــق

تحتوي هذه الأبيات على معاني جزلة، واستخدم الأعشى فيها بعض المفردات الصعبة مثل تفهق، وتعني تمتلئ، وكلمة دردق وتعني الأطفال. وقد ذكر أن هذه الأبيات

وباقي أبيات القصيدة شدت انتباه الناس في ذلك الزمان وساهمت في تغيير حياة المحلق تماما حيث بدأ الناس يتوافدون إليه لخطبة بناته، فقد روي أنه لم يحل عليهن الحول حتى تزوجن جميعا.

معلقة الأعشى

كتب أبو بصير إحدى المعلقات، وهي ما تعرف بلامية الأعشى أو ودع هريرة، قال فيها:

ودع هريرة إن الركـــب مرتحـــل وهل تطيق وداعـــا أيها الرجـــل

كأن مشيتهـــــا من بيت جارتهـــــا مرّ السحابـــة لا ريث ولا عجـــل

وقد غدوت إلى الحانـــوت يتبعني شاو مشـــل شلول شلشل شـــول

في فتية كسيوف الهند قد علمـــوا أن ليس يدفع عن ذي الحيلة الحيل

ومستجيب تخال الصنج يسمعـــه إذا ترجـــــع فيه القينة الفضـــل

لئن منيـــــت بنـــا عن غب معركة لم تلفنا من دمـــــاء القوم ننتفل

نحن الفوارس يوم العيـــن ضاحية جنبي فطيمة لا ميـــل ولا عـــزل

قالوا الركوب فقلنـــا تلك عادتنـــا أو تنزلون فإنا معشـــــر نـــــزل

الأعشى والإسلام

لقد أدرك الأعشى الإسلام، وسمع بدين الهدى ونبي الرحمة عليه أفضل الصلاة والسلام، فأظهر اهتماما بالدين الجديد وقرر أن يتوجه إلى رسول الله ﷺ حتى يسلم

بين يديه، وفعل ذلك في أيام صلح الحديبية. وقد أنشد بهذا قصيدة قبل أن يتوجه إلى رسول الله ﷺ، قال فيها:

ألم تغتمض عيناك ليلـــة أرمدا وبت كما بات السليـــم المسهدا

وما ذاك من عشق النساء وإنما تناسيت قبل اليوم خلة مهـــددا

ولكن أرى الدهر الذي هو خائن إذا أصلحت كفاي عاد فأفسدا

شباب وشيب وافتقـــــار وثروة فلله هذا الدهـــــر كيف تـرددا

فآليـــت لا أرثي لهـــا من كلالة ولا من وجى حتى تلاقـي محمدا

متى ما تناخي عند باب ابن هاشم تراحى وتلقـــى من فواضله ندى

نبي يـــــرى مالا يرون وذكـــره أغاد لعمري في البلاد وأنجـــــدا

له صدقات ما تغيـــب ونائـــل وليس عطـــــاء اليوم يمنعه غـدا

عندما بلغ مكة قابله أبو سفيان، قبل أن يسلم، فسأله عن وجهته، فقال: أردت محمدا ﷺ. فقال أبو سفيان: إنه يحرم عليكم الخمر والزنا والقمار، محاولا ثنيه عن مقصده. وكان أبو سفيان يعلم مدى حب الأعشى لهذه الأمور. فقال الأعشى: أما الخمر فقد قضيت منها وطرا، وأما الزنا فقد تركني ولم أتركه، وأما القمار فلعلي أصيب منه عوضا. فقرر الأعشى أن يرجع إلى بيته ويرجع إلى رسول الله ﷺ في العام القادم.

لقد بذل أبو سفيان قصارى جهده ليثنيه عن عزمه وحرض قومه على إرضاء الأعشى للرجوع خوفا من أن يسلم فينصر رسول الله ﷺ بشعره، فجمعوا له مائة ناقة حمراء، وأخذها الأعشى ورجع. وعندما اقترب من اليمامة سقط من على ناقته ودقت عنقه، فمات قبل أن يسلم حسبما ورد في كتب التاريخ، والله أعلم.

خاتمة

توفي الأعشى في قرية منفوحة التي ولد بها، وكانت وفاته سنة 629 م/ 7هـ. وقد ترك أرثا عظيما من الشعر لا تزال العرب تردده إلى يومنا هذا، ولكن لم يصلنا الكثير من شعره، لأن حركة التدوين التي اشتهرت به الدولة الإسلامية في العصر الأموي والعباسي لم تكن موجودة في تلك الأيام وكذلك في بداية العصر الإسلامي؛ لذا فقد اندثر كثير من الشعر له ولغيره من الشعراء.

عنترة العبسي

حياته ونسبه

هو عنترة بن عمرو بن شداد بن معاوية بن قراد العبسي. ولد سنة 525 م، ويعتبر أحد أشهر فرسان العرب وأشعرهم، وعرف بشعر الفروسية والغزل العفيف لما قاله من قصائد بابنة عمه عبلة. ولد عنترة عبدا من أمة، اسمها زبيبة، كان قد تزوجها أبوه. وقد حرره بعدما لمس منه فروسية لا نظير لها ولأن قبيلة عبس كانت تحارب به وتنتصر بسيفه.

عنترة والعبودية

عاش عنترة بداية حياته عبدا ولم ينقذه منها سوى شجاعته وفروسيته وإقدامه ولولاها لعاش عبدا ومات على ذلك. قاسى عنترة مرارة الحرمان وشظف العيش خلال عبوديته، ولكنه كان متمردا طامحا في مستقبل مشرق يتخلص به من نير العبودية. وواصل كفاحه حتى حصل على حريته بجده ومثابرته وكان ذلك نتيجة الغارات التي واجهتها عبس ودوره الكبير في الذود عن قبيلته.

ذات يوم، أغارت قبيلة طي على عبس لما كان بينهما من ثارات وغزوات وتقاعس عنترة في الذود عن قبيلته في تلك الغزوة لما كان يشعر به من المهانة والنظرة الدونية له من قبيلته التي كانت لا تعامله إلا كعبد. وقد أثخنت قبيلة طي في عبس في تلك الغزوة

وضاقت عليها الأرض بما رحبت وأدرك والد عنترة حاجتهم الشديدة لسيفه وصاح به ليكر على طي لكن عنترة أجاب بأن العبد لا يصلح إلا للحلب والرعي، فما كان من والده إلا أن وعده بالحرية إن قاتل معهم وانتصروا. عندها اندفع إليهم عنترة وقاتل بكل ما أوتي من قوة حتى مالت الكفة لصالح عبس بعد تلك المشاركة التي قلبت ظهر المجن على الجيش الغازي وحالف عبس النصر بسيف عنترة. هكذا استطاع عنترة انتزاع حريته انتزاعا وأثبت أنه يستحقها أكثر من أي شخص في عبس بعد أن ذاد عن دياره وحمى حماها.

شعره

كانت عبلة السبب الأول في بروز ونبوغ عنترة وظهوره كفارس وشاعر نتيجة للتحديات التي عاشها كعبد، وكان يدرك تماما أن العبد في تلك البيئة القاسية لا يصلح إلا لرعي المواشي وخدمة أسياده، فكان لزاما عليه تحدي هذه البيئة ولا يمكنه التغلب عليها إلا بصفات حميدة تبجلها العرب وتجعل من صاحبها شخصا محمودا، بل ويحترمه الآخرون بسببها ويأتي على رأس هذه الصفات الشعر والفروسية.

لا يخفى على أحد أهمية الشعر في القبائل العربية حيث كان الجميع يحرصون على رضا الشعراء لكسب ودهم وتجنب هجائهم. وقد انتصر عنترة في هذا التحدي فأصبح بعد ذلك فارس عبس وشاعرها وسيفها البتار الذي زاد من زخم هيبتها بين القبائل.

يصنف عنترة ضمن شعراء الطبقة الأولى وقد كانت أغلب قصائده في الفروسية والغزل العفيف بابنة عمه عبلة، وهو القائل:

دعوني أوفي السيف في الحـرب وأشرب من كاس المنية صافيـا

ومن قال إني سيد وابن سيـــد فسيفي وهذا الرمح عمي وخاليا

وقال مخاطبا عبلة:

يا عبل أيـــن من المنيـــة مهربي إن كان ربي في السمـــاء قضاها

وكتيبة لبستهـــــا بكتيبـــــة شهبـــــاء باسلة يخاف رداهـا

فيها الكمـــاة بنو الكمـاة كأنهم والخيـل تعثر في الوغى بقناهـا

وصحابة شم الأنوف بعثتهـــم ليلا وقد مال الكـــرى بطلاهـا

وسريت في وعث الظلام أقودهم حتى رأيت الشمس زال ضحاها

وقال أيضا:

وأغـــض طرفي ما بدت لي جارتي حتى يواري جارتـــي مأواهـــا

إني امرؤ سمح الخليقـــة ماجـد لا أتبـــع النفس اللجوج هواهـا

معلقة عنترة

هذه منقبة أخرى تضاف إلى مناقب عنترة، إذ دون اسمه بحروف من ذهب من خلال معلقته "هل غادر الشعراء من متردم". وتعد المعلقات العشر التي كتبها كل من عنترة بن شداد وامرئ القيس وطرفة ابن العبد وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة ولبيد بن ربيعة وزهير بن أبي سلمى والأعشى وعبيد بن الأبرص والنابغة الذبياني من أنفس

وأفضل ما قيل: من الشعر العربي. ولمكانة المعلقات الأدبية واللغوية اهتم العرب فيها اهتماما بالغا من حيث التدوين والشرح والحفظ.

يخاطب عنترة في معلقته عبلة ويصور أيضا فيها شجاعته وإقدامه في الحروب. ومن يقرأ هذه المعلقة يستشعر أيضا الصفات الحميدة التي كان يتمتع بها من أخلاق وفروسية وتبين شاعريته وفصاحته وحسن منطقه، حيث قال فيها:

هل غادر الشعـــراء من متــردم أم هل عرفت الدار بعـد توهــم

يا دار عبلـة بالجـــواء تكلمـــي وعمي صباحا دار عبلة واسلمــي

يخبرك من شهـــد الوقيعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم

ومدجـج كـــره الكمـــاة نزاله لا ممعن هربـــا ولا مستسلـــم

جادت له كفي بعاجـــل طعنة بمثقف صـدق الكعوب مقـــوم

فشككت بالرمـــح الأصم ثيابه ليس الكريـــم على القنا بمحـرم

فروسيته

كان عنترة من الفرسان القلائل الذين خلد ذكرهم وأصبحوا مضرب مثل للشجاعة والإقدام، حيث لا يكاد يخلو حديث عن الفروسية والشجاعة والإقدام إلا وذكر عنترة به. كانت فروسيته كما ذكرنا هي السبيل إلى حريته ورفع شأنه في قبيلته ومن ثم شعره الذي رفع شأنه وشأن قبيلته بين العرب منذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا، بل

فاق صيت شعره وفروسيته كل قبيلته؛ أي سائر قبيلة عبس وملوكها، وساهم في حفظ اسمها في مجال الفروسية والأدب لأنه نسب إليها. وتظهر شجاعة عنترة الفارس في كثير من أبياته وقصائده، كقوله:

ولقد ذكرتك والرمـــــاح نواهـل مني وبيض الهند تقطـر من دمي

فوددت تقبيل السيـــــوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبســـم

وهو القائل:

حكم سيوفك في رقـــاب العذل وإذا نزلت بـــــدار ذل فارحـــل

وإذا بليت بظالـــم كن ظالمـــا وإذا لقيت ذوي الجهالة فاجهـل

وإذا الجبان نهـــاك يوم كريهـة خوفا عليك من ازدحام الجحفل

فاعص مقالته ولا تحفـــل بها وأقدم إذا حـــقّ اللقـــا في الأول

واختر لنفسك منزلا تعلـــو به أو مت كريما تحت ظل القسطل

موت الفتى في عزة خيـــــر له من أن يبيت أسير طرف أكحـل

إن كنت في عدد العبيد فهمتي فوق الثريـــا والسماك الأعـزل

أو أنكرت فرســـان عبس نسبتي فسنان رمحي والحسام يقـرّ لي

لا تسقيني مـــــاء الحيـاة بذلة بل فاسقني بالعز كاس الحنظـــل

مـــاء الحيـــاة بذلة كجهنـم وجهنـــم بالعز أطيب منـــزل

وقال:

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتـب ولا ينال العلا من طبعه الغضـب

قد كنت فيما مضى أرعى جمالهـم واليوم أحمي حماهم كلما نكبـــوا

لله در بني عبـــس لقد نسلـــوا من الأكارم ما قد تنســـل العــرب

إن كنت تعلم يا نعمـــان أن يدي قصيرة عنك فالأيـــام تنقلـــب

اليوم تعلـــم يا نعمـــان أي فتى يلقى أخاك الذي قد غره العصـب

فتى يخوض غمار الحــرب مبتسما وينثني وسنان الرمـــح مختضب

إن سل صارمه سالـــت مضاربه وأشرق الجو وانشقت له الحجـب

والخيل تشهـــد لي أني أكفكفها والطعن مثل شرار النار يلتهـــب

فالعمي لو كان في أجفانهم نظـــر والخرس لو كان في أفواههم خطبوا

والنقع يوم طراد الخيل يشهـد لي والضرب والطعن والأقلام والكتب

خاتمة

مات عنترة، سنة 601، بعد أن بلغ التسعين من عمره. وقيل: إنه مات إثر سهم مسموم أصابه به أحد فرسان طي ويلقب بالأسد الرهيص. ويقال: إنه لما أصابه السم وأدرك أنه هالك أمر جيشه بالتراجع وبقي هو مقابل الجيش الغازي ليبطئهم عنهم، حيث مات عنترة في تلك الوقعة.

السموأل

حياته ونسبه

هو السموأل بن عريض بن عادياء بن الحارث الأزدي وهو يهودي. كان يملك حصنا منيعا اسمه الأبلق الذي بناه جده عادياء وقد ذكره في لاميته الشهيرة وهو من سكان خيبر، ولاسمه أكثر من معنى أحدهم الظل.

كان بيته بيت الشعر في اليهود فقد كان شاعرا وكذلك أبوه وأخوه سعية الذي كان شاعرا مجيدا. وكانت والدته من الغساسنة، من قبيلة. عاش السموأل في نهاية القرن الخامس والنصف الأول من القرن السادس الميلادي، وكان كثير التنقل بين خيبر وبين حصنه الأبلق في تيماء.

كان السموأل شاعرا وفارسا يضرب به المثل لوفائه، حتى قالت العرب: ’ أوفى من السموأل‘. وقد سطرت له قصة عجيبة في الوفاء والحفاظ على الأمانة مع الشاعر المشهور امرئ القيس حيث أصبح بعدها السموأل رمزا للأمانة والحفاظ على العهد في ميادين العرب.

وفاء السموأل

سطر السموأل قصة رائعة في الوفاء مع الشاعر امرئ القيس بن حجر الكندي وتناقل العرب قصته ورووها عنه على مدى قرون وضربوا له مثلا خاصا به. ومن خلال قصته هذه جعلوه رمزا للوفاء مثله مثل رموز العرب الأخرى كحاتم الطائي في الكرم وعنترة

العبسي في الفروسية والأحنف بن قيس في الحلم ومسيلمة في الكذب وأبي رغال في الخيانة والغدر حيث صنفه العرب على أنه أخونهم. ومن عجيب ما فعله العرب قبيل الإسلام أنهم كانوا يرجمون قبر أبي رغال واستمروا بذلك منذ أن غزا أبرهة الأشرم مكة وحتى ظهور الإسلام. وكان سبب رجمهم له أن أبرهة وجنده لم يكونوا على دراية بالطرق المؤدية إلى مكة فعمل أبو رغال كدليل للجيش المتوجه لردم الكعبة المشرفة.

بدأت قصة السموأل مع امرئ القيس عندما قرر امرؤ القيس التوجه إلى قيصر الروم طلبا لمدد منه لمواصلة حربه وثأره لمقتل أبيه ملك كندة. وقبل التوجه إلى قيصر، أودع امرؤ القيس دروعا وسلاحا لدى السموأل، حيث كان ملوك كندة يتوارثونها ملكا عن ملك. وبعد وفاة امرئ القيس أرسل ملك كندة يطلب السلاح من السموأل، فرفض أن يعطي السلاح وأبلغ الملك أنه لن يسلمها إلا لمستحقيها وهم ورثة امرئ القيس. وبعد أن بلغ الملك هذا النبأ عاد وطالب بالسلاح مرة أخرى، لكن السموأل أكد أنه لن يخفر ذمته ولن يخون أمانته وسيحافظ على وفائه. عندها أيقن الملك الكندي بأنه لن يحصل على السلاح إلا بالحرب فأرسل الحارث بن أبي شمر، المعروف بالأعرج، إلى السموأل في جيش وطلب منه الأسلحة مرة أخرى وأبى السموأل، حيث كان متحصنا بحصنه المنيع (الأبلق).

حاصر جنود الملك الكندي حصن السموأل دونما جدوى وكان ابن السموأل في ذلك الوقت عائدا إلى الحصن من رحلة صيد، فأخذه رهينة وساوم القائد الكندي السموأل على أن يسلمه السلاح أو أن يقتل ابنه. عندها كان على السموأل الاختيار ما بين أمرين

أحلاهما أمر من العلقم وهما أن يضحي بوفائه وعهده أو أن يخسر ابنه. وبعد تفكر في الأمر قال السموأل: ما كنت لأخون عهدي وأخفر ذمتي فاصنع ما شئت، فقام جنود الملك الكندي بقتل ابنه أمام ناظريه. عاد قائد جيش كندة خائبا ولم يكسب شيئا سوى المذمة والرذيلة التي لحقت به ولا زالت تلاحقه بعد موته إلى يومنا هذا. وبعد ذلك وفى السموأل بعهده وسلم السلاح لورثة امرئ القيس واعتبره العرب بعدها رمزا للوفاء، فقال السموأل في ذلك:

بنى لي عاديـــا حصنا حصينـا وعينا كلما شئـــت استقيـت

وأوصى عاديـــا قدمـــا بأن لا تهـــدم يا سمـــوأل ما بنيـت

وفيـــت بأدرع الكنـــدي إني إذا ما خـــان أقـوام وفيـــت

وقال فيه الأعشى:

كن كالسموأل إذ سار الهمام له في جحفل كسواد الليل جـــرار

بالأبلق الفرد في تيمـــاء منزلـه حصن حصين وجـار غير غدار

إذا سامه خطتي خسف فقال له مهما تقله فإني سامـــع حـار

فقال ثكل وغدر أنت بينهمـــا فاختر وما فيهما حظ لمختـار

فشك غير قليـــل ثم قال لـه اذبح هديك إني مانـــع جاري

شعره

يعد السموأل من شعراء الطبقة الأولى من اليهود وهم ثمانية: السموأل بن عادياء والربيع بن الحقيق وكعب بن الأشرف وشريح بن عمران وسعية بن عريض أخو السموأل وأبو قيس بن رفاعة وأبو الذيال ودرهم بن زيد، وذلك وفقا لتصنيف طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي. وله ديوان شعر صغير وأشهر قصيدة له هي اللامية التي سطر بها معان رائعة وجميلة قل ما وجد مثيلها، وفيها يقول:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلى حسن الثناء سبيل

تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل

وما قل من كانت بقاياه مثلنا شباب تسامى للعلى وكهول

وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل

لنا جبل يحتله من نجيره منيع يرد الطرف وهو كليل

رسا أصله تحت الثرى وسما به إلى النجم فرع لا ينال طويل

هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره يعز على من رامه ويطول

وإنا لقوم لا نرى القتل سبة إذا ما رأته عامر وسلول

يقرب حب الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطول

وما مات منا سيـــد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيـــل

تسيل على حد الظبات نفوسنا وليست على غير الظبات تسيل

صفونا فلم نكدر وأخلص سرنا إنـاث أطابت حملنا وفحول

علونا إلى خير الظهور وحطنا لوقت إلى خير البطون نـزول

فنحن كماء المزن ما في نصابنا كهام ولا فينا يعد بخيل

وننكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول

إذا سيد منا خلا قام سيد قؤول لما قال الكرام فعـول

وما أخمدت نار لنا دون طـار قولا ذمنا في النازلين نزيل

وأيامنا مشهورة في عدونا لها غـرر معلومة وحجـول

وأسيافنا في كل شرق ومغرب بها من قراع الدارعين فلول

معودة ألا تسل نصالها فتغمد حتى يستباح قبيل

سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم فليس سواء عالم وجهول

فإن بني الريان قطب لقومهم تدور رحاهم حولهم وتجـول

خاتمة

كانت حياة السموأل حافلة بالوفاء والعبر إلى أن توفي سنة 560م، تاركا وراءه قصة جميلة في الوفاء وقصائد رائعة تناقلها العرب جيل بعد جيل.

عمرو بن كلثوم

حياته ونسبه

هو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن سعد بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن تغلب بن وائل. ولد في الجاهلية ومات فيها ولم يذكر تاريخ دقيق لولادته، لكنه ولد في شمالي جزيرة العرب في ديار ربيعة وتجول في الشام والعراق ونجد، وعاش عمرا مديدا. كان عزيز النفس وساد تغلب وهو فتى لا يتجاوز عمره الخامسة عشر. هو أحد شعراء العصر الجاهلي المعروفين وهو من شعراء الطبقة الأولى. أما أمه فهي ليلى ابنة المهلهل، الزير سالم، ووصفت أنها أبية وعزيزة النفس أيضا.

شعره

هو صاحب إحدى المعلقات التي تميزت بسهولة الألفاظ ودقة الوصف والمبالغة في الفخر ويعتبرها البعض من أجود ما قيل في المدح، أي مدح القبيلة. ولم يرو عنه الكثير من الشعر، غير المعلقة، بل رويت عنه بعض الأبيات والقصائد القصيرة، ولكنه أبدع في المعلقة التي كانت كافية لتدوين اسمه بين شعراء الطبقة الأولى، فهناك دواوين من الشعر لم يكتب لها النجاح فتلاشت وكأنها لم تكن. ورب قصيدة قصيرة لا تتجاوز بضعة أبيات خلدت صاحبها زمنا طويلا وفاقت دواوين من الشعر. قال عمرو في إحدى القصائد التي رويت عنه من غير المعلقة:

ألا أبلغ بني جشم بن بكـــر وتغلب كلهـــا نبـــأ جلالا

بأن الماجد البطل ابن عمرو غداة نطاع قد صدق القتالا

كتيبتـــــه ململمـــة رداح إذا يرمونهـــا تنبـــي النبالا

جزى الله الأغـــر يزيد خيـــرا ولقـاه المســـــرة والجمـالا

المعلقة

تسمى بمعلقة عمرو بن كلثوم وهي غنية بالفوائد التاريخية والاجتماعية وتنبض بالحماسة والشعور بالعزة. تتكون معلقة عمرو من نحو ألف بيت، ولكن لم ينقل منها الرواة سوى مائة بيت. أنشد قسما منها في حضرة عمرو بن هند، ملك الحيرة، عندما انتدبت تغلب الشاعر عمرا للذود عنها حين احتكمت تغلب وبكر إلى ملك الحيرة، لحل خلاف نشب بينها. وكان ملك الحيرة شديد الاعتداد بنفسه وقد غضب حين وجد أن الشاعر لا يقيم له وزنا كبيرا فعمد الملك إلى حيلة كي يذله بها، فأرسل إلى عمرو بن كلثوم، فيما بعد، يطلب منه أن يزوره وأن يأتي بأمه ليلى معه ففعل. وقيل: أيضا إن الملك كان جالسا في يوم من الأيام مع حاشيته فسألهم: هل ترون في العرب امرأة تستنكف عن خدمة أمي؟ قالوا: ليلى بنت المهلهل. فسأل، لماذا؟ قالوا لأنها ابنت مهلهل ربيعة وعمها كليب ملك العرب وزوجها كلثوم كان سيد قومه، وابنها الآن سيد قومه. لذا فقد طلب ملك الحيرة من أمه أن تجعل ليلى تقوم بخدمتها بطريقة غير مباشرة كأن تطلب منها أن تصنع لها شيئا.

وفي أثناء الزيارة طلبت أم الملك من ليلى أن تناولها طبقا فقالت ليلى: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها. لكن أم الملك كررت الطلب وألحت عليها فصاحت ليلى "واذلاه - يا لتغلب". سمعها ابنها عمرو بن كلثوم فوثب إلى سيف معلق قرب الملك فضرب به عنق عمرو بن هند، ملك الحيرة. وبعد مقتل الملك نظم الشاعر القسم الثاني من المعلقة. وقيل: إن بني تغلب، كبارا وصغارا، كانوا يحفظونها ويتغنون بها، وهنا نورد بعض الأبيات من المعلقة:

ألا هبي بصحنك فاصبحينـــا ولا تبقي خمـــور الأندرينـــا

مشعشعة كأن الحـــص فيها إذا ما المـــاء خالطها سخينا

وكأس قد شربت ببعلبـــك وأخرى في دمشق وقاصرينـــا

وإنا سوف تدركنا المنايـــا مقدرة لنـــا ومقدرينـــا

قفي قبل التفرق يا ظعينـــا نخبرك اليقيـــن وتخبرينـــا

قفي نسألك هل أحدثت صرما لوشك البين أم خنت الأمينا

بيوم كريهة ضربا وطعنـــا أقـــر به مواليك العيونـــا

وأن غدا وأن اليـــوم رهـــن وبعـــد غد بما لا تعلمينـــا

أبا هند فلا تعجـــل علينـــا وأنظـــرنا نخبرك اليقينـــا

بأنا نورد الرايـــات بيضـــا ونصدرهن حمـــرا قد روينـــا

وأيام لنـــا غـــر طـــوال عصينا الملك فيها أن ندينـــا

تركن الخيـــل عاكفة عليــه مقلـــــدة أعنتهـــا صفونـا

ورثنا المجد قد علمت معـد نطاعـــن دونه حتى يبينـــا

بشبان يرون القتـــل مجدا وشيب في الحروب مجربينـا

بأي مشيئة عمــرو بن هنــد تطيع بنا الوشـــاة وتزدرينـا

تهددنا وتوعدنـــا رويـــــدا متى كنا لأمـــك مقتوينـا

فإن قناتنا يا عمـــرو أعيت على الأعــداء قبلك أن تلينا

إذا بلغ الفطـــام لنـــا صبي تخر له الجبابـــر ساجدينـا

الهجرة إلى الشام

كسائر القبائل العربية قديما، لم تستقر قبيلة تغلب بمكان واحد، بل انتقلت إلى عدة أماكن ما بين الشام والعراق ونجد. ولقد درات حروب طاحنة بين قبائل ربيعة أشهرها حرب البسوس، بين بكر بن وائل وتغلب بن وائل. وقد هاجرت هذه القبائل إلى بوادي الشام والعراق منذ ما قبل الإسلام ولا تزال هناك منطقة جنوب تركيا تسمى "ديار بكر" نسبة إلى البكريين وهناك بعض المناطق شمال العراق، في حوض الفرات، قرب الموصل، تسمى بديار ربيعة.

وذكرت مصادر تاريخية أخرى أن قبيلة ربيعة هاجرت نحو الفرات بعد فتكة عمرو بن كلثوم بملك الحيرة، عمرو بن هند. وقيل: أيضا فتكات الجاهلية ثلاث، فتكة البراض

بعروة، وفتكة الحارث بن ظالم بخالد بن جعفر، وفتكة عمرو بن كلثوم بعمرو بن هند ملك المناذرة، فتك به وقتله في دار ملكه وانتهب رحله وخزائنه وانصرف بمن معه إلى خارج الحيرة ولم يصب أحد من أصحابه بأذى. وبعد هذه الفتكة توجه بقبيلته إلى شمال الجزيرة الفراتية.

خاتمة

كانت حياة عمرو بن كلثوم عزيزة أبية وخلد سيرته وسيرة قبيلته بمعلقته الشهيرة التي طالما رددها الشعراء والأدباء في المحافل الأدبية. قيل: إنه توفي سنة 600 للميلاد وقيل: 584 للميلاد؛ أي 39 سنة قبل الهجرة.

الصعاليك

نتحدث في هذا القسم، إن شاء الله، عن شعراء ثاروا على واقعهم الاجتماعي وهجروا الديار واختاروا الصحراء والجوع والتشرد في سبيل نصرة قضيتهم والأخذ بأيدي الفقراء ومساعدة المحتاجين. إنهم الصعاليك الذين احتلوا مكانة بارزة في التاريخ العربي ومرتبة مرموقة في الشعر والأدب وكان بعضهم من الشعراء المجيدين. عاش معظمهم في القرن الأخير من العصر الجاهلي وكانوا شعراء مبدعين وفرسانا امتازوا بعزة النفس والرأفة على الفقراء. خرجوا إلى الصحراء لأنهم كانوا يرون أن الأغنياء قد ظلموا الفقراء ببخلهم وعدم مساعدتهم وعملوا على سلب الأموال من الأغنياء وتوزيعها على الفقراء. لقد ظهرت حركة الصعلكة لأسباب مختلفة، فبعضهم تبرأت منهم قبائلهم وطردتهم لأسباب معينة، ومنهم من كان أسود البشرة لأن أمه حبشية ولم يعترف بهم آباؤهم ومنهم من تصعلك نتيجة للظروف الاقتصادية التي كانت تسود العصر الجاهلي.

لقد ساهم تأخر حركة التدوين في اللغة العربية في فقدان جل شعرهم ولم يصل إلينا سوى قصائد بعضهم خصوصا عروة بن الورد والشنفرى التي جمعت بديوان لكل منهما. امتاز الصعاليك بالإخلاص لقضيتهم وتأقلموا مع حياة الصحاري حتى قيل: إنهم أصبحوا أعدى من الخيل، أي أنهم كانوا يمتازون بسرعة الجري، وقيل: إن الخيل لا تدركهم إذا انطلقوا على أقدامهم.

رغم أنهم خرجوا على قبائلهم وكانوا منبوذين من المجتمع الرسمي، إلا أنهم كانوا يتحلون بمكارم الأخلاق وسطروا ذلك في أشعارهم. هم خرجوا على قبائلهم، لكنهم لم يخرجوا من إنسانيتهم إذ أخذوا على عاتقهم مساعدة المحتاجين والدفاع عنهم. وقد ساهمت حياتهم الطبيعية في الصحراء وتشردهم في صقل مواهبهم القتالية والأدبية إذ كان منهم فرسانا وشعراء لا يشق لهم غبار. وقد عاصر بعضهم بعضا خاصة من اشتهر منهم كعروة والشنفرى وتأبط شرا وغيرهم وشكلوا مجموعة لمؤازرة بعضهم.

نتج هذا التجمع عن كثير من القصص التاريخية والأدبية حيث بلغنا بعضها واندثر قسم كبير منها في رمال الصحراء، وسنحاول أن نسلط الضوء على بعض قصصهم في هذا القسم من الكتاب بإذن الله تعالى.

عروة بن الورد

حياته ونسبه

هو عروة بن الورد بن زيد العبسي، من قبيلة عبس، ولد في الجاهلية وهو أحد شعرائها وفرسانها، وكان من وجهاء قومه، ولكنه امتهن الصعلكة نتيجة الظروف الاجتماعية والاقتصادية في ذلك الحين. كان عروة أكثر الصعاليك شهرة وأجلهم قدرا ولقب بأبي الصعاليك. عاش حياة حرة كريمة وكان كارها لما يراه من قومه من احتقار للفقراء والتعالي عليهم لذلك ثار على ذلك الواقع محاولا تغييره بكل ما أوتي من قوة.

شعره

حمل شعر الصعاليك سمات مختلفة فقد أهملوا المقدمات الطللية وهي وصف الأطلال التي كانت تسود الشعر الجاهلي آنذاك واستبدلوها بالحديث عن الفروسية ووصف الصحراء ووحوشها والبيئة التي يعيشون بها، وكانوا يرفضون التقاليد الفنية في الشعر مثلما رفضوا التقاليد الاجتماعية وكانوا يصفون معاركهم وغاراتهم وشجاعتهم وأصدقائهم من خلال قصائدهم؛ أي يقصون من خلال قصائدهم القصص. اتسم أيضا شعرهم بالواقعية والدقة في التعابير التي يستخدمونها بعيدا عن الشعر التقليدي الذي عادة ما يبدأ بوصف الأطلال، لذا ثار الصعاليك على كل شيء بما في ذلك الشعر. وكانوا أيضا يتحلون بصفات حميدة مثل الشجاعة والكرم والصدق.

يلقب عروة بن الورد "بأبي الصعاليك" لأنه كان يجمعهم حوله ويهتم بشؤونهم، وهو شاعر وافر الشهرة وصاحب عدد كبير من القصائد، سنذكر منها بعض الأبيات. قال عروة واصفا أصدقائه الصعاليك:

ولله صعلوك صحيفـــة وجهـــه كضـــوء شهاب القابس المتنـور

مطلا على أعدائـــه يزجرونـــه بساحتهم زجـــر المنيح المشهـر

وإن بعدوا لا يأمنـــون اقترابـــه تشوف أهل الغائـــب المنتظـــر

فذلك إن يلق المنيـــة يلقهـــا حميدا وإن يستغن يومـا فأجـدر

وقال مخاطبا زوجته:

أقلي علي اللـــوم يا ابنة منـــذر ونامي فإن لم تشتهي النوم فاسهري

ذريني ونفســي أم حســـان إنني بها قبل أن لا أملك البيـع مشتري

أحاديث تبقى والفتى غيـر خالـد إذا هو أمســـى هامة فوق صيـر

تقلب الحياة في العصر الجاهلي

كانت كثير من القبائل العربية تعاني الفقر عندما تجدب الأرض، ولكن حياتهم تتحسن عندما يعود المطر وتنبت المراعي. وكان وقع الفقر أشد على الفقراء الذين لا يستطيعون تأمين قوتهم حتى في وقت الرخاء ويزداد فقرهم وبؤسهم في مواسم القحط والجفاف؛ لذا كان عروة يكره الفقر لأن الناس اعتادوا ازدراء الفقراء واحتقارهم، وسعى إلى

الغنى لمساعدة الفقراء ولأن الناس كانوا يجلون الأغنياء أيضا. كان عروة يخاطر في حياته في سبيل تأمين قوت عائلته والمحتاجين، فقال:

ذريني أطـــوف في البلاد لعلنـــي أخليك أو أغنيك عن سوء محضري

فإن فاز سهـــم للمنية لم أكـــن جزوعا وهل عن ذاك من متأخر

وإن فاز سهمي كفكم عن مقاعد لكم خلف أدبار البيوت ومنظـــر

وقال أيضا:

دعيني للغنـــى أسعـى فإنـــي رأيـــت الناس شرهـــم الفقيـــر

وأبعدهـــم وأهونهـــم عليهـــم وإن أمســـى له حسب وخيـــر

ويلفى ذو الغنـــى وله جـــلال يكـــاد فؤاد صاحبـــه يطيـــر

مكارم الأخلاق

قال عبد الملك بن مروان: من زعم أن حاتم كان أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد. وقال معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه وأرضاه، لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم. وقال الحطيئة في جوابه على سؤال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه وأرضاه، كيف كانت حروبكم؟ قال: كنا نأتم في الحرب بشعر عروة بن الورد.

وورد في كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني أنه إذا أصاب الناس قحط وفقر وتركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف فإن عروة كان يجمع هؤلاء ويعمل على مساعدتهم حتى إذا تحسنت صحتهم التحقوا به للغزو ثم يقسم ما يحصلون عليه بينهم سواسية. وبعد أن تزول الشدة يعطي كل واحد منهم نصيبه من الغنائم ثم يلتحق بأهله الذين تخلوا عنه فيما قبل؛ ولذلك سمي "بعروة الصعاليك" أيضا. وهناك كثير من الأبيات تشير إلى كرمه وحسن خلقه، كقوله:

سلي الطارق المعتـــر يا أم مالـك إذا ما أتاني بين قدري ومجــزري
أيسفـــر وجهي أنه أول القـــرى وأبذل معروفي له دون منكــري

وقال:

فراشي فراش الضيف والبيت بيته ولم يلهنـــي عنه غـزال مقنـــع
أحدثه إن الحديث من القـــرى وتعلم نفسي أنه سوف يهجـــع

عروة وسلمى

سبى عروة امرأة من كنانة في إحدى غزواته، تسمى سلمى، وتكنى أم وهب، فأعتقها وتزوجها وعاشت معه أكثر من عشر سنين وكان له منها أولادا. كان يظن أنها تحبه كثيرا ولا تقدم عليه أحدا من البشر. قالت له ذات يوم: لو حججت بي فأمر على أهلي وأراهم فحج بها، وأتى مكة ثم يثرب، وكان قومها يخالطون بني النضير فأتوهم عندما كان عروة بديارهم مع سلمى. قالت سلمى لقومها إنه سيخرج بها قبل أن ينتهي الشهر الحرام فطلبت منهم أن يقولوا له أنهم يستحيون أن تكون امرأة منهم معروفة النسب سبية. وقالت افتدوني منه، فإنه لا يرى أني أفارقه ولا أختار عليه أحدا.

فجاءوا إليه وسقوه الشراب حتى ثمل، ثم قالوا له: فادنا بصاحبتنا فإنها وسيطة النسب ومعروفة بيننا وإن هذا علينا سبة، وإذا ما صارت إلينا فإننا ننكحك مرة أخرى. وافق عروة بشرط أن يخيروها بينه وبين أهلها، وكان لا يشك في أنها ستختاره. فلما سألوها، اختارت أهلها وقالت، يا عروة: أما إني أقول فيك الحق وإن فارقتك: والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعل خير منك، وأغض طرفا، وأقل فحشا وأجود يدا، وما مر عليّ يوم إلا والموت أحب إليّ من الحياة بين قومك، لأني لم أكن أشاء أن أسمع امرأة من قومك تقول: قالت أمة عروة كذا وفعلت أمة عروة كذا. فارجع راشدا إلى ولدك وأحسن إليهم. وقال في ذلك أبياتا كثيرة منها:

تحـن إلى سلمـى بحـــر بلادهـا وأنـت عليهـا بالملا كنت أقـدرا

تحـل بواد من كـــراء مضلـــة تحاول سلمـى أن أهاب وأحصرا

وكيف ترجيهـا وقد حيل دونهـا وقـد جاورت حيا بتيمن منكـــرا

خاتمة

توفي عروة سنة 30 ق.هـ/594م، تاركا خلفه أرثا أدبيا كبيرا وسيرة حميدة خاصة في مساعدة المحتاجين والفقراء.

الشنفرى

حياته ونسبه

هو عمرو بن مالك الأزدي ويسمى أيضا ثابت بن أوس الأزدي ولقب بالشنفرى لغلظة في شفتيه وقيل: لحدة في طبعه، وكان أحد أفتك الصعاليك وأشهرهم، وعززت شهرته قصيدته الموسومة بلامية العرب. لم تذكر المصادر التاريخية لماذا سميت بلامية العرب، ولكن ربما وصفت بذلك لأنها تعبر عن اللسان العربي خير تعبير.

حياته

اختلفت الروايات حول نشأة وحياة الشنفرى، فقيل: إنه نشأ في قبيلة فهم العدنانية، وهي قبيلة أمه، وذلك بعد أن قتلت سلامان بن مفرج والده فأقسم أن يقتل مائة شخص من بني سلامان. وقد قتل منهم تسع وتسعين شخصا وقيل: أوفى المائة. وقيل: إن قبيلة سلامان سبت الشنفرى وهو غلام، فأوكله الذي سباه رعاية غنمه وكان يرعاها مع ابنة ذاك الرجل، فقال لها الشنفرى ذات يوم، اغسلي رأسي يا أخية، فلطمته. وخرج والد البنت إلى الشنفرى فوجده ينشد أبياتا عما فعلت الفتاة، قائلا:

ألا هل أتى فتيان قومي جماعة بما لطمت كف الفتاة هجينها
ولو علمت تلك الفتاة مناسبي ونسبتها ظلت تقاصر دونها
أليس أبي خير الأواس وغيرها وأمي ابنة الخيرين لو تعلمينها
إذا ما أروم الود بيني وبينها يؤم بياض الوجه مني يمينها

عندها سأله الرجل عن نسبه فقال الشنفرى: أنا أخو الحارث بن ربيعة. قال الرجل: لولا أني أخاف أن يقتلني بنو سلامان لأنكحتك ابنتي. قال الشنفرى: إن قتلوك، لأقتلن بك منهم مائة رجل، فخلى سبيله، وأنكحه ابنته. وبعد هذا الزواج قتلت بنو سلامان الرجل، فبدأ الشنفرى يوفي بوعده.

وعلى اختلاف الروايات فإنها تجمع على أن الشنفرى هو أحد الصعاليك وهو من قتل تسع وتسعين أو مائة من بني سلامان. وكان يسكن البراري مع صعاليك آخرين مثل عروة وتأبط شرا والسليك بن السلكة وغيرهم. وكان من فتاك العرب وعدائيهم، وقيل: إن الخيل لا تدركه لأنه كان أسرع منها في العدو، وأصبح يضرب به المثل في السرعة، فيقال: "أعدى من الشنفرى".

هناك الكثير من الأبيات في لاميته تتحدث عن حياة البراري وتبين أن الشنفرى كان يحبها واختار وحوش البادية ليكونوا أهلا له بدلا من أهله الذي كان يعيش بينهم. قال في ذلك:

ولي دونكم أهلون سيد عملس وأرقط زهلول وعرفـــاء جيـأل

هم الأهل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جر يخذل

ويقصد الشنفرى من خلال هذين البيتين أن هذه الوحوش أحق بتسمية الأهل من كثير من الناس وأنهم هم الذين يحفظون سره. أما كلمة سيد فهي اسم من أسماء الذئب، والعملس هو الخفيف أو القوي والسريع، والأرقط هو النمر أو الملون بأبيض وأسود، والزهلول هو الأملس، وعرفاء جيأل هي أنثى الضبع طويلة العرف. ويقول إن هؤلاء الأهل يحفظون السر ولا يفشونه وأنهم لا يسلمون صاحبهم إلى خصمه إذا ما ارتكب جناية.

شعره – لامية العرب

يعتبر بعض الأدباء أن لامية الشنفرى موازية للمعلقات من حيث البناء والثراء اللغوي وتستحق أن تكون منهن. وقد جمعت للشنفرى أشعار متفرقة، من غير اللامية، ولكن تبقى لامية العرب هي الأفضل والأجود بين قصائده وهي من أجود ما قيل: من الشعر العربي. تضم اللامية نحوا من سبعين بيتا، وربما سميت بلامية العرب لأنها كتبت بلغة الصحراء وتعبر عن اللسان العربي وحياة الصحراء ووحوشها.

أبدى الكثير من الأدباء والشعراء القدامى والمعاصرين إعجابهم باللامية، وكان عروة بن الورد من المعجبين بها. وقال: بعض الرواة أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه وأرضاه، قال: علموا أولادكم لامية العرب، فإنها تعلمهم مكارم الأخلاق، وهذه بعض أبياتها:

أقيموا بني أمي صـــدور مطيكـم فإني إلى قـــوم سواكم لأميـــل

فقد حمت الحاجات والليل مقمر وشدت لطيات مطايـــا وأرحـــل

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خـــاف القلى متعـــزل

لعمرك ما بالأرض ضيق على أمرئ سرى راغبـــا أو راهبا وهو يعقـل

وإن مدت الأيدي إلى الزاد لم أكـن بأعجلهم إذ أجشـــع القوم أعجل

وما ذاك إلا بسطـة عن تفضـــل عليهم وكان الأفضـــل المتفضـل

وإني كفاني فقـد من ليس جازيـــا بحسنى ولا في قربـــه متعلـــل

فأيمت نسوانـــا وأيتمت ولـــدة وعدت كما أبدأت والليل أليـــل

وأصبح عني بالغميصـــاء جالسا فريقـان مسؤول وآخـــر يســـأل

وقال في اللامية أيضا:

وليلة نحس يصطلي القوس ربهـــا وأقطعـــه اللاتي بهـــا يتنبـــل

دعست على غطش وبغش وصحبتي سعـــار وإرزيز ووجـــر وأفكـــل

يقول الشنفرى في البيت الأول: رب ليلة شديدة البرد (نحس)، في الصحراء يحرق (يصطلي) صاحبها قوسه وسهامه ليستدفئ بها، رغم حاجته لهذه السهام لحماية نفسه. وفي البيت الثاني يقول إنه عادة ما يمشي في ظروف قاسية جدا تتدرج بين الظلمة (غطش)،

والمطر (بغش)، ويصاحبه في رحلته هذه الجوع (سعار)، والبرد (إرزيز)، والخوف (وجر) وأحيانا يصل إلى حد الارتعاش (أفكل) من شدة البرد.

نهايته

كما ذكرنا سالفا، فقد قتل الشنفرى تسع وتسعين رجلا وقيل: مائة من بني سلامان. وعندما أثخن فيهم نصبوا له كمينا، وأقعدوا له رجالا من بني الرمد من غامد ليرصدوه، فأغار الشنفرى عليهم ليلا وعندما دنا من الماء ليشرب وثبوا عليه فأمسكوا به وربطوه إلى شجرة. وقالوا له أنشدنا؛ أي قل لنا بعض الشعر، فقال: النشيد على المسرة، فأصبحت مثلا بعد ذلك الحين. وقالوا له أين نقبرك؟ فقال:

لا تقبروني إن قبري محرم عليكم ولكن أبشري أم عامر
إذا احتملت رأسي وفي الرأس أكثري وغودر عند الملتقى ثم سائري
هنالك لا أرجو حياة تسرني سمير الليالي مبسلا بالجرائر

خاتمة

توفي نحو 70 ق.هـ/ 525 م. وترك وراءه بعض القصائد وتوجت سيرته باللامية، التي لو لم يقل: غيرها لكفت. وحافظت اللامية على ذكره وسيرته على مدى قرون، ولا تزال كذلك إلى يومنا هذا.

تأبط شرا

حياته ونسبه

هو ثابت بن جابر بن سفيان بن عدي بن كعب بن حرب، أحد شعراء الجاهلية وعدائيهم، وهو من الصعاليك من أهل تهامة. قيل: إنه لقب بتأبط شرا لأن أمه قالت له يوما: كل إخوتك يأتوني بشيء إذا ذهبوا، إلا أنت! قال سآتيك الليلة بشيء، ومضى فاصطاد أفاعي ثم أتى بهن في جراب متأبطا له، فألقاه بين يديها، ففتحته فتساعين في بيتها فوثبت وخرجت، فقال لها نساء الحي: ماذا أتاك به ثابت؟ فقالت: أتاني بأفاع. فقلن: وكيف حملها؟ قالت: وضعها في جراب وتأبطها، فقلن: لقد تأبط شرا! فلزمه هذا اللقب منذ ذلك الحين. وقيل: إنه لقب بذلك لأنه يتأبط سيفه، أي يضعه تحت إبطه كلما خرج للغزو، فقالت أمه ذات مرة: تأبط شرا، أي تأبط سيفه، فلقب بهذا اللقب بعدها.

حياته

أمه هي أميمة الفهمية، من بني القين، تزوجها أبو كبير الهذلي وكان لها ستة أبناء، أحدهم تأبط شرا. عاصر الشنفرى وعروة بن الورد وتصعلك معهم. وقد ذكرت له قصص ومغامرات كثيرة تتأرجح بين الحقيقة والخيال وربما كان بعضها من الخرافة، أيضا. كانت معظم غاراته على بني صاهلة من قبيلة هذيل وبني نفاثة من قبيلة كنانة. وهو أيضا أحد

أسرع الصعاليك في العدو وهو خال الشنفرى. عاش حياة مشابهة لأصحابه الآخرين من الصعاليك وكان مثلهم يأنس بحياة البراري وبردها وحرها وظبائها ووحوشها.

شعره

كان للصعاليك بصمات واضحة في الشعر العربي وترجمت بعض قصائدهم إلى لغات أخرى لأهمية وجاذبية هذه القصائد، خصوصا لامية العرب للشنفرى التي تحدثنا عنها سابقا. كانت قصائدهم تروي قصصا مختلفة تتدرج بين الشجاعة والإقدام وعزة النفس والصبر ومساعدة المحتاجين والكرم والحماسة والفخر والرثاء إضافة إلى وصف الحياة المجتمعية في حقبة ما قبل الإسلام. قال تأبط شرا في رثاء ابن أخته الشنفرى:

على الشنفرى ساري الغمام فرائح غزير الكلى أو صيب المـــاء باكـر

عليك جـــداء مثل يومك بالحيا وقد رعفت مني السيوف البواتــر

ويومك يـوم العيكتيـــــن وعطفـة عطفت وقد مس القلوب الحناجـر

تجيل سلاح المـوت فيهم كأنهـــم لشوكتك الحدى ضئين نوافـــــر

وطعنة خلس قد طعنت مرشـــــة لها نفذ تضل فيهـــا المسابـــــر

وله قصائد أخرى مميزة منها قصيدته التي أوردها الأديب طه حسين ضمن أفضل مائة قصيدة في الشعر العربي، حيث يقول فيها:

يا عيد ما لك من شوق وإيــراق ومر طيف على الأهوال طـــراق

يسري على الأين والحيات محتفيا نفسي فداؤك من سار على ســاق

إني إذا خلــة ضنـــــت بنائلهـــا وأمسكت بضعيف الوصل أحذاق

نجوت منها نجائي من بجيلة إذ ألقيت ليلة خبت الرهــط أرواقي

ليلة صاحوا وأغروا بي سراعهـــم بالعيكتين لدى معدى ابن بـــراق

لا شيء أسرع مني ليس ذا عـــذر وذا جناح بجنب الريـد خفـــاق

وقال:

ولا أتمنـــى الشر والشر تاركي ولكن متى أحمل على الشر أركب

ولست بمفراح إذا الدهر سرني ولا جازع من صرفه المتقلــب

ومن قصائده:

ألا عجب الفتيان من أم مالـك تقول أراك اليوم أشعث أغبرا

تبوعا لآثار السريـــة بعدمـــا رأيتك براق المفـــارق أيســرا

فقلت لها يومان يـــوم إقامـة أهز به غصنا من البان أخضــرا

ويوم أهز السيف في جيد أغيـد له نسوة لم تلق مثلي أنكـــرا

وقد صحت في آثار حوم كأنهـا عذارى عقيل أو بكارة حميـــرا

سرعته في العدو

يذكر أن عمرا بن أبي عمرو الشيباني قد نزل يوما على حي يسمى "بسة" من فهم، إخوة بني عدوان من قيس، ثم سألهم عن خبر تأبط شرا. قال بعضهم: لِمَ تسأل عنه؟ أتريد أن تصبح لصا؟ قال: لا ولكن أريد أن أسمع شيئا عن أخبار هؤلاء العدائين، فأحدث بها. قالوا نحدثك بخبره إذن: كان تأبط شرا أعدى ذي رجلين وذي ساقين وذي عينين وكان إذا جاع لم تقم له قائمة حتى ينظر إلى الظباء فيختار أسمنها، ثم ينطلق نحوها فلا يفوته حتى يأخذ ذلك الظبي ويذبحه بسيفه ثم يشويه ويأكله.

نهايته

خرج بعض الصعاليك ليلا لغزو بني نفاثة، من قبيلة كنانة، وكانوا بإمرة عامر بن الأخنس الفهمي، وكان من بينهم تأبط شرا. عندما وصلوا حي بني نفاثة انتظروا أن ينام الحي فبينما هم كذلك شعر بهم أحد رعاة بني نفاثة فأخبر قومه. شعر تأبط شرا بأن القوم اكتشفوا خطتهم، فقال لمن معه: "أتيتم والله، أنا والله أسمع حطيط وتر قوس، إني لأسمعه يا قوم النجاة النجاة!" لم يصغ له بقية الصعاليك، فتركهم وتراجع عن الغزو في تلك الليلة، فخرج القوم ليلا وقتلوا كل من جاء مع تأبط شرا ولم ينج منهم أحد سواه.

كان عامر من بين القتلى، فأقسم تأبط شرا أن يثأر له فخرج في نفر ممن معه وتلاقوا ببعض بني هذيل بين جبلين فقتلوا شيخا وعجوزا وحازوا جاريتين وإبلا وهرب غلام لهم

فأصر تأبط شرا على أن يتبع أثر الغلام، فلما رآه الغلام ولم يكن معه إلا قوسه وسهم واحد فأمهله حتى إذا دنا منه أطلق سهمه نحوه فاستقر في صدر تأبط شرا، لكنه لم يمت مباشرة وواصل تأبط شرا السير حتى أدرك الغلام فقتله، وماتا كليهما، نحو 530 م/ 65 قبل الهجرة.

الفصل الثاني

صدر الإسلام

صدر الإسلام[1]

بعثة النبي ﷺ وبداية الإسلام	1 للبعثة/ 610 م
هجرة النبي ﷺ	1هـ/622 م
1 أبو بكر رضي الله عنه	11 – 13 هـ/ 632- 634 م
2 عمر رضي الله عنه	13 – 23 هـ/ 634 – 644 م
3 عثمان رضي الله عنه	23 – 35 هـ/ 644 – 656 م
4 علي رضي الله عنه	35 – 40 هـ/ 656 – 660 م

[1] ويكيبيديا (الموسوعة الحرة).

صدر الإسلام

صدر الإسلام هو العصر الممتد منذ بعثة النبي ﷺ حتى نهاية زمن الخلافة الراشدة التي انتهت بمقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وأرضاه سنة 40 للهجرة. يعد شعر صدر الإسلام امتدادا للشعر الجاهلي لأن شعراء نهاية العصر الجاهلي هم أنفسهم شعراء بداية صدر الإسلام وكانوا يسمون بالشعراء المخضرمين لشهودهم الجاهلية والإسلام، ولكن طرأ على الشعر والشعراء تغيرات مهمة تتعلق بتهذيب الأخلاق والتركيز على الألفاظ والمعاني السامية.

ساهم دخول الإسلام في تغيير وتهذيب البيئة الشعرية فقد تحولت البيئة الجافة والقاسية إلى بيئة لينة سهلة بفضل دين الله تعالى الذي رقق ألفاظ الشعراء وكذلك تعليمات الإسلام السامية التي جعلت الشعراء ينتقون أطايب الكلام ويتجنبون الفاحش من القول خاصة ما كان منتشرا في الجاهلية كوصف الخمر والنساء والتي كانت من بين أبرز مواضيع الشعر الجاهلي. علاوة على ذلك، تأثر الشعراء في هذه الفترة بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

لقد اتسم شعراء صدر الإسلام بالورع والتقوى ومخافة الله سبحانه وتعالى وكانوا يركزون على ما فيه صالح وصلاح المسلمين، فبدلا من مدح القبيلة مدح الشعراء الإسلام وكانوا يعبرون عن فخرهم بالانتماء إلى الإسلام وليس انتماؤهم للقبيلة كما كان سائدا في

الجاهلية. اشتهر في فترة صدر الإسلام العديد من الشعراء مثل حسان بن ثابت وكعب بن زهير والخنساء رضي الله تعالى عنهم جميعا. لعب هؤلاء الشعراء دورا مهما في الدفاع عن الإسلام وإبراز محاسنه والذود عنه باللسان والسيف، خاصة أن العرب كانت تتأثر بالكلام كما تتأثر بالسيف وربما أكثر كما حدث في الكثير من المواقع ومنها ما هو مذكور بين طيات هذا الكتاب، تحديدا في عصر صدر الإسلام والعصر الجاهلي.

أما فيما يتعلق بالتسلسل الزمني للبعثة النبوية والخلافة الراشدية، فقد بدأ هذا العصر ببعثة النبي ﷺ التي استمرت ثلاثة عشر عاما في مكة وعشرة أعوام في المدينة؛ أي إلى سنة عشر من الهجرة. بعدها بدأت خلافة الصديق أبي بكر رضي الله عنه من عام أحد عشر للهجرة إلى ثلاثة عشر، لمدة سنتين وثلاثة أشهر. وقد بدأت خلافة الفاروق رضي الله عنة عام ثلاثة عشر وانتهت بمقتله شهيدا عام ثلاث وعشرين للهجرة وبعد ذلك بدأت خلافة عثمان رضي الله عنه من عام ثلاث وعشرين حتى عام خمس وثلاثين للهجرة ومن ثم خلافة أبي الحسن علي رضي الله عنه من عام خمس وثلاثين حتى عام أربعين من الهجرة النبوية. وقد تم اختيار الخلفاء الأربعة رضي الله تعالى عنهم جميعا عن طريق الشورى حيث استمر هذا الأمر حتى بداية العصر الأموي حين تغير نظام الحكم من الشورى إلى نظام التوريث أو النظام الوراثي، بدءا بيزيد بن معاوية بن أبي سفيان.

اتسم صدر الإسلام بكثير من السمات منها التركيز على مواضيع تتعلق بتعاليم الإسلام والقيم التي يدعو إليها بما في ذلك المدح والرثاء كمدح النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة وبيان فروسيتهم وشجاعتهم وإقدامهم في المعارك التي خاضوها على تخوم الدولة الإسلامية الوليدة. انتشر أيضا الرثاء لمن فقدوه في المعارك وغير ذلك من الحوادث.

من بين الشعراء الذين برزوا في مرحلة صدر الإسلام كعب بن مالك وحسان بن ثابت ولبيد بن ربيعة وكعب بن زهير والخنساء وعبدالله بن رواحة.

البراء بن مالك وكعب بن مالك

البراء – حياته ونسبه

هو البراء بن مالك بن النظر، أخو أنس بن مالك خادم الرسول ﷺ. كان مقداما جريئا أذهل الأعداء والأصدقاء ببسالته حتى قال عنه عمر بن الخطاب رضي الله: "لا تستعملوا البراء على جيش من جيوش المسلمين، فإنه مهلكة من المهالك". وقد قصد الفاروق، رضي الله عنه، أن الجيش ربما لا يطيق مدى إقدامه وشجاعته، وربما يلحق الضرر بجيش المسلمين نتيجة هذا الإقدام الكبير. وأخبره الرسول ﷺ بأنه مستجاب الدعوة، وكان أيضا يتمنى أن يموت شهيدا مما زاد في إقدامه على قتال الكفار والمرتدين.

معركة اليمامة

ظهرت حركة الردة بعد وفاة الرسول ﷺ فارتدت عن الإسلام عدة قبائل من العرب. كان أخطر هؤلاء المرتدين مسيلمة الكذاب، كذاب اليمامة. وفي تلك الأثناء جهز أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، جيشا بقيادة خالد بن الوليد لقتال مسيلمة وكان البراء بن مالك أحد أبطال هذه المعركة. كان جيش مسيلمة كبيرا وتجاوز عدده الأربعين ألفا وجيش المسلمين آنذاك لم يبلغ ربع هذا العدد. التحم الجيشان واستعر القتال وثبت الجيشان خلال المعركة، ونادى خالد بن الوليد البراء أن تكلم: فصاح البراء بكلمات مؤثرة قائلا: "يا أهل المدينة، لا مدينة لكم اليوم، إنما هو الله والجنة". استشعر المسلمون

الخطر فقاتلوا بكل ما أوتوا من قوة، وهزم جيش مسيلمة وتحصن في حديقة ذات أسوار عالية. أحاط جيش المسلمين بالحديقة، وظن المرتدون أنهم في حديقتهم آمنون. عندها قدر خالد أن الحرب ستطول، لأن المرتدين متحصنين داخل الحديقة، ولكن إقدام البراء حسم الموقف لصالح المسلمين.

نظر البراء رضي الله عنه إلى حال المرتدين وهم متحصنون داخل الحديقة، ونظر إلى المسلمين الذين لم يتمكنوا من اقتحامها بعد، فخطرت في ذهنه فكرة، فتقدم إلى الصحابة وقال: ألقوني عليهم، ثم رفعوه على ترس، ورفعوا الترس بالرماح، ثم قذفوا البراء من فوق سور الحديقة، فهبط عليهم من الأعلى. ذعر المرتدون من هول المفاجأة وبدأ البراء بمهاجمتهم وحيدا، فلم يزل يقاتلهم ويتقدم نحو باب الحديقة حتى تمكن من فتحه، ودخل المسلمون الحديقة وقتلوا مسيلمة، وقضي على جيشه.

وبعد أن تم النصر للمسلمين تفقدوا البراء، فإذا به أكثر من ثمانين جرحا بين ضربة سيف وطعنة رمح. وقد أشرف خالد بنفسه على تمريض البراء. كان البراء يتمنى الشهادة، ولكن شاء الله أن يواصل وطأته على الكفار حتى استشهد في معركة تستر، رحمه الله.

معركة تستر

بعد القادسية، بدأ الفرس يحضرون لمعركة جديدة وحشدوا عددا كبيرا من الرجال من أهل الأهواز والفرس ليواجهوا المسلمين، وكتب الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله

عنه، إلى سعد بن أبي وقاص في الكوفة ليرسل إلى الأهواز جيشا، وكتب إلى أبي موسى الأشعري بالبصرة ليرسل إلى الأهواز جيشا على أن يجعل أمير الجند سهيل بن عدي وليكون معه البراء بن مالك. التقى الجيشان، وبدأت المعركة وقتل البراء وحده أكثر من مئة من جنود الفرس. وعندما حمي الوطيس قال بعض المسلمين للبراء: ادع الله أن يهزمهم، وكانوا يعلمون أنه مجاب الدعوة. فقال البراء: اللهم امنحنا أكنافهم اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم وألحقني اليوم بنبيك. وما زالت المعركة على أشدها والقتلى يتساقطون من الطرفين، وأجيبت دعوة البراء رضي الله تعالى عنه وكان، رحمه الله، أحد شهداء هذه المعركة.

كعب بن مالك

هو الصحابي الجليل كعب بن مالك الأنصاري السلمي. هو أحد شعراء وفرسان الإسلام وهو أحد الثلاثة الذي تاب الله عليهم بعد تخلفهم عن غزوة تبوك، وروى الحديث عن رسول الله ﷺ. أسلم عندما سمع بدين الهدى وبايع النبي ﷺ في بيعة العقبة الثانية، ولما هاجر الرسول ﷺ وأصحابه آخى بينه وبين طلحة بن عبيد الله.

الثلاثة الذين خلفوا

كان الجو شديد الحرارة حينما وقعت غزوة تبوك، فتخلف عن الغزو مع رسول الله ﷺ ثلاثة رجال هم: كعب بن مالك ومرارة بن ربيع وهلال بن أمية. وكان كعب يفكر

باللحاق بالجيش بعد أن خرج، ولكنه لم يفعل حتى عاد الرسول ﷺ ومن معه. ففكر كيف يلقى رسول الله ﷺ أي باختلاق الأعذار والحجج أم بقول: الصدق، ثم قرر أن يقول: الصدق مهما كانت النتيجة.

عندما وصل الرسول ﷺ جاء المخلفون ومنهم المنافقون وقد جاوز عددهم الثمانين، فقال كعب: سلمت على الرسول ﷺ فتبسم تبسم المغضب. فقال: ما خلفك؟ قلت: يا رسول الله والله لو جلست إلى غيرك من أهل الدنيا، لخرجت من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلا! والله ما كان لي عذر حين تخلفت عنك. فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك.

فخرج من عند النبي ولم يكلمه الناس ولم يتعاملوا معه لأن الرسول ﷺ أمر بمقاطعة المخلفين. وبعد أربعين ليلة جائه أحد الصحابة وقال له: أن الرسول ﷺ يأمرك أنت ومرارة وهلال أن تعتزلوا نسائكم، فقال كعب: أأطلقها؟ قال لا ولكن اعتزلها. فأمر زوجته أن تلحق بأهلها.

وذات يوم، ذهب كعب إلى السوق، فإذا برجل نصراني من الشام يسأل عنه، وعندما قابله أعطاه النصراني رسالة من ملك غسان، فقرأها كعب ووجد فيها: أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك محمدا جفاك، ولم يجعلك الله بدار مذلة أو هوان، فالحق بنا نواسيك. وبعد أن قرأ كعب الرسالة قال في نفسه: والله إن هذه أيضا من الفتنة والابتلاء، ثم ألقى بالرسالة في النار.

وبعد هذا الصبر الذي استمر خمسين يوما جاء الفرج، عندما نزلت الآية الكريمة: (وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ)[1]

عندما جاء البشير سمع كعب صوته قبل أن يراه قائلا: أبشر يا كعب، فخر ساجدا لله. وقال له البشير: أبشر قد تاب الله عليك. فخلع كعب ثوبه وكان يرتدي عباءه. يقول كعب: والله لا أملك إلا هي وألبستها له. ثم استلفت ثوبان وسرت في طرق المدينة بعد الفجر فكنت أمشي في المدينة يتلقاني الناس أفواجا يهنئونني ودخلت المسجد وكان الصحابة حول النبي ﷺ فلما دخلت على النبي ﷺ سلمت عليه وهو يبرق وجهه وكان رسول الله ﷺ إذا ابتسم استنار وجهه كأنه القمر. وقال النبي ﷺ: أبشر يا كعب بخير يوم طلع عليك منذ ولدتك أمك، لقد تاب الله عليك. قال كعب سأتصدق بمالي في سبيل الله لكن الرسول ﷺ أمره أن يبقي بعض ماله.

وكان كعب بعد ذلك يقول: ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ شيئا من الكذب، وإني لأرجو أن يحفظني الله تعالى بقية عمري. وقال أيضا: والله ما أنعم الله علي

[1] سورة التوبة: (118-119).

من نعمة قط بعد إذ هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي أمام رسول الله ﷺ ألا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فقد قال الله تعالى:

(سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ)[1]

وواصل كعب جهاده في سبيل الله، ولم يتخلف عن حرب أبدا، فحارب المرتدين في عهد أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، وشارك في الفتوحات الإسلامية في عهد الفاروق، وكذلك في خلافة عثمان وعلي وأول خلافة معاوية، رضي الله عنهم جميعا.

شعره

كان كعب من الشعراء المميزين وأبدع في وصف الحروب والمعارك وكانت أبيات شعره أشد وطئا على المشركين والمرتدين من وقع السيوف. ويذكر أن قبيلة دوس أسلمت خوفا من قوله:

نخيرها ولو نطقت لقالـــت قواطعهن دوســـا أو ثقيفـا

[1] سورة التوبة: (95-96).

قال ابن سيرين: كان كعب أحد شعراء الرسول ﷺ الثلاثة الذين يردون عنه الأذى وينصرون الإسلام والمسلمين، وهم: كعب بن مالك وحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة، فكان كعب يخوفهم بالحرب، وكان حسان يهجوهم ويذكرهم عيوبهم، وكان عبد الله يعيرهم بالكفر. وروى ابن هشام أنه لما قال كعب، رضي الله عنه:

جاءت سخينة كي تغالـــب ربها فليغلبـــن مغالـــب الغـــلاب

أن رسول الله ﷺ قال له: لقد شكرك الله تعالى يا كعب على قولك هذا.

وقال في عثمان بن عفان، رضي الله عنه:

فكف يديه ثم أغلـــق بابـــه وأيقـــن أن الله ليس بغافـــل

وقال لمن في داره لا تقاتلـــوا عفا الله عن كل امرى لم يقاتل

فكيف رأيت الله صب عليهم العداوة والبغضاء بعد التواصل

وكيف رأيت الخير أدبر عنهـــم وولى كإدبـــار النعام الجوافـل

وقال في وصف الحرب

قضينا من تهامة كل ريـــب وخيبر ثم أجمعنـــا السيوفـــا

نخيرها ولو نطقت لقالـــت قواطعهن دوســـا أو ثقيفـــا

فلست لحاضن إن لم تروهـــا بساحة داركـــم منكم ألوفـــا

نجالد ما بقينـــــا أو تنيبـــوا إلى الإسلام إذعانـــا مضيفـــا

نجاهد لا نبالـــي من لقينـــــا أأهلكنـــــا التلاد أم الطريفـــــا

مواقف مشهودة

روى ابن هشام بعض المواقف لكعب في غزوة أحد حيث دعاه النبي ﷺ وألبسه ملابسه التي يلبسها في الحرب، ولبس النبي ﷺ ملابس كعب. وقال كعب: لما انكشفنا يوم أحد وكنت أول من عرف رسول الله ﷺ وبشرت به المؤمنين حيا سويا، وأنا في الشعب، وكان المشركون يوجهون إلى كعب السهام ظنا منهم أنه رسول الله ﷺ.

توفي، رضي الله عنه، بالشام خلال خلافة معاوية سنة 50هـ، وفقا لرواية الواقدي وقيل سنة 53 هـ، وعمره آنذاك يناهز 77 عاما.

النعمان بن مقرن ولبيد بن ربيعة

النعمان – نسبه وحياته

هو النعمان بن عمرو بن مقرن المزني. ولد في الجاهلية واستشهد في معركة نهاوند وهو أمير مزينة وشهد الأحزاب وبيعة الرضوان مع رسول الله ﷺ.

إسلام النعمان بن مقرن

كان يوم إسلامه يوما مشهودا، إذ أسلم معه عشرة أخوة له ومعهم أربعمائة فارس بين يدي رسول الله ﷺ. وقد شهد النعمان الغزوات كلها مع الرسول ﷺ وكان له ولقبيلته دورا بارزا في محاربة المرتدين. يذكر أنه قال لقومه في الليلة التي سبقت توجهه إلى رسول الله ﷺ: "يا قوم والله ما علمنا عن محمد إلا خيرا، ولا سمعنا من دعوته إلا مرحمة وإحسانا وعدلا، فما بالنا نبطئ عنه، والناس إليه يسرعون!" ثم أردف قائلا: "أما أنا فقد عزمت على أن أغدو عليه إذا أصبحت، فمن شاء منكم أن يكون معي فليتجهز". وقد فرحت المدينة فرحا كبيرا إذ لم يسبق لبيت من بيوت العرب أن أسلم منه أحد عشر أخا من أب واحد ومعهم أربع مائة فارس. ونزل فيهم قوله تعالى:

(وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ)[1]

[1] سورة التوبة: (99).

فتح الفتوح

كان النعمان بطل معركة نهاوند أو فتح الفتوح كما أطلق عليها بعض المؤرخين، لأن الدين الإسلامي انساح بعدها في بلاد فارس والمشرق. لقد ندب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه النعمان لهذه المهمة، حين استشار أصحابه وطلب منهم أن يرشحوا له قائدا لهذه المعركة الفاصلة. فقالوا: يا أمير المؤمنين، أنت أعرف برجالك. أعاد عليهم السؤال ولم يذكروا له أحدا، ثم قال لأولين رجلا يكون أول الأسنة إذا لقيها. قالوا: من يا أمير المؤمنين؟ قال: النعمان بن مقرن. قالوا: هو لها. فكتب عمر رضي الله عنه إلى النعمان: "لقد بلغني أن جموعا من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعرا فتؤذيهم ولا تمنعهم حقا فتكفرهم ولا تدخلهم غيضة، فإن رجلا من المسلمين أحب إليّ من مائة ألف دينار، والسلام عليكم".

سار النعمان بالجيش والتقى الجمعان، ودارت المعركة حتى ألجأ المسلمون الفرس إلى التحصن، فحاصروهم وطال الحصار عدة أسابيع وفكر المسلمون في طريقة يستخرجون فيها الفرس من حصونهم لمناجزتهم، فبعثوا إليهم خيلا تقاتلهم بقيادة القعقاع بن عمرو التميمي حتى إذا خرجوا من خنادقهم تراجع القعقاع فطمعوا وظنوا أن المسلمين قد هزموا، وكان النعمان قد أمر جيش المسلمين ألا يقاتل حتى يأذن لهم وخاطبهم قائلا: "إني مكبر ثلاث، فإذا كبرت الثالثة فإني حامل فاحملوا، وإن قتلت فالأمير

بعدي حذيفة بن اليمان فإن قتل ففلان"، حتى عد سبعة آخرهم المغيرة بن شعبة، ثم دعا ربه قائلا: "اللهم أعزز دينك، وانصر عبادك، واجعل النعمان أول شهيد اليوم، اللهم إني أسألك أن تقر عيني بفتح يكون فيه عز الإسلام واقبضني شهيدا". فبكى الناس من شدة التأثر ودارت المعركة على مشارف نهاوند، وقاد النعمان المعركة بشجاعة نادرة وظفر بالشهادة التي كان يتمناها، وتحقق الفتح العظيم الذي طلبه من الله، وقبل أن تفارق روحه الطاهرة جسده سأل أحدهم عن المعركة، فأخبر النعمان أن النصر كان حليفه، فقال النعمان: الحمد لله، اكتبوا بهذا إلى عمر، ثم صعدت روحه إلى بارئها.

وقد صدق حدس أمير المؤمنين فقد كان النعمان أول الأسنة، رحمه الله ورضي عنه. أخذ نعيم بن مقرن – أخو النعمان – الراية وسلمها لحذيفة. وبعد انتهاء المعركة وانتصار المسلمين ذهب البشير وأخبر أمير المؤمنين عمر قائلا: "فتح الله عليك، وأعظم الفتح، واستشهد الأمير"، فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون، واعتلى المنبر ونعى إلى المسلمين النعمان بن مقرن أمير نهاوند وشهيدها.

روايته لحديث النبي صلى الله عليه وسلم

لقد روى النعمان بعض الأحاديث عن رسول الله ﷺ مثل: "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر". وعن معقل بن يسار، عن النعمان بن مقرن أنه قال: شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لم يقاتل أول النهار، انتظر حتى تزول الشمس" صححه الترمذي. وروى

أحاديث أخرى. وقال عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه: "إن للإيمان بيوتا، وإن للنفاق بيوتا، وإن من بيوت الإيمان بيت ابن مقرن".

لبيد بن ربيعة – نسبه وحياته

هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر العامري. ولد في الجاهلية وهو من الشعراء المخضرمين. وهو أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية، عمه ملاعب الأسنة وأبوه ربيعة بن مالك المكنى، بربيعة المقترن، لكرمه. أسلم لبيد عندما وفد على رسول الله ﷺ لذلك فهو صحابي جليل، وترك الشعر بعد اعتناقه الإسلام ولم يقل إلا بيتا واحدا، وهو:

ما عاتب الحر الكريم كنفسه والمرء يصلحه القرين الصالح

استقر لبيد في الكوفة بعد إسلامه إلى أن وافته المنية عن سن يناهز السابعة والخمسون بعد المائة، كما ذكر ابن قتيبة.

عاش لبيد تسعين سنة في الجاهلية وما تبقى في الإسلام. لقد أرسل حاكم الكوفة يوما في طلب لبيد وسأله أن يلقي بعضا من شعره فقرأ لبيد (سورة البقرة) وقال عندما انتهى: "منحني الله هذا عوض شعري بعد أن أصبحت مسلما."

شعره

لقد أبدع لبيد في شعره وقدم العديد من القصائد الجزلة وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطـل وكل نعيـــم لا محالـة زائـــل

وكل أناس سوف تدخل بينهـــم دويهة تصفـــــر منها الأنامـــل

وكل امرئ يومـا سيعلـــم سعيه إذا كشفت عند الإله المحاصل

إلى آخر القصيدة. وقد ذكر في كتب الأدب أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعن أبيها أنشدت بيتا للبيد يقول فيه:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرب

فقالت كيف لو أدرك لبيد زماننا هذا، ماذا سيقول؟! وقد ردد نفس الكلام عدة أشخاص وقالوا كيف لو أدركت أمنا عائشة زماننا هذا؟ وهذا حديث مطول نختصره كي نتجنب الإطالة.

المعلقة

إضافة إلى القصائد المتعددة والمتنوعة التي قدمها لبيد فهو صاحب إحدى المعلقات، قال في مطلعها:

عفت الديار محلها فمقامهـا بمنى تأبـــد غولها فرجامهـا

فمدافع الريان عري رسمهـا خلقا كما ضمن الوحي سلامهـا

دمن تجرم بعد عهد أنيسهـــا حجج خلون حلالها وحرامهـا

رزقت مرابيع النجوم وصابهـا ودق الرواعد جودها فرهامهـا

توفي لبيد رحمه الله سنة 41 هـ/661م، مخلفا إرثا كبيرا من الشعر والحكمة ويصنف شعره كشعر جاهلي لأنه قال: كل قصائده في عصر الأدب الجاهلي ولم يقل: إلا بيتا واحدا في الإسلام كما ذكرنا مسبقا.

كعب بن زهير

حياته ونسبه

ولد كعب في الجاهلية وهو أبو عقبة كعب بن زهير بن أبي سلمة المزني. شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، وهو من عائلة امتازت بالشعر فأبوه زهير صاحب إحدى المعلقات وأخوه بجير شاعر، وكذلك ابنه عقبة وحفيده العوام أيضا.

شعره

كان كعب سليل أسرة شاعرة، أخذ الشعر عن أبيه الذي كان يصحبه إلى الصحراء فيعطيه بيتا أو شطرا ويطلب منه أن يكمله وكان أبوه ينهاه عن قول الشعر عندما كان صغيرا حتى لا يأتي بالضعيف ويشوه سمعة العائلة الشعرية. وقد أجمع كثير من الأدباء على أن زهيرا، والد كعب، هو أحد أشعر العرب. وقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: أشعر الناس من قال: "ومن ومن ومن" ويقصد الحكم في معلقة زهير حيث بدأ كثيرا منها بـ "ومن" مثل قوله:

ومن هاب أسباب المنايــا ينلنه وإن يرق أسباب السمـــاء بسلم

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمــم

أراد زهير لأبنائه أن يتجنبوا الشعر حتى ينضجوا وكان يضرب كعبا كلما قال الشعر وهو صغير حتى يثنيه عن ذلك لكن كعبا لم يتوقف عن قول: بعض الأبيات فغضب أبو وأمره بالتزام البيت ثم أمره أن يرعى غنمه. فقال كعب:

كأنما أحدو ببهمـــي عيــرا من القرى موقـــرة شعيــرا

فخرج إليه زهير وبعد أن وصله، قال:

إني لتعديني على الهــم جسرة تخب بوصال صروم وتعنــق

ثم قال لكعب: أجز. فرد كعب:

كبنيانة القرئي موضع رحلهـا وآثار نسعيها من الدف أبلـق

عندها أعجب بذلك زهير وقال: يا بني أذنت لك في الشعر.

تم جمع العديد من القصائد لكعب في ديوان شعري وتنوعت قصائده بين الفخر والمدح والهجاء والرثاء والغزل والوصف، ولكن قصيدته "البردة" فاقت كل ما قدمه من الشعر. ويرى بعض النقاد أن شعره ينقسم بين اتجاهين متباينين هما ما قبل الإسلام وما بعده حيث إن إسلام كعب غير نهج حياته وشعره وأمده بكثير من الصور، ورقق ألفاظه ومعانيه. وكان يميل في الجاهلية إلى الشدة في اللفظ وخاصة في وصف الصحراء، بينما امتاز شعره بعد الإسلام بالحكمة والابتعاد عن المواضيع الجاهلية، مثل قوله:

أعلـــم أني متى ما يأتــني قدري فليس يحبسه شح ولا شفـــق

بينا الفتى معجب بالعيش مغتبط إذ الفتى للمنايـــا مسكم غلـــق

والمرء والمال ينمي ثم يذهبـــه مر الدهـــور ويفنيه فينسحـــق

فلا تخافي علينا الفقـــر وانتظري فضل الذي بالغنى من عنده نثق

إن يفــن ما عندنا فالله يرزقنـــا ومن سوانا ولسنـا نحن نرتـــزق

إسلام كعب وقصيدته المشهورة "بانت سعاد"

يعلم الكثير منا قصة إسلامه المشهورة والتي ذكرت كثيرا في كتب التاريخ والأدب. لقد أسلم بجير قبل أخيه كعب فغضب لذلك كعب ثم هجا أخيه والمسلمين أيضا. وقال مخاطبا أخيه:

ألا بلغا عني بجيـــرا رسالـــة فويحك فيما قلت ويحك هل لكا

فبين لنا إن كنت لست بفاعـــل على أي شـــيء غير ذلك دلكا

على خلق لم آلف يومـــا أبا له عليه وما تلقـــى عليه أبا لكـــا

فان أنت لم تفعل فلست بآسف ولا قائل أما عثـــرت لعالكـــا

سقاك بها المأمـــون كأسا روية فأنهلك المأمـــون منها وعلكـا

فرد عليه بجيرا في قصيدة حثه فيها على اعتناق الإسلام كي ينجو في الدنيا والآخرة:

من مبلغ كعبا فهل لك في التي تلوم عليها باطلا وهي أحـــزم

إلى الله لا العزى ولا اللات وحده فتنجـو إذا كان النجـــاء وتسلم

لدى يـوم لا ينجو وليس بمفلت من النار إلا طاهر القلب مسلــم

فدين زهير وهو لا شـــيء دينه ودين أبي سلمـــى علي محـــرم

بعد أن تعرض كعب للإسلام والمسلمين أهدر الرسول ﷺ دمه بسب إيذائه للمسلمين. وقال له بجير: إن الرسول ﷺ لا يقتل من جائه تائبا فنصحه أن يأتي إليه خصوصا أن كثيرا من القبائل دخلت الإسلام وأنه لن يجد من يؤويه. عندما بلغ ذلك زهيرا ضاقت عليه الأرض بما رحبت، فلجأ إلى قبيلته مزينة لتجيره من النبي فأبت عليه، وعندئذ استبد به الخوف وأيقن أنه مقتول. وبدأ يفكر بالذهاب إلى المدينة، فذهب إلى رجل يعرفه من قبيلة جهينة، فأتى به الرجل إلى المسجد. وقال الرجل لكعب: ذاك رسول الله ﷺ فقم إليه واستأمنه. تلثم كعب وتوجه إلى الرسول ﷺ ووضع يده بيده، ثم قال: يا رسول الله إن كعبا جاء تائبا مسلما، فهل أنت قابل منه إن جئتك به؟ قال رسول الله ﷺ: نعم. فكشف كعب عن وجهه وقال: أنا هو، ثم أنشد لاميته:

بانت سعـــاد فقلبي اليوم متبــول متيـــم إثرها لم يفـــد مكبـــول

وما سعـــاد غداة البين إذ رحلـــوا إلا أغن غضيض الطرف مكحـــول

أمست سعـــاد بأرض لا يبلغهـــا إلا العتاق النجيبـــات المراسيـــل

يسعى الوشـــاة بجنبيها وقولهـم إنك يا بن أبي سلمـــى لمقتـــول

وقال كل خليـــل كنـــت آملـــه لا ألفينك إني عنـــك مشغـــول

فقلت خلـــوا سبيلي لا أبا لكـــم فكل ما قدر الرحمـــن مفعـــول

كل ابن أنثى وإن طالـــت سلامته يوما على آلة حدبـــاء محمـــول

أنبئت أن رســـول الله أوعدنـــي والعفو عند رســـول الله مأمـــول

مهلا هداك الذي أعطـــاك نافلة القرآن فيها مواعيـــظ وتفصيـــل

لا تأخذنـــي بأقوال الوشـــاة ولم أذنب ولو كثـــرت عني الأقاويـــل

إن الرسـول لنـــور يستضـــاء به مهند من سيـــوف الله مسلـــول

في عصبة من قريش قال قائلهـــم ببطـن مكة لما أسلمـــوا زولـــوا

زالوا فمازال أنكاس ولا كشـــف عند اللقـــاء ولا ميل معازيـــل

لا يقع الطعـــن إلا في نحورهـــم وما إن لهم عن حياض الموت تهليل

بعد أن انتهى من قصيدته أهداه رسول الله ﷺ بردته وألبسه إياها، لذلك سميت بالبردة وتسمى أيضا اللامية أو بانت سعاد. وقال الفاخوري: ما زالت البردة موجودة عند أبناء كعب حتى اشتراها معاوية منهم بعشرين ألف درهم وتوارثها الخلفاء الأمويين ثم اشتراها أبو جعفر المنصور بأربعين ألفا. وبعد ذلك آلت الى السلاطين العثمانيين وهي موجودة الآن في متحف الباب العالي في تركيا، كما ذكر بعض المؤرخين.

خاتمة

يعد كعب من الشعراء المخضرمين لأنه شهد الجاهلية والإسلام، وقد اعتنق الإسلام بعد معاداة لهذا الدين الحنيف، ولكن شاء الله له أن يسلم ويعتنق الإسلام بعدما دفع إليه دفعا نتيجة طلب المسلمين له وقلة المجيرين بعد انتشار الإسلام فكان ذلك سببا في هدايته ونجاته. توفي، رحمه الله، سنة 24 هـ 646 م.

القاضي شريح

حياته ونسبه

ولد أبو أمية، شريح بن الحارث بن قيس الكندي، في الجاهلية وعاش عمرا طويلا بلغ 108 سنين، وهو من أهل اليمن. عمل قاضيا للكوفة لما يقارب 60 عاما، وقال عنه علي بن أبي طالب، رضي الله تعالى عنه، أن شريحا أقضى العرب. أسلم قبل أن يتوفى رسول الله ﷺ ولكنه لم يره لذا فهو لا يعد من الصحابة، بل من التابعين. وكان يريد التوجه إلى المدينة المنورة لرؤية وملاقاة رسول الله ﷺ لكنه شغل عن ذلك، والله أعلم.

كان القاضي شريح فقيها ومحدثا وشاعرا، وارتبط اسمه بالعدل حيث نسمع باسمه كلما تكلم المتحدثون عن العدل والقضاء والحكم بين بالناس بالحق. وهو صاحب الأحكام والأفعال التي ما زال القضاة يذكرونها إلى يومنا هذا. وكان دأب شريح أن يساوي بين المتخاصمين بالحقوق والواجبات وإن تخاصم الوالي أو الأمير مع أشد الناس فقرا وضعفا.

شريح وزينب

ذكر في مصادر تاريخية مختلفة أن شريحا قال للإمام الشعبي بعد أن تزوج شريح من تميمية، أي من نساء بني تميم، يا شعبي: "عليكم بنساء بني تميم، فإنهن النساء! قال الشعبي وكيف ذاك؟ فقال شريح: مررت بدور بني تميم يوما، ورأيت امرأة جالسة

وبجانبها فتاة جميلة، من أحسن ما رأيت، فطلبت منها ماء، فقالت المرأة أي الشراب أحب إليك؟ فقال شريح: ما تيسر. فقالت المرأة لابنتها: اسقوا الرجل لبنا فإني أخاله غريبا! فلما شرب شريح نظر إلى الفتاة فأعجبته، فقال: من هذه؟ فقالت: ابنتي. قال شريح: أفارغة أم مشغول؟ فقالت: فارغة؛ أي غير متزوجة. ثم قال شريح: أتزوجينيها؟ قالت نعم إن كنت كفؤا لها. فتركها ومضى إلى بيته، ثم اصطحب بعض الأشراف وذهب إلى عمها ليخطبها. قال عمها: ما حاجتك يا أبا أمية؟ فذكر له ما جاء من أجله فوافق على الزواج. قال شريح وبعدما عدت إلى البيت بدأت أشعر بالندم، لأنني ظننت أنني تزوجت من أغلظ العرب قلوبا وأجفاها، بنو تميم. فهممت بطلاقها، ولكن شاء الله أن يتم الزواج.

قبل أن يدخل بها شريح قال لها إن من السنة أن أصلي ركعتين وأن تصلي ركعتين أيضا. فبدأ بصلاته، فلما انتهى وجدها تصلي خلفه. قال شريح: فلما خلا البيت اقتربت منها وقربت يدي منها فقالت: على رسلك! فقلت: في نفسي إنها منيت بإحدى المصائب، فحمدت الله وصلت على رسوله ﷺ. وقالت: إني امرأة عربية ولا والله ما سرت بطريق لا يرضي الله، وأنت رجل لا تزال غريبا، لا أعرف أخلاقك! فحدثني بما تحب فآتيه وما تكره فأجتنبه. فقلت لها أحب كذا وكذا وأكره كذا وكذا. ثم قالت أخبرني عن قرابتك: أتحب أن يزوروك؟ فقلت: أنا رجل قاض، وما أحب أن يملوني. فقضيت

معها ثلاثة أيام ثم خرجت إلى مجلس القضاء وكنت أرى كل يوم هو أفضل من الذي سبقه. وعندما انقضت السنة الأولى، وأنا على هذا الحال، دخلت المنزل وإذا بامرأة عجوز تأمر وتنهي في المنزل، فقلت: يا زينب: من هذه؟ فقالت: أمي. قلت مرحبا. قالت: يا أبا أمية كيف أنت وزوجك؟ قلت: إنها خير امرأة وقرينة ولقد ربيت فأحسنت التربية وأدبت فأحسنت التأديب. قالت إن المرأة لا ترى في حال أسوأ خلقا من حالتين: إذا حظيت عند زوجها وإذا ولدت غلاما! فإن رابك منها ريب فعليك بالسوط، لإن الرجال ما حازت في بيوتها شرا من الورهاء المدللة! والورهاء هي كثيرة الشحم أو الخرقاء. وقال شريح: مكثت معي زينب 20 سنة لم أعب عليها شيئا قط.

شعره

رويت عن القاضي شريح العديد من القصائد وكان كثير منها يتعلق بالعدل ومواضيع أخرى مختلفة. سنذكر من هذه القصائد بعض الأبيات فقط، تجنبا للإطالة:

قال شريح:

خذي العفو مني تستديمي مودتي ولا تنطقي في سورتي حين أغضب

فإني رأيت الحب في القلب والأسى إذا اجتمعا لم يلبث الحبّ يذهب

وقال في زوجته زينب:

رأيت رجالا يضربـــون نساءهـــم فشلت يميني حين أضرب زينبـــا

أأضربهـا في غير ذنب أتـــــت به فما العدل مني ضرب من ليس مذنبا

فزينب شمس والنســـــاء كواكـب إذا طلعت لم تبد منهـن كوكبـــا

فتاة تزين الحـيّ هي إن حليـــت كأن بفيهـا المسك خالـــط محلبا

القاضي شريح والخلفاء

عمل شريح في القضاء في عهد الفاروق عمر بن الخطاب ومن ثم عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنهم جميعا. وعمل أيضا بالقضاء خلال عهد معاوية، رضي الله عنه. وكان رزقه على القضاء في كل شهر مائة درهم، وقيل: خمسمائة درهم، والله أعلم.

وقيل: إن شريحا طلب من الفاروق، رضي الله عنه، أن يجعل دارا خاصة للقضاء، فسأله الفاروق، ولما ذلك؟ أجاب شريح بأن نبي الله داوود ﷺ لم يأت بالحكم الصحيح عندما تسوروا المحراب لأنه لم يكن مستعدا للقضاء. وقصد شريح أن القاضي عندما يكون في مجلس خاص للقضاء ومكان خاص أيضا فإن ذلك يجعله أكثر استعدادا ويستطيع أن يركز أكثر ليأتي بالحكم الصحيح. وأضاف شريح بأنه لابد من دار متخصصة

للقضاء وكان قبلها القاضي يحكم من داره. ولاه حينذاك الخليفة عمر، رضي الله عنه، قضاء الكوفة وجعل لها دارا خاصة بالقضاء وأمر بمثل ذلك في جميع الأمصار.

وهناك قصة جميلة أخرى لشريح مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، حيث تنازع مع يهودي على درع، فاحتكما إلى القاضي شريح، فقال شريح: هل من بينة يا أمير المؤمنين؟ قال نعم: الحسن ابني يشهد أن الدرع درعي. قال شريح: يا أمير المؤمنين شهادة الابن لا تجوز. فقال علي: سبحان الله، رجل من أهل الجنة لا تجوز شهادته؟ فقال شريح: يا أمير المؤمنين ذلك في الآخرة، أما في الدنيا فلا تجوز شهادة الابن لأبيه. ثم قال علي: صدقت الدرع لليهودي. فتعجب اليهودي من صنيع أمير المؤمنين وقاضيه الذي قضى لصالح اليهودي لعدم وجود الدليل الكافي. ثم قال أشهد أن هذا الدين على الحق، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، وأشهد أن الدرع درعك يا أمير المؤمنين، سقط منك ليلا. وبعد أن أسلم اليهودي أهداه أمير المؤمنين الدرع. ذكر البيهقي هذه القصة، ولكن البعض يرى أنها ضعيفة الإسناد، والله أعلم.

وقيل أيضا: إن الشعبي كان جالسا عند شريح ودخلت عليه امرأة تشتكي زوجها وتبكي بكاء شديدا، فقال الشعبي: أصلحك الله ما أراها إلا مظلومة مأخوذا حقها، قال: وما علمك؟ قال لشدة بكائها وكثرة دموعها. قال: لا تفعل إلا بعد أن تتبين أمرها، فإن إخوة يوسف جاؤوا أباهم عشاء يبكون، وهم له ظالمون.

خاتمة

لقد مكث في قضاء الكوفة مذ كان عمره 47 سنة حتى بلغ 107 سنين. وكتب في مجلس قضائه "إن الظالم وإن حكمت له ينتظر العقاب، وإن المظلوم وإن حكمت عليه ينتظر الإنصاف". وكتب حديث نبوي: "إنكم تختصمون إليّ وإنما أنا بشر فأيما رجل اقتطعت له حق من أخيه لا يستحقه فإنما اقتطعت له قطعة من النار سيطوق بها يوم القيامة". توفي رحمه الله سنة 78 للهجرة.

الخنساء وليلى الأخيلية

تحدثنا في الصفحات السابقة عن رجال أبدعوا في مجال التاريخ والأدب، رغم أن التاريخ والأدب العربي كان حافلا بالنساء اللواتي تميزن في مختلف نواحي الحياة، بما في ذلك الأدبية والتاريخية. سنتحدث في هذه الصفحات عن شاعرتين وأديبتين قدمتا إرثا مميزا من الشعر والحكمة، هما: الخنساء وليلى الأخيلية.

الخنساء

هي تماضر بنت عمرو السلمية ويعود نسبها إلى امرئ القيس، وهي صحابية جليلة وشاعرة مخضرمة أدركت الجاهلية والإسلام. كان والدها من سادات وأشراف العرب في الجاهلية. ولدت سنة 575م وهي من سكان نجد ولقبت بهذا الاسم لقصر أنفها وارتفاع أرنبتيه.

إسلام الخنساء

بعد أن انتشر الإسلام في جزيرة العرب، صحبت الخنساء بنيها وبني عمها من بني سليم وقدمت إلى الرسول ﷺ وأعلنوا إسلامهم عام 8 هـ - 630 م. وكانت قد بدت عليها ملامح الشيخوخة، إذ كان عمرها يتراوح بين الخمسين والستين آنذاك.

ذكر البعض أن الخنساء حضرت حرب القادسية سنة 16هـ، 638م، بقيادة سعد بن أبي وقاص، خلال خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنهما، وكان معها بنوها، أربعة رجال، فقالت لهم: "يا بني إنكم أسلمتم وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله غيره إنكم لبني رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم. وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية يقول الله: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ)[1]. فإذا أصبحتم غدا، إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين. وإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة". فلما بلغ إليها خبر استشهادهم جميعا، لم تجزع ولم تبك، ولم تحزن، وقالت قولتها الشهيرة: "الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته". وقيل: إن عمر بن الخطاب كان يعطي الخنساء أرزاق أولادها الأربعة، حتى قبض رضي الله عنه.

وقيل: إن الشهداء الأربعة لم يكونوا أبناء الخنساء وإنما هم أبناء امرة أخرى، لأن الخنساء لم يكن لها أربعة أبناء ذكور من رجل واحد، وفقا لما ذكر في بعض الروايات. ولكن

[1] سورة آل عمران: (200).

ربما كان لها أربع أولاد من زوجها مرداس ولم يتمكن الرواة من نقله، خصوصا أنها كانت تتلقى أرزاق بنيها الأربعة من بيت مال المسلمين في خلافة عمر رضي الله عنه، بواقع 200 درهم لكل واحد منهم، وذكر اسمها أيضا في ديوان بيت المسلمين مما يشير إلى أن هذه الرواية قد تكون صحيحة، والله أعلم.

حياتها الأسرية

أبت الخنساء إلا أن تتزوج من أبناء عمومتها، حتى وإن تقدم لخطبتها وجهاء القوم في تلك الأيام، وقالت لأبيها بعد أن تقدم لخطبتها دريد بن الصمة، فارس هوازن وجشم، يا أبت: أتراني تاركة بني عمي مثل عود الرماح، وناكحة شيخ بني جشم! ورفضت الزواج من سيد آل بدر أيضا، وتزوجت الخنساء من عبد العزى وولدت له عبدالله.

وتزوجت فيما بعد من مرداس بن أبي عامر السلمي، الملقب بالفيض لسخائه. وولدت له أربعة بنين هم: العباس وزيد ومعاوية وبنتا اسمها عمرة. وكان مرداس في رأيها أفضل الناس حلما ومروءة وشجاعة، فقالت فيه:

ليبك الفيض مرداسا سليـــم أولو أحسابها وأولو نهاهـــا

وخيل قد لففت بجمع خيل فدارت بين كبشيها رحاهـــا

شعرها

اشتهرت الخنساء بالرثاء وخاصة رثاء أخويها صخر ومعاوية وكان صخر يعطف عليها كثيرا ويساعدها عندما تزوجت من عبد العزى، الذي كان محبا للمال.

وكان يطلب منها المال ويلوح بهجرها إن لم تأت له به، فكانت تذهب إلى صخر فيشاطرها ماله. وقد أجمع أهل الأدب والشعر أنها كانت أشعر النساء وأشعر من كثير من فحول الشعراء الرجال. وقالت في رثاء أخيها صخر:

قذى بعينك أم بالعيــن عـــوار أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار

كأن عيني لذكــراه إذا خطـــرت فيض يسيل على الخدين مدرار

تبكي خناس على صخر وحق لها إذ رابها الدهر إن الدهـر ضــرار

قد كان فيكم أبو عمرو يسودكم نعم المعمـــم للداعين نصـــار

وإن صخرا لوالينـــا وسيدنـــا وإن صخرا إذا نشتـــو لنحـــار

وقالت في رثاء معاوية:

ألا لا أرى في الناس مثل معاويه إذا طرقت إحدى الليالي بداهيه

بداهية يصغى الكلاب حسيسها وتخرج من ســر النجي علانيــه

ألا لا أرى كالفارس الورد فارســا إذا ما علتـــه جرأة وعلانيـــه

كان بشار بن برد يقول: إنه لم تكن امرأة تقول الشعر إلا ويظهر فيه ضعف، فقيل له: وهل الخنساء كذلك، فقال: تلك التي غلبت الرجال. وسئل جرير عن أشعر الناس فأجابهم: أنا، لولا الخنساء، قيل: فيم فضل شعرها عنك؟ قال: بقولها:

إن الزمان وما يفنى له عجـــب أبقى لنا ذنبا واستؤصـــل الرأس

توفيت الخنساء، رحمها الله، سنة 24هـ، 645م، عن عمر يناهز 71 عاما. وقد قدمت ديوانا رائعا ما زال يتغنى به الشعراء والأدباء حتى عصرنا هذا.

ليلى الأخيلية

هي ليلى بنت عبد الله بن الرحال بن شداد بن كعب الأخيلية. ولدت في الإسلام، وهي شاعرة عربية مشهورة وكانت تتميز بالفصاحة والجمال. عاشت في مرحلة صدر الإسلام والعصر الأموي وكانت لها قصة حب مشهورة مع ابن عمها، توبة بن الحمير وقالت: قصائد كثيرة وبليغة في رثائه. تعتبر واحدة من أهم شعراء وشاعرات العرب ولا يتقدم عليها سوى الخنساء.

حياتها

أحبت ليلى توبة بن الحمير، ولكن أباها زوجها من أبي الأذلع واستمر توبة في زيارتها ما بين الحين والآخر، حتى شكاه زوجها إلى السلطان فهدر دمه. وذات يوم علمت ليلى أن توبة قد قدم لزيارتها فخرجت سافرة وجلست في طريقه، فلما رآها أدرك أنه قد نصب له كمين فرجع وقال:

حمامة بطــن الواديين ترنمــي سقاك من الغر الغوادي مطيرها

وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت فقد رابني منها الغداة سفورهــا

تزوجت ليلى مرتين، وكان زوجها الأول غيور جدا فطلقها لغيرته من توبة، وقيل: إنه مات. وتزوجت أيضا من سوار القشيري، وكان صحابيا وشاعرا مخضرما، وقيل: إنها أنجبت له بعض الأولاد. ولم يدعها والدها وأخوها فيما بعد أن تتزوج من توبة لحبه الشديد لها، وجهره به.

شعرها

كانت ليلى مشهورة بين الأمراء والخلفاء، فحظيت باحترامهم وأسمعتهم من قصائدها فنالت الهدايا والأعطيات، ونبغت في الرثاء والمدح. وكان الشعراء يحتكمون إليها، وكانت تفاضل بينهم. ويذكر أن ليلى دخلت على الخليفة، عبد الملك بن مروان،

وهي مسنة فسألها "ماذا رأى فيك توبة بن حمير حين أحبك؟" فقالت: يا أمير المؤمنين، ماذا رأى الناس فيك حين ولوك أمرهم!! فأعجبته إجابتها ولم يغضب منها. وكانت على صلة بالحجاج بن يوسف الثقفي فمدحته في قصيدة، سنذكر بعض أبياتها:

أحجاج لا يفلل سلاحـــك إنمـــا المنايا بكـــف الله حيث تراهـــا

إذا هبط الحجاج أرضا مريضـــة تتبع أقصـــى دائهـــا فشفاهـــا

شفاها من الداء العضال الذي بها همام إذا هـــز القنا سقاهـــا

سقاها دمـــــاء المارقين وعلها إذا جمحت يوما وخفيف أذاها

إذا سمع الحجاج صـوت كتيبة أعد لها قبـــل النزول قراهـــا

لقد أكرمها الحجاج بعد هذه القصيدة، وقال لمن معه: أتدرون من هذه المرأة؟ قالوا لا، ولم نسمع أفصح وأبلغ منها! قال: هذه ليلى صاحبة توبة. وقالت أيضا:

نحن الأخايـــل ما يزال غلامنـــا حتى يدب على العصـــا مذكورا

تبكي الرمـــاح إذا فقدن أكفنـا جزعا وتعلمنـــا الرفاق بحـــورا

ذكر في كتاب قصص العرب، لإبراهيم شمس الدين، أن ليلى مرت مع زوجها، بقبر عشيقها توبة بن الحمير، فقال لها زوجها: هذا قبر الكذاب الذي قال:

ولو أن ليلـــى الأخيلية سلمـــت علي ودوني جنـــدل وصفائــح

لسلمت تسليم البشاشة أو زقـــا إليها صدى من جانب القبر صائح

فقالت ليلى لزوجها دعك عنه! فقال: أقسمت عليك ألا تقتربي من قبره، فلم تجب، وسلمت على توبة، فما كان من إجابة، ثم تقدمت إلى القبر، وقالت: السلام عليك يا توبة، فطار من جانب القبر طائر كان هناك وزقا، ثم نفر جملها من الصوت، فوقعت منه فاندقت عنقها، وماتت ودفنت بجانبه، رحمها الله تعالى.

خاتمة

تميزت ليلي خلال عصرها على كافة النساء من الناحية الأدبية والشعرية، وقدمت ديوانا شعريا مميزا وثق بعض الأحداث التاريخية التي وقعت في العصر الأموي. توفيت رحمها الله تعالى حوالي 80 هـ.

الفصل الثالث

العصر الأموي

قائمة الخلفاء الأمويين[1]

	الاسم	فترة الحكم
1	معاوية بن أبي سفيان	41-60 هـ / 661-680 م
2	يزيد بن معاوية	60-63 هـ/ 680-683 م
3	معاوية بن يزيد	شهور قليلة من عام 64 هـ/ 683-684 م
4	مروان بن الحكم	64 هـ/ 684-685 م
5	عبد الملك بن مروان	65-86 هـ / 685-705 م
6	الوليد بن عبد الملك	86-96 هـ / 705-715 م
7	سليمان بن عبد الملك	96-99 هـ / 715-717 م
8	عمر بن عبد العزيز	99-101 هـ / 717-720 م
9	يزيد بن عبد الملك	101-105 هـ / 720-724 م

[1] ويكيبيديا (الموسوعة الحرة).

10	هشام بن عبد الملك	105-125 هـ / 724-743 م
11	الوليد بن يزيد	125-126 هـ / 743-744 م
12	يزيد بن الوليد	عدة شهور من عام 126 هـ /، 744 م
13	إبراهيم بن الوليد	126-127 هـ / 744 م
14	مروان بن محمد	127-132 هـ / 744-750 م

العصر الأموي

يمتد العصر الأموي من مقتل الخليفة الراشدي الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه سنة 40 ه وتولي معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه الخلافة إلى نهاية الدولة الأموية وبزوغ نجم الخلافة العباسية سنة 132ه. لم يكن العصر الأموي طويلا عند مقارنته بالعصر العباسي أو حتى الأندلسي، ولكنه كان حافلا بالإنجازات العظيمة التي سارت على نهج عصر صدر الإسلام الذي سبقه خصوصا خلال خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه. خلال حكم معاوية، استأنفت الفتوحات الإسلامية بعد أن توقفت نتيجة الفتن التي حصلت بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان واستمرارها خلال خلافة أبي الحسن رضي الله عنهم جميعا. شهدت الدولة في هذه الفترة اتساعا غير مسبوق في إفريقيا وفي الشرق نحو أوزباكستان وتحديديا بخارى وسمرقند حيث دخلتا في ظل الدولة الإسلامية خلال خلافة معاوية رضي الله تعالى عنه بواسطة جيش قاده سعيد بن عثمان بن عفان والمهلب بن أبي صفرة رضي الله تعالى عنهم جميعا.

تطور الأدب في هذه الفترة وتأثر ببعض العوامل السياسية والاجتماعية فظهرت فنون جديدة على نطاق الشعر والنثر منها الشعر السياسي أو الحزبي نتيجة تحزب الدولة وتفرقها بداية العصر الأموي إلى أن وحدها عبدالملك بن مروان تحت راية واحدة فيما بعد. بعد وفاة معاوية، ثارت الفتن مرة أخرى وتوقفت بسببها الفتوحات، بل وخرجت

بعض المناطق التي فتحها المسلمون من سلطة الدولة الإسلامية مثل بخارى وسمرقند الذين تم افتتاحهما مرة أخرى فيما بعد. خلال خلافة عبدالملك بن مروان، استأنفت الفتوحات وتوجهت شرقا وغربا وبلغت في هذا العصر الدولة الإسلامية أكبر اتساع لها خلال خلافة هشام بن عبدالملك.

برز أيضا في العصر الأموي شعر الهجاء كما حدث بين جرير والفرزدق إضافة إلى ألوان الشعر الأخرى. وكان لانتشار الهجاء في العصر الأموي الكثير من السلبيات لأن ذلك يناقض جوهر الإسلام الذي يساوي بين الناس ويدعو إلى حسن الخلق، بل وآخى بين المسلمين وجعل من الإيمان أن يحب المسلم للمسلم ما يحبه لنفسه. ورغم ما تحمله الهجائيات من سلبيات فقد ساهمت في إثراء المكتبة العربية بمزيد من القصائد في هذا النوع من الشعر.

اشتهر عدد من الشعراء في هذا العصر، وتبوأ الشعراء المجيدون مكانة مرموقة بين الناس إذ إن الخلفاء الأمويين، خاصة عبدالملك بن مروان، كانوا يقربونهم ويكرمونهم ويعقدون معهم مجالس الشعر والأدب. ومن أشهر الأدباء والشعراء الذين بروزا خلال الخلافة الأموية أبي الأسود الدؤلي، ملك النحو، وجرير والفرزدق وقيس بن الملوح.

كان نظام الحكم في العصر الأموي مخالفا لما كان عليه خلال الخلافة الراشدة وعصر النبوة إذا لم يسم أو يحدد أحد من الخلفاء أو النبي صلى الله عليه وسلم خليفة له

وإن كان هناك بعض الإشارات على تقديم بعص الصحابة على غيرهم، ولكن الأمر كان يتم بالشورى واختيار الخليفة واستمر هذا الحال حتى مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب واختيار الحسن خليفة، ولم يكن اختيار الحسن بطلب من علي، ولا بتوصية منه رضي الله عنهما، ولكن كان بإجماع واجتهاد ممن كان حوله. أما العصر الأموي، وتحديدا خلافة معاوية رضي الله عنه فهي التي مهدت لفكرة التوريث في الحكم فأصبح بعدها الحكم وراثيا يتوارثه الأبناء عن الآباء.

في هذا العصر، امتداد الدولة الأموية واتسعت اتساعا عظيما حيث بلغت حدودها تخوم الصين شرقا وتخوم فرنسا غربا إضافة إلى توسعها في إفريقيا، بل وغزت عقر دار الروم في القسطنطينية خلال خلافة معاوية وخلال خلافة سليمان بن عبدالملك رضي الله تعالى عنهم جميعا.

من سمات هذا العصر الأدبية ازدهار شعر الغزل وكذلك ازدهار الخطابة والاعتناء باللغة خصوصا بعد اختلاط العرب بالعجم نتيجة توسع الفتوحات حيث دخلت أمم كثيرة في الإسلام وهم ممن يتكلمون لغات أخرى غير العربية.

أبو الأسود الدؤلي

ملك النحو

حياته ونسبه

اسم احتل مكانة بارزة في عدة مجالات لاسيما الشرعية والأدبية والشعرية. كان من سادات ودهاة التابعين، عليهم رضوان الله جل وعلا. إنه أمير وقاضي البصرة ظالم بن سفيان الدؤلي الكناني المعروف بأبي الأسود الدؤلي. كان رحمه الله من أوائل النحاة وهو من وضع علم النحو جزاه الله عنا خيرا.

ولد سنة 16 قبل هجرة النبي ﷺ وآمن به لكنه لم ير رسول الله ﷺ لذلك يعد من كبار التابعين وتوفي سنة 69 للهجرة. تولى عددا من المناصب في خلافة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين. كان عبدالله بن عباس أميرا على البصرة أثناء خلافة علي بن أبي طالب وكان أبو الأسود الدؤلي كاتبا له ثم ولاه قضاء البصرة وعندما رجع ابن عباس إلى المدينة استخلف على إمارة البصرة أبا الأسود الدؤلي فأقره الخليفة علي أميرا عليها.

وضعه لعلم النحو

كان أبو الأسود الدؤلي فصيحا وأديبا وشاعرا وقد أجمع الكثير من النحاة والمؤرخين على أن الدؤلي هو أول من أسس ووضع علم النحو، ويرى البعض أن نصر بن عاصم الليثي كان أيضا ممن وضعوا علم النحو، وقد كان نصر بن عاصم أحد تلامذة أبي الأسود الدؤلي.

يذكر أن أبا الأسود هو أول من وضع باب الفاعل والمفعول والمضاف وغيرها مما يسمى اليوم بالإعراب، وهو أول من وضع التشكيل على حروف القرآن الكريم لذلك كان يلقب بملك النحو.

لقد كان هناك اختلافا في هذه المسألة، ولكن ما ورد في المصادر القديمة يبين أن أبا الأسود هو أول من رسم النحو. وقد قيل: إن أبا الأسود الدؤلي وضع علم النحو بناء على طلب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله تعالى عنه، لأنه سمع اللحن في كلام بعض المسلمين وخاصة الذين اعتنقوا الإسلام وجاؤوا من مناطق الفتوحات.

قال أبو الأسود الدؤلي "أرى العرب قد خالطت العجم فتغيرت ألسنتهم"؛ لذلك بدأ مشروعه النحوي وقد رأى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ما أعده أبو الأسود الدؤلي في هذا المجال فقال: ما أجمل النحو الذي نحوت، فسمي بعد ذلك بالنحو. وقيل أيضا: إنه هو من وضع النقاط على الحروف وقيل أيضا: والله أعلم، إن من وضع النقاط على الحروف هو تلميذه نصر بن عاصم الليثي بأمر من الحجاج بن يوسف الثقفي، وسنتناول هذا الموضوع في الصفحات القادمة إن شاء الله تعالى.

قال أبو الأسود دخلت على علي، فرأيته مطرقا، فقلت: فيم تتفكر يا أمير المؤمنين؟ قال: سمعت ببلدكم لحنا فأردت أن أضع كتابا في أصول العربية. فقلت: إن فعلت هذا، أحييتنا. فأتيته بعد أيام، فألقى إليّ صحيفة فيها: الكلام كله، اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا

فعل، ثم قال لي: زده وتتبعه، فجمعت أشياء ثم عرضتها عليه. ومن هنا بدأ العمل بالنحو في اللغة العربية.

شعر أبو الأسود الدؤلي

كان لأبي الأسود الدؤلي مكانته الشعرية وقال عنه ابن كثير في كتابه البداية والنهاية: "كان له شعر حسن". لقد كتب العديد من القصائد التي تعالج قضايا ومواضيع مختلفة، وقد جمعت هذه القصائد بعدة مؤلفات منها ديوان أبي الأسود الدؤلي. يضم هذا الديوان عشرات القصائد سنذكر منها بعض الأبيات.

كتب أبو الأسود إحدى قصائده عن صديق له يسمى "نصر بن مالك" وقد خرج مع الحرورية، وهي فئة خرجت على علي رضي الله عنه، فأصيب معهم فقال أبو الأسود في ذلك:

لعمرك ما نصـــر فلا تحسبـــه من المسلمين بالقوي ولا الجلد
خرجت مع العوراء تلتمس الهدى وكان الهدى فيما تركت على عمد
وقد كان في الفرقان لو كنت باغيا لنفسك منه ما يدل على الرشــد

وقال أبو الأسود لرجل من بني نهد من قضاعة:

وما طلـــب المعيشة بالتمنـــي ولكـــن ألق دلـــوك في الدلاء
تجئك بملئهـــا طـــورا وطورا تجئك بحمـــأة وقليل مـــاء

ماذا قال عنه العلماء؟

قال عنه أحمد العجلي: ثقة وأول من تكلم بالنحو. وقال عنه الواقدي: كان من وجوه التابعين ومن أكملهم عقلا ورأيا وقد أمره علي، رضي الله عنه، بوضع النحو لما سمع اللحن. وقال عنه الجاحظ: أبو الأسود مقدم في طبقات الناس، وكان معدودا في الفقهاء والشعراء والمحدثين والأشراف والفرسان والأمراء والدهاة والنحاة ومن الحاضرين الجواب، وكان حكيما وأديبا. قال محمد بن سلام الجمحي: أبو الأسود هو أول من وضع باب الفاعل والمفعول والمضاف وحرف الرفع والنصب والجر والجزم، فأخذ ذلك عنه يحيى بن يعمر.

ويعتبر الدؤلي من الدهاة الذين يمتازون بالرأي الراجح حيث روي أن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أراده ليكون المفاوض عنه في حادثة التحكيم بعد وقعة صفين فأبى الناس عليه ثم روي أن أبا الأسود الدؤلي دخل على معاوية بالنخيلة فقال له معاوية: أكنت ذكرت للحكومة؟ (أي الحكم بين الفريقين المتخاصمين وهما أتباع علي وأتباع معاوية، رضي الله عنهما. فقال الدؤلي: نعم. قال معاوية فما كنت صانعا: قال: كنت سأجمع ألفا من المهاجرين وأبنائهم وألفا من الأنصار وأبنائهم ثم أقول يا معشر من حضر أرجل من المهاجرين أحق أم رجل من الطلقاء؟ فضحك معاوية ثم قال: إذن والله ما اختلف عليك اثنان (وقصد معاوية هنا أن حجة أبي الأسود كانت مقنعه وأن الناس

سيرضون بحكم أبي الأسود بأن عليا أحق بالخلافة)، خصوصا أن المسلمين جميعا يعرفون فضل المهاجرين وأصحاب بدر، وعلي رضي الله عنه، منهم.

خاتمة

أصيب آخر حياته بمرض الفالج حيث سبب له العرج وتوفي بالطاعون سنة تسع وستين للهجرة في البصرة خلال خلافة عبد الملك بن مروان عن عمر يناهز الخامسة والثمانين. هكذا كانت حياة أبي الأسود الدؤلي مليئة بالإنجازات العظيمة ولا تزال بصماته واضحة في الأدب والشعر ونرى هذه البصمات جلية كلما قرأنا اللغة العربية، رحمه الله تعالى.

الحجاج بن يوسف الثقفي

حياته ونسبه

هو أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي، أحد أبرز قادة العصر الأموي. ولد في الطائف سنة 41 هـ/660 م ونشأ فيها ثم انتقل إلى الشام ليلتحق بجيش الخليفة عبد الملك بن مروان، وكان اسمه كليبا ثم أبدله بالحجاج. والده يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود من بني ثقيف وأمه هي الفارعة بنت همام بن الثقفي، الصحابي الشهيد. لقد اقترن اسم الحجاج بالظلم، فلا يكاد اسمه يذكر إلا وخطر على بال المستمع الظلم.

أكبر وال في التاريخ

عندما نتحدث عن شخصية الحجاج، التي استقطبت الكثير من الجدل والاهتمام، فلابد من مراعاة الحقبة التي عاش وحكم فيها، حيث كانت الفتن تعصف بالدولة الأموية ومزقتها إلى دويلات، كدولة عبد الله بن الزبير، رضي الله عنه، في الحجاز ودولة الخوارج في الشرق؛ لذا فقد كانت الدولة بحاجة إلى الحزم والشدة لإعادة بنائها وهيبتها. كان الحجاج يتأمل في حالة الدولة الإسلامية وما آلت إليه وكان على خلاف مع رجال عبد الله بن الزبير وكان يرى أن عبد الملك بن مروان هو الشخص والخليفة الوحيد الذي يمكن أن يسترد الدولة، فتوجه إلى دمشق وانضم إلى شرطتها بقيادة روح بن زمباع للمساهمة في

استعادة هيبة ومكانة الدولة الإسلامية. لاحظ القائد روح شدة وصلابة الحجاج، خلال وقت قصير جدا، فقربه وقدمه إلى الخليفة عبد الملك، الذي توسم به خيرا فعلى رتبته.

لقد قيل في الحجاج: الكثير ولبست سيرته بالخوارق وربما كانت بعض الأمور التي وصف بها غير صحيحة، وفقا لما رواه بعض المؤرخين. الآن وبعد أن مضى 1300 عام تقريبا على وفات الحجاج، سنحاول بإذن الله أن نسلط الضوء على أهم إنجازاته وبعض المظالم التي ارتكبها ووثقها ضده المؤرخون الثقات كابن كثير، والذهبي.

حروب الحجاج

تدرج الحجاج في الجيش الأموي حتى تقلد مناصب قيادية في وقت وجيز، وعندما تخلص عبد الملك بن مروان من مصعب بن الزبير في العراق، قرر أن يوجه جيشا عظيما بقيادة الحجاج للقضاء على دولة عبد الله بن الزبير في مكة. توجه الحجاج إلى مكة وحاصرها حصارا طويلا، مما ينفي فرضية رمي الكعبة بالمنجنيق كما يظن البعض. وقال ابن تيمية رحمه الله في الجواب الصحيح (502/5): كان الحجاج معظما للكعبة ولم يرمها بمنجنيق، وزاد على ذلك بأن الحجاج لم يكن عدوا لها ولا أراد هدمها خصوصا أن الحجاج تقدم بجيشه فاحتل الأخشبين، جبل قيس وجبل قعيقان، وهما قريبان جدا من المسجد الحرام، الذي كان مفتوحا من أكثر من ناحية وهو ليس كالحصون أو القلاع، لذلك لم يكن بحاجة إلى منجنيق.

لقد أعطى الحجاج الأمان لابن الزبير وكل من أراد أن يخرج من مكة مسالما فرفض عبد الله وخرج منها خلق كثيرون. دخل الحجاج مكة وقتل وصلب عبد الله بن الزبير، وأقره الخليفة واليا على مكة والمدينة ومكث فيهما زهاء سنتين، ثم عزله الخليفة لكثرة شكوى الناس منه ومن ثم ولاه العراق بعد موت بشر بن مروان الذي كان يحكمه آنذاك.

ولاية الحجاج على العراق

كانت العراق، قبل أن يتولاها الحجاج، تعج بالفتن والاضطرابات، وولي الحجاج على العراق وهو كاره لأهلها وأهلها له كارهون، فكان حكما بالإجبار وكان أهل العراق يدركون تماما أنه لا فكاك لهم من الحجاج إلا بموته، لذلك حاولوا قتله أكثر من مرة، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل. كانت خطب الحجاج مليئة بشتم أهل العراق، وقد أخذهم بالسيف حتى استقام له الأمر. عندما قدم الحجاج إلى العراق، توجه إلى مسجد في الكوفة وأمر الناس أن يجتمعوا به، ثم دخل الحجاج ملثما بعمامة حمراء، واعتلى المنبر وأطال الجلوس دون أن يتكلم فضج الناس من سكوته، ثم خلع عمامته فجأة وبدأ خطبته المشهورة بقوله:

أنا ابــن جلا وطــلاع الثنايــا متى أضـــع العمامــة تعرفوني

ساهمت قسوة الحجاج في تخفيف الفتن تدريجيا حتى قضى عليها تماما بعد حرب عبدالرحمن بن الأشعث. وفي بداية ولايته كان المهلب بن أبي صفرة يقاتل الخوارج، فأمر جميع القادرين من أهل العراق على حمل السلاح بإتباع المهلب ونصرته، وعندما لمس منهم التقاعس، أمهلهم ثلاثة أيام وهدد بقتل من يجده بعد الأيام الثلاثة متخلفا وكذلك هدم داره ومصادرة أمواله. وبعد قتل أحدهم، ذعر أهل العراق وتوجهوا إلى المهلب وكان له النصر في ذلك. لقد استمرت ولاية الحجاج في العراق عشرين عاما.

ثورة ابن الأشعث

كانت هذه الثورة نهاية الفتن في عهد الحجاج، ففي عام 80 للهجرة ولى الحجاج عبد الرحمن بن الأشعث على سجستان وزوده بجيش كبير سمي بجيش الطواويس، لما زود به من تجهيزات واستعدادات عظيمة. توجه ابن الأشعث إلى سجستان وفتح الكثير من أراضيها لكنه أعلن خلع الحجاج فيما بعد. وفي عام 81 ساند أهل البصرة ابن الأشعث وقاتلوا الحجاج فكانت الهزيمة ملازمة لجيش الحجاج بكل وقعة بينهما، باستثناء الوقعة الأخيرة، أو ما يعرف بوقعة دير الجماجم، حيث زوده الخليفة بجيش من الشام وانتصر الحجاج. كانت هذه الوقعة من أكثر الوقائع هولا في تاريخ الدولة الأموية وقتل فيها خلق كثيرون، وكانت هي معركة الفصل حيث وقع جيش ابن الأشعث بين قتيل وأسير سنة 83 هـ.

إنجازات الحجاج

يعتبر الحجاج أكبر وال في التاريخ، لأنه حكم مساحات شاسعة تمتد من العراق وإقليم البحرين (الممتد مما وراء البصرة حتى دولة الإمارات في أيامنا هذه) وبلاد فارس وباكستان وكانت خيوله تدك الحصون في باكستان والهند على يد الغلام القائد محمد بن القاسم الثقفي (ابن عم الحجاج) الذي لم يتجاوز سن السابعة عشر في تلك الأيام. ووصلت خيوله إلى تخوم الصين، أقصى الشرق، على يد القائد قتيبة بن مسلم، رحمه الله، الذي عينه الحجاج قائدا للجيوش في تلك المنطقة.

لقد توسعت الفتوحات بشكل كبير في نهاية خلافة عبد الملك وخلافة الوليد، وعندما توفي الخليفة عبد الملك بن مروان سنة 86 هـ، تولى الوليد زمام الحكم، وأقر الوليد الحجاج على ما كان عليه وقربه أكثر. لقد لعب القائدان، محمد وقتيبة، اللذان اختارهما الحجاج دورا بارزا في الفتوحات حيث تولى قتيبة بن مسلم الباهلي قيادة جيوش خراسان سنة 87 هـ، وقد باشر قتيبة فتوحاته في بلاد ما وراء النهر في العام نفسه. ففتح بيكند، ثم فتح بخارى وبلخ سنة 90هـ، وسمرقند سنة 93هـ، وكابل سنة 94هـ، وأخيرا فتح كاشغر سنة 96هـ، (وهي عاصمة تركستان الشرقية) وبلغ بذلك حدود الصين، لكنه لم يغز الصين قط، غير أنه أجبر إمبراطورها على دفع الجزية للأمويين، وكانت هذه أقصى فتوحات المشرق. لقد بلغت بذلك مساحة الأراضي التي ولي عليها (وهي: ولاية خرسان وعاصمتها آنذاك مرو) أكثر من 4000000 كيلومترا مربع، وبلغ طول حدودها أكثر من

4000 كم. هذا وقد تولى محمد بن القاسم الثقفي في الوقت ذاته إقليم السند، حيث سار في شهر ربيع الأول سنة 89هـ على رأس جيش قوامه 6000 رجل، وفتح المدن وواجه داهر ملك السند في معركة نهر مهران، وانتصروا عليه وقتلوه على الرغم من استعانة الهنود بالفيلة في تلك المعركة وأخيرا فتح مدينة الملتان سنة94 هـ، وهي من أهم مدن تلك البلاد، وبذلك أتم فتح السند وضمت بدورها إلى الدولة الأموية.

يذكر أن الفتوحات توقفت على حدود الصين بموت الحجاج وموت قتيبة بن مسلم وقال البعض لو كان الحجاج حيا لما ترك الصين حتى يفتحها.

لم تتوقف إنجازات الحجاج على الحروب والفتوح، إنما كانت له بصمات واضحة إلى يومنا هذا في مجالات أخرى، ولعل أجل إنجازاته هو أمره بتنقيط المصاحف، ورغب في أن يعتمد الناس على قراءة واحدة، وأخذ الناس بقراءة عثمان بن عفان، رضي الله عنه وأرضاه، وترك غيرها من القراءات، وكتب مصاحف عديدة موحدة وبعث بها إلى الأمصار. وقد طلب الحجاج من الخليفة عبد الملك تعريب الدواوين، وإصدار الدراهم العربية وضبط معيارها، وقام الحجاج أيضا بإصلاح الزراعة في العراق بحفر الأنهار والقنوات وبنى مدينة واسط وأحيا الأرض الزراعية من خلال إعانة الفلاحين.

الحجاج والظلم

لقد وثق المؤرخون الكثير من المظالم ضد الحجاج ولعل أكبرها هو تسرعه في سفك دماء المسلمين بأدنى شبهه. وقال بعض أهل العلم بأن الحجاج كان يكفر المسلم

إذا خرج على ولي الأمر ويرى أن قتله حلال، وكان يظن أنه يتقرب إلى الله بفعله هذا. لقد قتل عبد الله بن الزبير وصلبه، وقتل التابعي الجليل سعيد بن جبير وخلقا كثيرا في حروبه، خصوصا في معركة دير الجماجم.

ماذا قال عنه العلماء؟

قال الذهبي: كان الحجاج ظلوما، جبارا خبيثا سفاكا للدماء، وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء وفصاحة وبلاغة وتعظيم للقرآن، فلا نسبه ولا نحبه، بل نبغضه في الله، فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان. وله حسنات مغمورة ببحر ذنوبه، وأمره إلى الله وله توحيد في الجملة، ونظراء من ظلمة الجبابرة والأمراء. وقال الذهبي أيضا: عندي مجلد في أخبار الحجاج فيه عجائب كثيرة، ولكن لا أعرف مدى صحتها، أي أنها ربما كان مبالغ بها.

قال ابن كثير: كان في الحجاج شهامة عظيمة وفي سيفه رهق، وكان يغضب غضب الملوك، وكان جبارا عنيدا مقداما على سفك الدماء بأدنى شبهة، وقد روي عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر، فإن كان قد تاب منها وأقلع عنها، وإلا فهو باق في عهدتها، ولكن يخشى أنها رويت عنه بنوع من زيادة عليه .... وكان يكثر من تلاوة القرآن ويتجنب المحارم. ولم يشتهر عنه شيء من التلطخ بالفروج، وإن كان متسرعا في سفك الدماء. فلا نكفر الحجاج ولا نمدحه، ولا نسبه ونبغضه في الله بسبب تعديه على بعض حدود الله وأحكامه، وأمره إلى الله. وتحدث ابن كثير عن بعض من استعملهم الحجاج وكانوا ذوي سمعة طيبة، مثل عروة بن المغيرة بن شعبة، حيث ولاه الكوفة وقتيبة بن مسلم.

وقال أحمد بن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان الداراني يقول :كان الحسن البصري لا يجلس مجلسا إلا ذكر فيه الحجاج فدعا عليه، قال: فرآه في منامه فقال له: أنت الحجاج؟ قال: أنا الحجاج. قال: ما فعل الله بك؟ قال: قتلت بكل قتيل قتلته، ثم عزلت مع الموحدين. قال: فأمسك عنه الحسن بعد ذلك.

قال محمد بن المنكدر: كان عمر بن عبد العزيز يبغض الحجاج فنفس عليه بكلمة قالها عند الموت: "اللهم اغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل". وقال الأصمعي: لما حضرت الحجاج الوفاة أنشد يقول:

يا رب قد حلف الأعداء واجتهدوا بأنني رجل من ساكني النار

أيحلفون على عمياء ويحهم ما علمهم بكريم العفو غفار

وزاد بعضهم أنه قال:

إن الموالي إذا شابت عبيدهم في رقهم عتقوهم عتق أبرار

وأنت يا خالقي أولى بذا كرما قد شبت في الرق فاعتقني من النار

من مواقف الحجاج

لقد سجل التاريخ الكثير من المواقف والخطب والرسائل للحجاج، وهذا يدل على عظم نفوذه، وسنتحدث فقط عن اثنين من هذه المواقف. يذكر أنه ورد على الحجاج رجل اسمه سليك، فقال: عصى عاص من عرض العشيرة فمنعت العطاء وهدم منزلي وقبضوا علي، لان بيني وبينه صلة القرابة! فقال الحجاج أما سمعت قول الشاعر؟

جانيك من يجني عليك وقد تعدي الصحاح مبارك الجرب

ولرب مأخوذ بذنب عشيره ونجا المقارف صاحب الذنب

قال الرجل: أصلح الله الأمير، إني سمعت الله عز وجل يقول غير هذا. قال الحجاج ماذا قال سبحانه؟ قال الرجل: قال تعالى:

(قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۞ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓۖ إِنَّآ إِذٗا لَّظَـٰلِمُونَ)[1]

فقال الحجاج إليّ بيزيد بن أبي مسلم! فمثل يزيد بين يديه، فقال: أطلقوا سراح هذا الرجل وردوا له عطائه وابنوا له بيته ومروا مناديا ينادي أن صدق الله وكذب الشاعر- من كتاب العقد الفريد.

يذكر أن الحجاج صلى يوما بجانب سعيد بن المسيب، قبل أن يلي شيئا من الحكم، فجعل يرفع قبل الإمام ويقع قبله في السجود، فلما سلم أخذ سعيد بطرف ردائه، وكان له ذكر بعد الصلاة، فما زال الحجاج ينازعه ردائه حتى قضى سعيد ذكره، ثم قال له سعيد: يا سارق، يا خائن! تصلي هذه الصلاة؟ لقد هممت أن أضرب بهذا النعل وجهك. فلم يرد عليه الحجاج. ثم مضى الحجاج إلى الحج، فعاد إلى الشام، ثم جاء حاكما على الحجاز. وعندما قتل ابن الزبير، رجع إلى المدينة نائبا عليها، أي حاكما لها. فلما دخل المسجد رأى

[1] سورة يوسف: (78، 79).

سعيد بن المسيب، فقصده وخشي الناس عليه. جاء الحجاج حتى جلس بين يديه، فقال له: أنت صاحب الكلمات؟ فضرب سعيد صدر الحجاج بيده، وقال: نعم. قال: فجزاك الله من معلم ومؤدب خيرا، فما صليت بعدك صلاة إلا وأنا أذكر قولك، ثم قام ومضى. وفي هذا الحديث إشارة إلى أن الحجاج كان قاسيا في تعامله لكنه أيضا رضي القسوة على نفسه عندما أخطأ في أداء الصلاة.

فصاحة الحجاج وحبه للقرآن والشعر

نشأ الحجاج شابا فصيحا ذكيا، وكان يعلم القرآن في الطائف، ويكثر من تلاوته. وذكر بعض المؤرخون أن عمر بن عبد العزيز قال: ما حسدت الحجاج على شيء حسدي إياه على حبه القرآن، وإعطائه أهله، وقوله حين حضرته الوفاة اللهم اغفر لي، فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل. وقال بعض السلف: إنه كان يختم القرآن كل ثلاثة ليال، وكان يحب الشعر ويستشهد به وله أشعار متفرقة.

قال أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت أفصح من الحسن البصري والحجاج بن يوسف، ولكن الحسن أفصح. وقال الشعبي: سمعت الحجاج يتكلم بكلام ما سبقه إليه أحد، سمعته يقول: أما بعد، فإن الله عز وجل كتب على الدنيا الفناء، وعلى الآخرة البقاء، فلا فناء لما كتب عليه البقاء ولا بقاء لما كتب عليه الفناء، فلا يغرنكم شاهد الدنيا من غائب الآخرة، فطول الأمل يقصر الأجل ... إلخ – من كتاب مروج الذهب.

وقال الدارقطني: إن عتبة بن عمرو قال: ما رأيت عقول الناس إلا قريبا بعضها من بعض، إلا الحجاج وإياس بن معاوية، فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس.

خاتمة

ترك الحجاج قبل أن يموت وصية كتب فيها، بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به الحجاج بن يوسف: أوصى بأنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأنه لا يعرف إلا طاعة الوليد بن عبد الملك، عليها يحيا وعليها يموت وعليها يبعث... إلخ. ويروى أنه قيل له قبل وفاته: ألا تتوب؟ فقال: إن كنت مسيئا فليست هذه ساعة التوبة، وإن كنت محسنا فليست ساعة الفزع. يذكر أن أهل الشام كانوا يحبون الحجاج وينصرونه ويترحمون عليه، وكان جل جيشه من أهل الشام، وكان هو أيضا محبا لهم وكثير الإشادة في خصالهم.

أصيب الحجاج آخر حياته بمرض شبيه بسرطان المعدة وتوفي في مدينة واسط خلال العشر الأخيرة من رمضان، 95 هـ/ 714 م، ودفن بها في مكان غير معروف. تفجع عليه الوليد، وجاء إليه الناس من كل الأمصار يعزونه في موته. اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات.

جرير

حياته ونسبه

هو جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي التميمي. ولد في خلافة عثمان بن عفان، رضي الله عنه وأرضاه، سنة 28 هـ /648 م. نشأ في بيت فقير وكان يرعى الأغنام في صغره وقال الشعر مذ نعومة أظفاره وعاش شبابه في منطقة اليمامة، شمال الرياض الآن. توجه إلى البصرة بعد دخولها تحت مظلة الحكم الأموي وكان الفرزدق يعيش فيها أيضا، حيث نشبت بينهما حربا أدبية في الهجاء استمرت إلى وفاة الفرزدق، عندها رثاه جرير بقصيدة مؤثرة. مدح جرير حكام البصرة والكوفة مثل بشر بن مروان والحجاج بن يوسف الثقفي وكان الحجاج هو من قدمه للخليفة عبد الملك بن مروان. كان جرير شديد الولاء للأمويين خلافا لموقف قبيلته التي والت عبد الله بن الزبير، رحمه الله. مدح أيضا الوليد وسليمان، ابني عبد الملك بن مروان ويزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك. كان عفيفا ومن أجود الناس شعرا وفاق جميع شعراء عصره ولم يثبت بوجهه سوى الفرزدق والأخطل.

مجالسة عبد الملك والحجاج

كان الخليفة عبد الملك بن مروان يحب الشعر ويجلس كثيرا مع الشعراء ليسمع قصائدهم وكذلك الحجاج كان محبا للأدب والشعر وكان من أفصح الناس لسانا لذا كان محبا لمجالسة الشعراء وأهل اللغة. لقد مدح جرير الحجاج ذات يوم فأعجب بشعره

وقدمه إلى الخليفة. وذكر أن جريرا والفرزدق كانا في مجلس الحجاج وكان بين يدي الحاج جارية، وقيل: بعض المال، فقال لهم أيكم مدحني ببيت أفضل فهذه جائزته: فقال الفرزدق:

فمن يأمن الحجاج والطير تتقي عقوبته إلا ضعيف العزائـــم

ثم قال جرير:

فمن يأمن الحجـــاج أما عقابه فمـــرّ وأما عهـــده فوثيـــق

فوقع اختيار الحجاج على البيت الثاني، فأعطى الجائزة لجرير. وبعد أن قدمه الحجاج إلى عبد الملك، مدحه بكثير من القصائد. وقيل: إن أفضل بيت في المدح هو بيت جرير، الذي قاله ببني أمية:

ألستم خير من ركـــب المطايا وأندى العالميــن بطـــون راح

وتعني "بطون راح" أن بني أمية دائما أيديهم مبسوطة للعطاء. وذكر أن عبد الملك بن مروان قد أعد وليمة ذات يوم ودعا إليها، فقال عبد الملك لرجل من بني عذرة: هل لك علم بالشعر؟ فقال: سلني عما بدا لك يا أمير المؤمنين. قال: من قال أبلغ بيت في المدح؟ فقال العذري: قول جرير:

ألستم خير من ركـــب المطايا وأندى العالميــن بطـــون راح

قال عبد الملك وفي الفخر؟ فقال قول جرير:

إذا غضبت عليك بني تميـم حسبت الناس كلهـــم غضابا

قال وفي الهجاء: قال قول جرير:

فغض الطرف إنك من نميـــر فلا كعبا بلغـــت ولا كلابـا

ولو وزنت حلوم بني نميـــر على الميزان ما وزنت ذبابـــا

قال وفي الغزل: قال قول جرير:

إنّ العيون التي في طرفها حـور قتلننا ثم لم يحييـــن قتلانـا

يصرعن ذا اللـب حتى لا حراك وهن أضعف خلـق الله أركانـا

قال وفي التشبيه: قال قول جرير:

سرى نحوهـــم ليـــل كأن قناديل فيهن الذبال المفتل

ويشير الشطر الثاني من البيت إلى النور القوي لهذه القناديل، والذبال تعني الفتيلة. وقد سمع جرير قول العذري لأنه كان جالسا معهم فسره ذلك كثيرا، وقال جائزتي للعذري يا أمير المؤمنين. قال أمير المؤمنين وله منا مثلها ولك منا جائزة أيضا يا جرير.

شعره

اشتهر جرير في مختلف أصناف الشعر كالغزل والوصف والمدح والفخر والهجاء، وقلما اجتمعت هذه الخصال لشاعر. وقدم كثير من الأبيات التي وصفت بأنها أفضل ما قالته العرب من شعر، ولا يزال الكثير يرددون أبياته وقصائده منذ العصر الأموي حتى يومنا هذا. وله أيضا ديوان كامل قدم فيه الكثير من القصائد المميزة وهو محل إعجاب الكثير من الأدباء والمهتمين بالشعر.

قال جرير في رثاء زوجته:

لولا الحيـــاء لهاجني استعبار ولزرت قبرك والحبيـــب يزار

ولقد نظرت وما تمتع نظـــرة في اللحد حيث تمكن المحفار

فجزاك ربك في عشيرك نظـــرة وسقى صداك مجلجـــل مدرار

ولهت قلبـي إذ علتني كـبـــرة وذوو التمائم من بنيك صغـــار

إلى آخر القصيدة، وقد وصفت هذه القصيدة أيضا بأنها من أفضل ما قيل: في الرثاء.

خاتمة

توفي جرير، رحمه الله تعالى، سنة 110 للهجرة في منطقة اليمامة التي ولد بها. وكانت وفاته بعد موت الفرزدق بشهور قليلة.

الفرزدق

حياته ونسبه

الفرزدق هو همام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي وكنيته أبو فراس، وهو من نفس قبيلة جرير. ولد عام 20 للهجرة، وهو من فحول الشعراء أيضا وكان له عظيم الأثر في اللغة والشعر، وكان في سجال دائم مع جرير طوال فترة حياتهم، نتيجة المنافسة الشديدة بينهما. وكان شعر جرير يمتاز بالسلاسة والبساطة وامتاز شعر الفرزدق بالقوة والجزالة. وأحيانا يجتمع الاثنان في مجلس عبد الملك بن مروان، وذات يوم تنافسا في حضرة عبد الملك، فقال الفرزدق:

أنا القطران والشعراء جربى وفي القطران للجربى شفاء

فرد عليه جيري قائلا:

أنا الموت الذي أتى عليكم فليس لهارب منـــه نجــاء

فقال عبد الملك: الموت يأتي على كل شيء، وأعطى جائزة لجرير.

يحكى أن جريرا اجتمع مع الفرزدق في مجلس عبد الملك، أيضا فقال الفرزدق: النوار بنت مجاشع، أي زوجته، طالق ثلاثا إن لم أقل بيتا لا يستطيع ابن المراغة أن ينقضه أبدا ولا يجد في الزيادة عليه سبيلا. فقال عبد الملك: ما هو، فقال الفرزدق:

فإني أنا الموت الذي هو واقـــع بنفسك فانظر كيف أنت مزاوله

وما أحـــد يا بن الأتان بوائـــــل من الموت إن الموت لاشك نائله

فأطرق جرير قليلا ثم قال: أم حرزة طالق ثلاثا إن لم أكن نقضته وزدت عليه. فقال عبد الملك: قل، فقد والله، طلق أحدكما لا محالة!

فقال جرير:

أنا البدر يعشى نور عينيك فالتمس بكفيك يا بن القين هل أنت نائله

أنا الدهر يفني الموت والدهر خالد فجئني بمثل الدهر شيئا يطاوله

أعجب عبد الملك بقول جرير وأمر الفرزدق أن يطلق بعد أن تردد في ذلك، فطلقها وقال في ذلك:

ندمـــت ندامـــــة الكسعـــي لما غـــدت مني مطلقة نوار

وكانت جنتي فخرجـــــت منها كآدم حيـــن أخرجـــــه الضـــرار

فأصبحـــت الغـداة ألوم نفسي بأمـــر ليس لي فيـــــه خيـــار

على الرغم من المنافسة الشديدة بين جرير والفرزدق فقد رثاه بقصيدة رائعة عند موته. وتشير هذه القصيدة إلى الشيمة والأخلاق العربية الأصيلة التي كان يتمتع بها جرير،

لأن من يسمع هجاء كل منهما للآخر يظن أن كل واحد منهم سيشمت بموت غريمه ويتمناه، ولكن جرير أثبت عكس ذلك، فقال:

لعمري لقد أشجـــى تميما وهدها على نكبات الدهـــر موت الفرزدق
لقد غادروا في اللحد من كان ينتمي إلى كل نجم في السمـــــاء محلق
عمـــاد تميـــم كلها ولسانهـــــا وناطقها البذاخ في كل منطـــق
فمن لذوي الأرحام بعد أبن غالب لجار وعان في السلاسل موثـــق
ومن ليتيم بعد موت ابن غالـــب وأم عيـــــال ساغبيـــن ودردق
تفتح أبواب الملوك لوجهـــــه بغير حجـــاب دونه أو تملـــق
لتبك عليه الأنس والجن إذ ثـوى فتى مضر في كل غرب ومشـــرق
فتى عاش يبني المجد تسعين حجة وكان إلى الخيرات والمجد يرتـــق

خاتمة

توفي الفرزدق، رحمه الله، سنة 110 للهجرة ودفن بالبصرة خلال خلافة هشام بن عبد الملك عن عمر تجاوز التسعين عاما.

قيس بن الملوح وليلى العامرية

لا تخفى قصة مجنون ليلى وليلى على أحد، فقد أصبحت مثالا تذكره العرب على مر العصور، ولكن العادات والتقاليد العربية وقفت حائلا بين ليلى ومجنونها؛ لذا لم يكتب التوفيق لهما، ومات كل منهما بعيدا عن الآخر. وقد كانت ليلى سببا في وصف قيس بالمجنون.

حياتهم ونسبهم

قيس بن الملوح بن مزاحم بن عدس بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وهو من قبيلة هوازن. ولد سنة 24 هـ / 645م، وهو أحد الشعراء المجيدين وخاصة في الغزل وشعره الذي كرسه لليلى تحديدا. إنه من أهل نجد وعاش خلال خلافة مروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان. لقب بالمجنون، رغم أنه لم يكن كذلك، بل كان متيما بليلى التي نشأ معها ورعوا المواشي سوية عندما كانوا صغارا ولما كبروا رفض والد ليلى أن يزوجها إياه. أما ليلى فهي بنت مهدي بن مزاحم وتكنى بأم مالك. ولدت سنة 28 هـ / 649 م في نجد.

قيس وليلى

تربت ليلى مع قيس وهم صغار وكانا يرعيان مواشي والديهما، وعندما كبرت منعت من الاختلاط به لأن عادات العرب كان تمنع اختلاط الرجال بالنساء عندما يكبرن وينضجن. بدأ قيس يتعلق بها أكثر فأكثر منذ حجبت عنه وازداد هيامه بها وخطبها فيما بعد وقدم لها مهرا عظيما، ولكن والد ليلى رفض الزواج لأنه شبب بها. وكانت عادة العرب

أن يرفضوا تزويج البنات لمن يشبب بهن، أي يقول فيهن شعر الغزل. وكانوا يرفضون أيضا أن يزوجوا البنات للشباب الذي يعلنون حبهم لهن. هام قيس في البراري بعد أن رفض طلبه وبات ينشد القصائد في حبها ويعبر عنه أكثر من ذي قبل. وفي هذه الأثناء، تقدم لليلى رجل من ثقيف يدعى ورد بن محمد العقيلي، فانتهز والد ليلى الفرصة وزوجها لورد حتى يقطع الطريق على قيس، رغم أن ليلى لم توافق على هذا الزواج، ولكن أرغمت عليه. هام قيس على وجهه بعد زواج ليلى وكان يظهر أحيانا في الشام وأخرى في الحجاز أو في أماكن أخرى. وبعد حين وجد ميتا فحمل إلى منطقته ودفن بها.

يذكر أن والد قيس اصطحبه إلى الحج لكي يدعو الله أن يشفيه مما أصابه بسبب حبه لليلى، وقال له أبوه: "تعلق بأستار الكعبة وأدع ربك أن يشفيك مما أنت فيه". ففعل قيس هذا، ولكنه دعا قائلا "اللهم زدني لليلي حبا وبها كلفا ولا تنسني ذكرها أبدا". وكانت ليلى تبادله نفس المشاعر لكن والدها وقف حائلا أمامها، ونظمت بعض القصائد التي تعبر عن حبها لقيس.

الغزل العذري أو الغزل العفيف

هو أحد الفنون الشعرية التي تظهر فيه المشاعر العفيفة والصادقة، حيث يستبعد هذا النوع من الشعر وصف المحاسن الجسدية ويركز فقط على المشاعر الصادقة، ويعد قيس بن الملوح أبرز شعراء الغزل العذري. سمي بالغزل العذري نسبة إلى قبيلة عذرة التي

اشتهرت بكثرة العشاق ورقة أحاسيسهم، حيث مات بعضهم من الوجد. وتعود بداياته إلى العصر الجاهلي وتراجع في صدر الإسلام بسبب التقوى والورع الذي انتشر بين الناس والتزامهم بتعاليم ديننا الحنيف، ولكنه عاد للظهور مرة أخرى في العصر الأموي بعد انتشار الترف والرفاهية بين الكثير من الناس. كان أصحاب الحب العذري يثبتون عليه حتى الموت ويبقى في صدورهم حتى آخر رمق، قال قيس:

أما عاهدتني يا قلب أني إذا ما تبت عن ليلى تتوب

فها أنا تائب عن حبّ ليلى فما لك كلما ذكرت تذوب

وقالت ليلى في قيس:

باح مجنون عامر بهواه وكتمت الهوى فمت بوجدي

ويقول عنترة العبسي في عبلة

ولولاها فتاه في الخيام مقيمة لما اخترت قرب الدار يوما على البعد

مهفهفة والسحر في لحظاتها إذا كلمت ميتا يقوم من اللحد

أشارت إليها الشمس عند غروبها تقول إذا اسود الدجى فاطلعي بعدي

شعر قيس وليلى

يتعلق جل شعر قيس بليلى، وكتب فيها الكثير من القصائد وتبوأ منزلة الشاعر الأول في الغزل العذري، وقيل: إنه ذهب ذات يوم إلى زوج ليلى، ورد، في يوم شتوي قارص برده ووجد معه نفرا من قومه جالسين بداره، فأنشده قيس قائلا:

بربك هل ضممت إليك ليلـــى قبيل الصبح أو قبلـــت فاهـــا

وهل رفت عليك قرون ليلـــى رفيـــف الأقحوانة في نداهـــــا

كأن قرنفلا وسحيـــــق مســـك وصوب الغانيات قد شملن فاها

فقال له ورد: أما وقد حلفتني، فنعم. فقبض المجنون بكلتا يديه على النار ولم يتركها حتى سقط مغشيا عليه. وأنشد قصيدة رائعة سميت بالمؤنسة لأنه كان يرددها كثيرا ويأنس بها، سنذكر بعض أبياتها:

تذكرت ليلى والسنين الخواليـــا وأيام لا نخشى على اللهو ناهيـــا

بثمدين لاحت نار ليلى وصحبتي بذات الغضى تزجي المطي النواجيا

فقال بصير القـوم ألمحت كوكبا بدا في سواد الليـــــل فردا يمانيا

فقلت له بل نـار ليلى توقـــدت بعليا تسامـــى ضوؤها فبدا ليـا

فيا ليلى كم من حاجة لي مهمـــة إذا جئتكم بالليـل لم أدر ما هيـا

وقد يجمـع الله الشتيتين بعدمـا يظنان كل الظـن أن لا تلاقيـــا

ولا سرت ميلا من دمشق ولا بـدا سهيل لأهـل الشام إلا بدا ليـــا

فإن تمنعوا ليلى وتحموا بلادهـا علي فلن تحمـوا علي القوافيـــا

أحبّ من الأسمـاء ما وافق اسمها أو أشبهـه أو كان منه مدانيـــا

وقالت فيه:

كلانـا مظهـــر للناس بغضـــا وكلٌّ عنـــد صاحبـه مكيـــن

تبلغنـــا العيـــون بما أردنـــا وفي القلبيـن ثَم هـــوى دفيـــن

وأسرار اللواحـــظ ليس تخفـــى وقد تغري بذي الخطأ الظنـون

وكيف يفوت هذا الناس شـــيء وما في الناس تظهره العيـــون

وفاتهما

توفي قيس سنة 68 هـ، 688م، ووجد ملقى بين أحجار وهو ميت، فحمل إلى أهله.

ووجدوا بيتين من الشعر عند رأسه خطهما بيده:

توســد أحجـــار المهامه والقفــر ومات جريح القلب مندمل الصدر

فيا ليـت هذا الحــب يعشق مرّة فيعلم ما يلقى المحبّ من الهجـر

وقيل: إن ليلى توفيت قبله بقليل ولم يذكر تاريخ وفاتها.

الفصل الرابع

العصر الأندلسي

قائمة بحكام الأندلس[1]

	الاسم	فترة الحكم
1	عبد الرحمن الداخل	138 – 172 هـ/ 756 – 788 م
2	هشام بن عبد الرحمن الداخل	172 – 180 هـ/ 788 – 799 م
3	الحكم بن هشام	180-206 هـ/ 799 – 822 م
4	عبد الرحمن بن هشام	206 – 238 هـ/ 822 – 852 م
5	محمد بن عبد الرحمن	238 – 273 هـ/ 852 – 886 م
6	المنذر بن محمد	273 – 275 هـ/ 886 – 888 م
7	عبد الله بن محمد	275 – 300 هـ/ 888 – 912 م
8	عبد الرحمن الناصر	300 – 350 هـ/ 912 – 961 م
9	الحكم بن عبد الرحمن	350 – 366 هـ/ 961 – 976 م
10	هشام الثاني بن الحكم	366 – 399 هـ/ 976 – 1009 م

[1] ويكيبيديا (الموسوعة الحرة).

11	محمد المهدي بالله	399 – 400 هـ/1009 – 1010 م
12	سليمان المستعين بالله	400 – 404 هـ/ 1013 – 1016 م
13	عبدالرحمن المرتضي بالله	405 – 407 هـ/ 1017 – 1018 م
14	عبدالرحمن المستظهر بالله	408 – 4012 هـ/ 1019 – 1023 م
15	محمد المستكفي بالله	413 – 416 هـ /1024 – 1026 م
16	هشام المعتمد بالله	417 – 422 هـ / 1026 – 1031 م

(آخر خليفة أموي في الأندلس وغيرها)

ملوك الطوائف[1]

1	بنو عباد – حكام إشبيلية	414 – 484 هـ/ 1013 – 1091 م
2	بنو جهور – حكام قرطبة	422 – 449 هـ/ 1031 – 1069 م
3	بنو حمود – حكام مالقة	407 – 449 هـ/ 1016 – 1058 م
4	بنو زيري – حكام غرناطة	403 – 483 هـ/ 971 – 1052 م
5	بنو هود – حكام سرقسطة	410 – 536 هـ/ 1017 – 1146 م

[1] ويكيبيديا (الموسوعة الحرة).

6	بنو رزين – حكام السهلة	402 – 497 هـ/ 1011 – 1104 م
7	بنو ذي النون – حكام طليطلة	400 – 478 هـ/ 1009 – 1086 م
8	بنو الأفطس – حكام بطليوس	413 – 487 هـ/ 1022 – 1095 م
9	بنو عامر – حكام بلنسية	403 – 476 هـ/ 1012 – 1085 م

المرابطون[1]

1	يوسف بن تاشفين	457 – 499 هـ/ 1065 – 1106 م
2	علي بن يوسف	499 – 538 هـ/ 1106 – 1143 م
3	تاشفين بن علي	538 – 540 هـ/ 1143 – 1145 م
4	إبراهيم بن تاشفين	540 –540 هـ/ 1145 – 1145 م
5	إسحاق بن علي	540 – 542 هـ/ 1145 – 1147 م

[1] ويكيبيديا (الموسوعة الحرة).

الموحدون في الأندلس

(بدأ حكم الموحدين في المغرب العربي عام 1133 م)[1]

1 عبد المؤمن بن علي الكومي 542 – 558 هـ/ 1147 – 1163 م

2 أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن 558 – 580 هـ/ 1163 – 1184 م

3 أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور 580 – 595 هـ/ 1184 – 1199 م

4 محمد الناصر بن يعقوب بن يوسف 595 – 609 هـ/ 1199 – 1213 م

استمرت بعض الدويلات الإسلامية في الأندلس بعد هذا التاريخ حتى عام 1492م، الذي انتهى فيه الحكم الإسلامي تماما لهذه البلاد، بعد أن وقع ملك غرناطة عبد الله الصغير، آخر حكام بني نصر بن الأحمر، معاهدة استسلام سلم من خلالها المدينة.

[1] ويكيبيديا (الموسوعة الحرة).

العصر الأندلسي

بدأ العصر الأندلسي خلال حكم بني أمية في المشرق واستمر بعد سقوط الدولة الأموية لقرون، وجاء من بعد الحكام والخلفاء الامويين في الأندلس ملوك الطوائف والمرابطين ومن ثم الموحدين حيث استمرت هذه الحقبة منذ عام 711 حتى عام 1492م؛ أي أنها استمرت زهاء ثمانية قرون. لقد ازدهرت هذه البلاد كثيرا في عهد أبي المطرف عبدالرحمن الداخل وخلفائه. وتأثر الشعراء الأندلسيون بجمال الطبيعة وكان ذلك عاملا إيجابيا ومحفزا لهم حيث أبرزوا جمال الطبيعة من خلال قصائدهم ووصفوا الرياض والقصور التي اشتهرت بها الأندلس.

نظم الأندلسيون القصائد الشعرية في مختلف ألوان الشعر بما في ذلك الجوانب التقليدية مثل المدح والغزل والهجاء والرثاء وتوسعوا في موضوع الرثاء خاصة في رثاء المدن الأندلسية التي بدأت بالتساقط واحدة تلو الأخرى في نهاية هذا العصر.

وقد برزت ظاهرة المجون نهاية العصر الأندلسي حيث لم يظهر هذا خلال عهد الدولة الأموية في الأندلس لأن الدولة وجيشها كانا مشغولين في الفتوحات الإسلامية والحروب المتكررة إضافة إلى قوة الوازع الديني بين الناس، ولكن هذه الظاهرة تجلت في عهد ملوك الطوائف وربما كانت السبب وراء انهيار الحضارة الإسلامية في الأندلس.

لقد توفرت العديد من العوامل التي ساهمت في ازدهار الأدب الأندلسي منها الاستقرار والرفاهية التي عاشها الأندلسيون والاحتكاك بالحضارة الغربية وانتشار الحرية الفكرية والانفتاح على العلوم والثقافات الأخرى عن طريق الترجمة وكذلك تعلق الحكام الأندلسيين بالمعرفة ومحبتهم لها، وتشجيعهم العلماء على نشر العلم. اشتهر عدد كبير من الشعراء والأدباء في بلاد الأندلس وساهم طول الفترة الزمنية بزيادتهم زيادة ملحوظة ومن هؤلاء الشعراء صقر قريش عبدالرحمن الداخل وابن زيدون والمعتمد بن عباد وأبي البقاء الرندي ويوسف الثالث أمير غرناطة، وغيرهم.

أما عن نظام الحكم فقد كان شبيها في بدايته أو مستنسخا من الدولة الأموية في الشرق لأن أحفاد الأمويين توارثوا الحكم لمدة تقرب من ثلاثمئة عام. بدأت هذه الفترة بحكم عبدالرحمن الداخل وانتهى بحكم هشام بن الحكم وهو آخر خليفة أموي في الأندلس. واتسم هذا العصر بتأثره بالطبيعة الساحرة لتلك البلاد مما ساهم في رقة التعبير كما ورد في قصائد ابن زيدون، على عكس ما كان عليه الأدب في العصر الجاهلي إذا اتصف بشد الالفاظ وعبر عن قسوة الطبيعة كما هو مذكور في لامية العرب. ازدهرت أيضا أصناف أخرى من العلوم بما في ذلك الطب والرياضيات واللغة العربية وقواعدها وغيرها من العلوم. لقد ركز الشعر أيضا على مواضيع مختلفة مثل الفخر والمدح والهجاء والغزل كما في شعر ابن عبد ربه وقصيدته "أعطيته ما سأل".

عبدالرحمن الداخل

صقر قريش

حياته ونسبه

هو أبو المطرف عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب. ولد أبو المطرف سنة 113 هـ/731م. وعاش يتيما في البيت الأموي برعاية جده أمير المؤمنين هشام بن عبدالملك؛ لأن والده توفي قبل أن يتجاوز عبد الرحمن السنة السادسة، ويعرف في المصادر الأجنبية بلقب عبد الرحمن الأول. سمي بالداخل لأنه أول من دخل الأندلس من ملوك الأمويين وأسس عبد الرحمن الدولة الأموية في الأندلس عام 132هـ، حيث بدأ العباسيون بتقتيل جميع الأمراء الأمويين وأبنائهم وأحفادهم حتى لا يتمكن منهم أحد من استرداد الخلافة يوما من الأيام.

لقد دخل الأندلس وهي تؤج بالنزاعات القبلية والتمرد على الولاة، فقضى عبد الرحمن في فترة حكمه التي استمرت 33 عاما على هذه الفتن ونجح في إخضاع الثورات المتكررة على حكمه في شتى أرجاء الأندلس، تاركا لخلفائه إمارة استمرت لنحو ثلاثة قرون.

لقد روى جابر بن عبد الله الأندلسي أن عبد الرحمن بن معاوية سار من مصر فصار إلى أرض برقة، فأقام بها خمس سنين، ثم رحل منها إلى الأندلس. وقبل دخول الأندلس أرسل مولاه بدرا لينقل له أخبارها. وبعد ذلك قال بدر للمضرية: لو وجدتم رجلا من أهل الخلافة أكنتم تبايعونه؟ قالوا: وكيف لنا بذاك؟ فقال بدر: هذا عبد الرحمن بن معاوية. فأتوه فبايعوه، فولي عليهم ثلاث وثلاثين سنة، ثم ولى ابنه من بعده في خلافة استمرت إلى رأس المائة الرابعة.

عندما دخل صقر قريش الأندلس، كان يوسف الفهري، ومن خلفه الصميل بن حاتم الحاكم الفعلي للأندلس آنذاك، أول من قطع الدعوة عنهم ودعا لنفسه فقاتله الداخل فيما بعد وانتصر عليه. وعندما توجه عبد الرحمن إلى يوسف الفهري مضى بجيش إلى إشبيلية، فأطاعه أهلها أيضا، ثم مضى إلى قرطبة فاستولى عليها، فكان كلما قصد مدينة بايعوه. فلما رأى يوسف أن العساكر قد أظلته هرب وتحصن في دار الشرك، فغزاه الداخل مرة أخرى وهرب يوسف، وجعل الداخل لمن يأتيه برأس يوسف مالا، فأتاه رجل من خاصة يوسف برأسه. هذا وقد قامت الكثير من الفتن والثورات خلال عهده مثل ثورة ابن حبيب وسليمان الأعرابي وغيرها، ولكن الداخل نجح بإخمادها جميعا.

إنجازات الداخل وسياسته

انتهج الداخل سياسة أسلافه الأمويين في الحكم، حيث احتفظ بمجموعة من المستشارين ولم يتخذ وزراء. وقد أولى الجيش اهتماما كبيرا فمكنه من السيطرة على مقاليد الحكم، وقيل: إن جيشه بلغ مائة ألفا أو يزيد. ويعد أحد أهم إنجازاته استعادة الأندلس، وقد قال: بعض العلماء والمؤرخين إن الإسلام كاد أن يخرج من الأندلس لولا فضل الله ثم همة صقر قريش.

شيد الداخل، خلال فترة حكمه، القصور والحدائق وغرس في أرض الأندلس أشجارا لم تكن موجودة من قبل، وكان قد جلبها من الشام وإفريقية. وأقام سور قرطبة الكبير في عام 150هـ، وأسس المسجد الجامع في قرطبة عام 170 هـ، وأنشأ دارا لسك العملة شبيهة بدار دمشق من حيث وزن ونقش العملة.

ماذا قال عنه العلماء؟

قال أبو عبد الله الحميدي: كان عبد الرحمن من أهل العلم على سيرة جميلة من العدل، ومن قضاته معاوية بن صالح الحضرمي الحمصي. وقال أبو مظفر الأبيوردي: كانوا يقولون ملك الدنيا ابنا بربريتين، يعنون الخليفة العباسي المنصور وعبد الرحمن الداخل، لأن أم كل منهما كانت بربرية.

قال أبو محمد بن حزم: أقام عبد الرحمن في بلاده يدعو بالخلافة لأبي جعفر المنصور أعواما، ثم ترك الخطبة. وقال آخرون: تركها بعد أن ألح عليه بعض حاشيته وقادته. وقيل أيضا: لما توطد ملك عبد الرحمن، سارت إليه بنو أمية من كل ناحية، فأكرم موردهم وأمن أرزاقهم، ولم يهجه بنو العباس، ولا هو تعرض لهم، بل قنع بإقليم الأندلس. ويذكر أن عبد الرحمن لم يكن يطمح إلى الخلافة وكان يرى أنه لا يستحق الخلافة إلا من يحكم بلاد الحرمين، وفي فترة حكمه دخل الغازي بن قيس الأندلس بموطأ مالك وبقراءة نافع بن أبي نعيم.

أطلق الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور لقب "صقر قريش" على الداخل عندما سأل من كان في مجلسه قائلا: أتدرون من هو صقر قريش؟ قالوا أمير المؤمنين. أي أبو جعفر، فقال: لا. قالوا: معاوية! قال المنصور: لا. قالوا: عبد الملك بن مروان. قال: ولا هذا. قالوا: فمن يا أمير المؤمنين؟ قال: عبد الرحمن بن معاوية، الذي تخلص بكيده من الأسنة والسيوف، يعبر القفر، ويركب البحر، حتى دخل بلدا أعجميا فمصر الأمصار وجند الأجناد وأقام ملكا بعد انقطاعه، بحسن تدبيره وشدة عزمه. إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان، رضي الله عنهما. وعبد الملك ببيعة تقدمت له، وأمير المؤمنين، المنصور، باجتماع عترته، أي عشيرته، وعبد الرحمن منفردا بنفسه.

شعره

لقد بذل أبو المطرف جهودا جبارة لينجو من العباسيين ومكث أكثر من خمس سنين متخفيا في طريقه إلى الأندلس، وكان دائما يتذكر تلك الجهود والمعاناة ويغضب ممن ينساها أو يتناساها ويقول: بإن الداخل ملك الأندلس نتيجة حظه الطيب وسعده ومساعدة بعض الأشخاص له لأنه كان سليل الخلفاء الأمويين، وقال في ذلك:

لا يلــف ممتـن علينــا قائـل لولاي ما ملك الأنــام الداخـل
سعدي وحزمي والمهند والقنا ومقادر بلغــت وحــال حائـل
إن الملوك مع الزمــان كواكب نجــم يطالعنا ونجــم آفــل
والحزم كل الحــزم أن لا يغفلوا أيروم تدبيــر البريــة غافــل
ويقول: قــوم سعـده لا عقلـه خير السعادة ما حماها العاقل
أبني أميــة قد جبــرنا كسركم بالغرب رغما والسعــود قبائل
ما دام من نسلـــي إمام قائم فالملك فيكم ثابت متواصل

لقد واجه الداخل مصاعب جمة داخلية وخارجية، حيث تمثلت المصاعب الداخلية بالفتن والاضطرابات التي لم تكد تهدأ في بداية حكمه إضافة إلى الأطماع

الخارجية من قبل الممالك المجاورة مثل قشتالة وليون من جهة والدولة العباسية من جهة أخرى إذ أرسلت له جيشا لحربه فهزمهم جميعا.

وقد رويت عن الداخل بعض القصائد وكانت معظمها يحمل حنينا للوطن وشوقا كبيرا للشام، ومن هذه القصائد:

أيها الراكـــب الميمـــم أرضي أقرِ من بعضي السلام لبعضي

إن جسمي كما علمـــت بأرض وفـــؤادي ومالكيـــه بـــأرض

قدر البيـــن بيننـــا فافترقنـــا فطوى البين عن جفوني غمضي

وقضـــى الله بالفـــراق علينـــا فعسى باجتماعنـــا الله يقضي

وهذه الأبيات تبين شوق الداخل للشام وأهلها وحنينه إلى الديار التي قدر الله أن يفارقها، وتشير إلى أنه لا يزال محبا للشام وكذلك كان أهل الشام محبين للأمويين، وما زالوا إلى يومهم هذا.

خاتمة

تكللت جهود الداخل بتوفيق من الله جل وعلا ونجاح منقطع النظير إذ أسس دولة عظيمة شهد لها الأعداء قبل الأصدقاء وأرسا دعائم العدل فيها وسير جيوش الفتح حتى بلغت مواضع ما بلغها المسلمون من قبل. توفي، رحمه الله، سنة 172 هـ/788 م، تاركا لخلفائه من بعده إرثا عظيما ومملكة حصينة ومنيعة على الأعداء.

ابن زيدون

حياته ونسبه

هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون، أبو الوليد المخزومي الأندلسي القرطبي. قال ابن بسام: كان أبو الوليد خاتمة شعراء بني مخزوم، وهو أحد من جر الأيام جرا، وفاق الأنام طرا، ووسع البيان نظما ونثرا، إلى أدب ليس للبحر تدفقه، ولا للبدر تألقه، وشعر ليس للسحر بيانه، ولا للنجوم اقترانه.

ولد سنة 394هـ / 1003م، في قرطبة، وانتقل بعد أن أصبح من فحول الشعراء، في ذلك الوقت عن قرطبة، إلى المعتضد بن عباد، صاحب اشبيلية، بعد عام أربعين وأربع مائة، فجعله من خواصه، وبقي معه بمرتبة وزير.

شعره

اشتهر ابن زيدون في الشعر والنثر والخطابة والبلاغة، ويذكر أن ابن زيدون أحب الشاعرة والأديبة ولادة، ابنة الخليفة المستكفي، التي كانت تعقد الندوات والمجالس الأدبية والشعرية في بيتها، وكتب فيها الكثير من القصائد مما زاد شعره تألقا وجمالا، وفيما يلي بعض الأبيات من قصائده في ولادة:

إني ذكرتك بالزهـــــراء مشتاقــا والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا

وللنسيـــم اعتلال في أصائلـــه كأنـه رقّ لي فاعتـــــل إشفاقــا

والروض عن مائه الفضي مبتسم كما شققـــت عن اللبات أطواقا

نلهو بما يستميل العين من زهـــر جال الندى فيه حتى مال أعناقا

من خلال هذه الندوات الشعرية اتصلت ولادة بالشاعر ابن زيدون فأحبها، وقيل: إن ابن زيدون كان قد تعلق بإحدى جواري ولادة وربما كان ذلك لإثارة غيرة ولادة، لكنها غضبت عليه وكانت سبب في الفراق وعاتبته ولادة قائلة:

لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا لم تهو جاريتـــي ولم تتخيـــر

وتركت غصنـــــا مثمرا بجمالـــه وجنحت للغصــن الذي لم يثمر

ولقد علمـت بأنني بدر السمـــــا لَكن دهيــت لشقوتي بالمشتــري

وبعد هذا الموقف تقربت ولادة من الرجل الثري وهو الوزير أبو عامر بن عبدوس وقطعت علاقتها بابن زيدون.

عندها حاول ابن زيدون إعادة علاقته مع ولادة على ما كانت عليه وكتب نونيته الشهيرة كي يستدر عطفها حيث قال فيها:

أضحى التنائي بديلا عن تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

ألا وقد حان صبح البين صبحنا حين فقام بنا للحين ناعينا

أن الزمان الذي مازال يضحكنا أنسا بقربهم قد عاد يبكينا

وقد نكون وما يخشى تفرقنا فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا

يا ليت شعري ولم نعتب أعاديكم هل نال حظا من العتبى أعادينا

لم نجف أفق جمال أنت كوكبه سالين عنه ولم نهجره قالينا

كان الوزير أبو عامر صديقا لابن زيدون، ولكنهم اختلفوا بعد أن تقرب الوزير من ولادة وعاتبه بقصيدة جميلة تزخر بالعتاب حينا وبالتهديد حينا آخر، قال فيها:

أثرت هزبر الشرى إذ ربض ونبهته إذ هدا فاغتمض

وما زلت تبسط مسترسلا إليه يد البغي لما انقبض

حذار حذار فإن الكريم إذا سيم خسفا أبى فامتعض

أبا عامر أين ذاك الوفاء إذ الدهر وسنان والعيش غض

وأين الذي كنت تعتد من مصادقتي الواجب المفترض

ألم تنش من أدبي نفحة حسبت بها المسك طيبا يفض

ولولا اختصاصك لم ألتفت لحاليك من صحة أو مرض

ولا عادني من وفاء سرور ولا نالني لجفاء مضض

خاتمة

توفي ابن زيدون، رحمه الله تعالى، أول رجب 463هـ، 1071م، في أشبيلية. وولي ابنه أبو بكر وزارة المعتمد ابن عباد، حيث قتل يوم أخذ يوسف بن تاشفين قرطبة من المعتمد سنة أربع وثمانين، كما ورد في تاريخ الذهبي.

المعتمد بن عباد

حياته ونسبه

هو أبو القاسم محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل، لقب بالمؤيد بالله والمعتمد على الله ويعود نسبه إلى ملوك الحيرة، في عصر ما قبل الإسلام، تحديدا إلى النعمان بن المنذر بن ماء السماء. وهو ثالث وآخر ملوك بني عباد في الأندلس. ولد سنة 432 هـ في مدينة باجة غرب الأندلس وتقع الآن في دولة البرتغال.

عاش ابن عباد خلال فترة حكم ملوك الطوائف وهي الفترة التي تلت الخلافة الأموية في بلاد الأندلس حيث تفككت الخلافة الأموية إلى أكثر من عشرين مملكة ودويلة وكان بعضها يناحر البعض الآخر. استعان به والده في الحكم وهو غلام لم يتجاوز عمره الثانية عشر، لأن والده أراد أن يدربه على الحكم منذ نعومة أظافره. حكم إشبيلية بعد وفاة والده وكان في الثلاثين من عمره آنذاك ثم وسع مملكته بعد ضم كل من بلنسية ومرسية وقرطبة وأصبح أحد أقوى ملوك الطوائف.

حكمه ومعركة الزلاقة

حاول ملك قشتالة، ألفونسو السادس السيطرة على مملكة المعتمد مستغلا التشرذم الذي حل ببلاد الأندلس بعد تفكك الدولة الأموية، فأرسل إلى المعتمد رسولا يحمل رسالة تهديد، ومعه 500 فارس، لإرهاب المعتمد لكن الهمة والنخوة العربية هبت

به واجتمع بأصحاب الرأي ثم قرر أن يقتل جميع الفرسان الذين أرسلهم ألفونسو. وبعد أن قام بقتلهم أرسل مع نفس الرسول رسالة شديدة اللهجة إلى ألفونسو. بعد مقتل الفرسان القشتاليين بدأ ألفونسو يحشد للهجوم على المعتمد.

في هذه الأثناء، طلب المعتمد المدد من حكام المرابطين وعلى رأسهم يوسف بن تاشفين فنصروه وحدثت معركة مروعة في منطقة سهل الزلاقة جنوبي بلاد الأندلس. كان النصر حليف المعتمد وحلفائه، ولم ينج من جيش قشتالة إلا شرذمة قليلون مع ملكهم، ألفونسو.

كان لهذه المعركة تأثير كبير في التاريخ الإسلامي لأنها أخرت سقوط الأندلس لأكثر من قرنين. سميت أيضا بالزلاقة لكثرة الدماء التي أريقت ذلك اليوم وملأت أرض المعركة فأصبح الفرسان ينزلقون في أرض السهل لكثرة الدماء وأشلاء القتلى.

شعره

ازدهرت إشبيلية خلال فترة حكم المعتمد وبنيت القصور وشيدت دور العلم، وأصبح المعتمد من أقوى ملوك الطوائف وكان كثير الاهتمام بالشعر وخصص وقتا طويلا للجلوس مع الشعراء والسماع منهم. وقد نبغ في عهده الكثير من الشعراء مثل أبي بكر بن عمار وابن زيدون وابن اللبانة وشعراء آخرون. كتب المعتمد الكثير من القصائد وكان

بلاطه مفتوحا للشعراء الذين تهافتوا إليه من مناطق مختلفة مثل إفريقية وصقلية، وجمع له شاعره ابن اللبانة كتابا يحتوي على كثير من شعره وسماه "سقيط الدرر ولقيط الزهر".

كان للمعتمد هيبة وأخلاق الملوك وكان كريما شهما حليما وكان أفضل ملوك بني عباد الذين حكموا إشبيلية. ذكره ابن خلقان (في وفيات الأعيان) فقال: "كان أندى الملوك راحة وأرحبهم ساحة. وكان بابه محط الرجال وكعبة الآمال. وله شعر غاية من الحكمة والرصانة والجمال". قال ابن عباد في أحد قصائده يبين شهامته وصفحه وعفوه:

تقدم إلى ما اعتدت عندي من الرحـب ورد تلقك العتبى حجابا من العتـب

متى تلقني تلــق الذي قد بلوتـــــه صفوحا عن الجاني رؤوفا على الصحب

سأوليك مني ما عهـــــدت من الرضـا وأعرض عما كـان إن كان من ذنـــب

المعتمد واعتماد

كان المعتمد يمشي ذات يوم مع الشاعر ابن عمار في مرج الفضة المطلة على نهر الوادي الكبير فقال: "صنع الريح من ماء الزرد" وأراد من ابن عمار أن يكمل البيت لكن بديهته لم تسعفه بشيء، فسمعت امرأة كانت قربهم، فقالت: "أي درع لقتال لو جمد". أعجب المعتمد بموهبتها، فسأل عنها، فقيل: اسمها اعتماد وهي جارية لرميك بن حجاج.

تزوجها المعتمد فيما بعد وغير اسمه من المؤيد بالله إلى المعتمد على الله، تيمنا باسمها، لأنه كان يحبها كثيرا وكانت شاعرة أيضا.

حربه مع ابن تاشفين

كان ابن تاشفين يحترم المعتمد بن عباد، ولكن نفرا من المغرضين حرضوه عليه وأوغروا صدره فنسي كل ما كان بينهما وأمر بقتل ولدي المعتمد ثم حدثت معركة عنيفة بين أهالي أشبيلية وبين البربر انتصر فيها المعتمد في بداية الأمر ولكن هذا النصر لم يدم طويلا إذ انقلبت الدائرة على المعتمد فأسره جيش ابن تاشفين، بعد أن أبلى أحسن البلاء في الدفاع عن مملكته. ونزل المعركة بدون شيء يصد عنه وقع السهام سوى قميص أبيض وقال في تلك المعركة أبياتا حين دعاه أحد المشفقين عليه إلى الخضوع ومصالحة ابن تاشفين:

قالوا الخضـــــوع سياســـة فليبد منك لهم خضـــــوع
وألذ من طعـم الخضـــوع على فمي الســـم النقيـــــع
قد رمت يـــــوم قتالهـــم ألا تحصننـــــــي الـــدروع
وبرزت ليس سوى القميص عن الحشاشـــــي دفـــــوع
أجلي تأخـــــــر لم يكـــــن بهواي ذلـــي والخشـــــوع

ما سرت قط إلى القتـــال وكان من أملـي رجـــوع

شيم الأولـــى أنا منهـــم والأصـــل تتبعه الفــروع

حياة المنفى والسجن

تقلب الزمان بالمعتمد من ابن ملك إلى أمير، ثم ملك، ثم أسير فسجين، وعاش حياة المنفى أيضا عندما نفاه ابن تاشفين هو وبعض ملوك الطوائف الأخرى إلى أغمات، بعيدا عن شواطئ وحاضرة الأندلس حتى لا يتمكنوا من التواصل مع الناس والثورة على ابن تاشفين مرة أخرى. زاره في منفاه عدد من أصدقائه القدامى مثل الشاعر ابن اللبانة وألف كتابا أسماه "السلوك في وعظ الملوك" وزاره ابن حمديس الصقلي وكتب فيه عددا من القصائد وساعدت هذه الزيارات في تخفيف وطأة الأسر على المعتمد. قال أثناء أسره في أغمات عندما رأى بناته الذين جئن لزيارته في أيام العيد:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فسائك العيد في أغمات مأسـورا

ترى بناتك في الأطمـار جائعـــة يغزلن للناس ما يملكـن قطميرا

برزن نحوك للتسليـم خاشعـــة أبصارهـــن حسيــرات مكاسيرا

يطأن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطـــأ مسكا وكافـــورا

أفطرت في العيد لا عادت إساءته فعاد فطـــرك للأكباد تفطيـرا

قد كان دهرك إن تأمره ممتثلا فردك الدهر منهيا ومأمـورا

من بات بعدك في ملك يسـر به فإنمـا بات في الأحلام مغرورا

وقال يرثي نفسه:

قبر الغريب سقاك الرائح الغـادي حقا ظفرت بأشـلاء ابن عبـــاد

بالحلم بالعلم بالنعمى إذ اتصلـت بالخصب إن أجدبوا بالري للصادي

بالطاعن الضارب الرامي إذا اقتتلوا بالموت أحمــر بالضرغامة العادي

بالدهر في نقم بالبحــر في نعـــم بالبدر في ظلم بالصدر في النـادي

نعم هو الحق وافاني به قـــدر من السمـــاء فوافاني لميعـــاد

ولا تـزال صلوات الله دائمـــة على دفينـك لا تحصى بتعـــداد

خاتمة

توفي، رحمه الله، سنة 488 هـ /1095م، في مدينة أغمات وسط المغرب العربي بالقرب من مراكش. وكان موته وأسره وسجنه محل انتقاد لما فعله يوسف بن تاشفين به وأكسب المعتمد تعاطف الكثير من الناس. ولا يزال قبره وجهة للشعراء والأدباء الذين لم يتوقفوا عن زيارته منذ أمد بعيد.

أبو البقاء الرندي

حياته ونسبه

هو صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف، أبو الطيب وأبو البقاء النفزي الرندي. شاعر أندلسي وهو من أبناء منطقة رندة قرب الجزيرة الخضراء في الأندلس، ونسب اسمه إليها أيضا. كان من القضاة وهو من قبيلة نفزة البربرية. ولد سنة 601 هـ/ 1204 م، وهو من طبقة الشعراء والمفكرين. أقام بعدة مدن أندلسية وكان يكثر التردد إلى غرناطة. عاش في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، وعاصر كثيرا من الفتن والاضطرابات التي حدثت في بلاد الأندلس وشهد سقوط معظم القواعد الأندلسية في يد الأسبان، لذا فإن قصائده تعبر عن نهاية الحكم الإسلامي والعربي في الأندلس وكأنها كانت ترثي ذلك المجد الآفل.

كانت حياته شبه مجهولة في القرون السابقة، ولكن شهرة قصيدته "النونية" ساهمت كثيرا في حفظ اسمه وكان الناس والأدباء يتداولونها في مجالسهم وذكرت في كتب أدبية كثيرة.

شعره

كان الرندي، رحمه الله، بارعا في الشعر والنثر وأجاد في المدح والوصف. ويذكر أن قصيدته النونية أو ما تعرف بمرثية الأندلس "لكل شيء إذا ما تم نقصان" ساهمت في

حفظ اسمه على مر العصور. نظم هذه القصيدة بعد سقوط بعض المدن الأندلسية وحاول من خلال قصيدته أن يستنصر أهل العدوة الإفريقية من المرينيين خصوصا عندما بدأ ابن الأحمر محمد بن يوسف أول سلاطين غرناطة في التنازل للإسبان عن عدد من القلاع والمدن حتى يرضيهم لكي يبقونه في حكمه المضطرب في غرناطة، وفيما يلي بعض أبيات من قصيدته:

لكل شـــيء إذا ما تم نقصـان فلا يغر بطيب العيش إنســـان

هي الأيام كما شاهدتهـــا دول من سره زمن ساءتـه أزمـــان

وهذه الدار لا تبقـي على أحد ولا يدوم على حال لها شـــان

أين الملوك ذوو التيجان من يمن وأين منهـم أكاليل وتيجـــان

وأين ما حازه قارون من ذهب وأين عـاد وشداد وقحطـــان

أتى على الكل أمـــر لا مرد له حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

دهى الجزيرة أمـر لا عـــزاء له هوى له أحـد وانهد ثهـــلان

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية وأين شاطبـة أم أين جيـــان

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة كأنها في مجال السبق عقبـــان

وحاملين سيوف الهند مرهفة كأنها في ظلام النقـــع نيران

لماذا التقاطع في الإسلام بينكم وأنتم يا عبـــاد الله إخـــوان

وقال الرندي في قصيدة أخرى:

يا سالب القلب مني عندما رمقا لم يبق حبك لي صبرا ولا رمقا

لا تسأل اليوم عما كابدت كبدي ليت الفراق وليت الحب ما خلقا

ما باختياري ذقت الحب ثانية وإنما جارت الأقـــدار فاتفقـــا

وكنت في كلفي الداعي إلى تلفـــي مثل الفراش أحب النار فاحترقـا

قدم الرندي قصائد بمواضيع مختلفة، ولم يتوقف عند الرثاء والمدح وإنما أبدع في الوصف أيضا، وقال في ذلك:

ما درى مديرها في كأسهـــا وهي مثـــل البارق المتقـــد

درة ضمـــــت على ياقوتـــة أم لجين فيه ثـوب عسجـدي

سقني غيـر مليـــم إننـــي حنفـــي الرأي والمعتقـــــد

وتعني كلمة العسجد الذهب أو نوع من أنواع الحلي الفاخرة مثل الدر والجواهر والياقوت.

ماذا قال عنه الأدباء؟

قال عنه عبد الملك المراكشي: كان خاتمة الأدباء في الأندلس بارع التصرف في منظوم الكلام ونثره فقيها حافظا وله مقامات بديعة. وقال ابن الخطيب: له تآليف أدبية وقصائد زهدية، ومقامات في أغراض شتى. ألف مختصرا في الفرائض وآخر في صنعة الشعر سماه الوافي في نظم القوافي، وتوجد نسخة منه في الخزانة العامة بتطوان، وله مؤلفات نثرية مثل تقسيم الإرث.

الخاتمة

لقد تزامنت نهاية حياته مع نهاية الحكم الإسلامي للأندلس فساهم أبو البقاء في توثيق كليهما من خلال قصائده، خاصة النونية، وبين أن تلك النهاية المأساوية كانت نتيجة التقاطع والتشرذم الذي حدث بين المسلمين. توفي، رحمه الله، سنة 684 هـ - 1285م.

أمير غرناطة يوسف الثالث

حياته ونسبه

هو أبو الحجاج يوسف الثالث بن يوسف بن محمد الغني بالله، الملك الثاني عشر من ملوك بني نصر مؤسسي "مملكة غرناطة"، وهي آخر معقل إسلامي في الأندلس. ولد نحو 1375 م، وعينه والده وليا للعهد في سن العشرين.

يعود نسب بني نصر إلى الصحابي الجليل سعد بن عبادة، زعيم الخزرج قبل الإسلام، وكانوا يفتخرون بهذا النسب الكريم. حكموا غرناطة في نهاية العصر الإسلامي بالأندلس وتعتبر هذه العائلة آخر عائلة عربية مسلمة تحكم الأندلس والتي استمر حكمها حتى عام 1492 م، وذلك بعد أن أعلن محمد بن نصر بن الأحمر نفسه سلطانا عليها بعد سقوط دولة الموحدين في الأندلس عام 1238.

قصر الحمراء

تم تشييد قصر الحمراء، الذي ترعرع فيه يوسف الثالث، خلال فترة حكم آل الأحمر وربما أخذ الاسم من العائلة أيضا. ويرى البعض أنه سمي بقصر الحمراء نسبة إلى لون تراب المنطقة التي بني فيها حيث يغلب عليه اللون الأحمر. بدأت عملية تشييد القصر في فترة حكم الملك أبي عبد الله محمد الأول في مملكة غرناطة عام 1238 تقريبا

واستمرت عملية البناء حتى عام 1273، وطوره وزاد في مرافقه الحكام والأمراء الآخرون من بني الأحمر.

تم بناء بعض أجزاء القصر في القرن السابع الهجري وتظهر فيه جليا سمات العمارة الإسلامية في كافة مرافق وأسوار وأبنية القصر وكذلك الزخارف والهندسة التي تجسد ثقافة تلك الحقبة. وتم كتابة العديد من الآيات القرآنية والأدعية وبعض الأبيات الشعرية أيضا.

يعتبر قصر الحمراء أحد أهم المعالم الأثرية والسياحية في إسبانيا، ويبعد نحو 430 كيلومترا جنوب مدريد. يقع القصر على الضفة اليسرى لنهر حدرة على مساحة شاسعة تصل إلى 142000 متر مربع. ويشكل حصنا منيعا وهذه أيضا إحدى السمات المهمة للقصور في العصور السالفة وذلك للاستفادة منه أثناء الحروب.

عزله عن ولاية العهد وسجنه

عندما عينه والده وليا للعهد لم يكن أخوه محمد، وهو أصغر منه سنا، راضيا عن ذلك وحاول القيام بثورة على أبيه وأخيه لكنه تراجع عنها بعد حين. ولما توفي والده استطاع محمد أن يعقد الاتفاقيات مع بعض الأعيان وأزاح أخاه عن الحكم قبل أن يتسلمه وزج به في غياهب السجن، في قلعة شلوبانية والتي تمثل سجن الدولة الحصين. مكث في

السجن طوال حكم أخيه الذي دام نحو 14 عاما، كي يضمن ألا ينازعه الملك بعد وفاة أبيه. وكان يوسف يشعر بالظلم بعد أن سلبه أخوه حقه رغم اليمين الذي أداه أمام أبيه على السمع والطاعة ليوسف.

استيقظت شاعرية الأمير يوسف في السجن وكان ينظم الشعر قبل ذلك، ولكن شعره قبل أن يحبس لم يكن جزلا كما كان في مرحلة السجن. وكان يغلب عليه في البداية عدم الوضوح أحيانا، وهو ما يظهر عادة في بداية المسيرة الشعرية للشعراء. قال في إحدى قصائده:

إذا ما عدو الدين جاس خلاله ورام استراق السمع كف مريده

تمر به هوج الريـــاح فتنثني قد سد مسراها الرفيع صعوده

تروم سموا فوقه وهي دونـــه فتقصـــر عما تشتهي وتريده

دعوت له أهل الجهاد فأهطعوا كما زارت البيت العتيق وفــوده

ودارت حواليه الجنـــود كأنها وشاح على خصر يروق فريـــده

شعره

تربى الأمير يوسف تربية ملوك في دار الملك وتحديدا في مدينة الحمراء خلال حكم جده الغني بالله. ولم يكن بعيدا عن مجالس اللهو والطرب بداية حياته، ولكن الانتصارات

وأخبار الجيوش والمعارك التي كان يسمعها في القصر أثرت عليه أيضا ودفعته نحو الحماسة والشجاعة التي ألهبت شاعريته. وهو أيضا شاعر مجيد استخدم مختلف الفنون الشعرية كالغزل ووصف الطبيعة والمعارك والفخر والرثاء. قال في رثاء والده:

على ظلال من عناية يوسف ودوني حسام للخلافة مرهف

تباركني تترى عوارفه ضحى وينتابني تسآله والتعرف

فلا همة للقلب فيها تهمهم ولا كلفة للنفس فيها تكلف

وحاجات نفس لم أراقب مكانها فكان له منه الرضا والتعطف

وقال في نفسه:

أنا يوسف واليوسفي صفاته إذا عز نيل فالمواهب نيل

أنا يوسف والصدق يشهد أنني على الخلق ظل في الهجير ظليل

فكيف أرى غير الوفاء سجية وعندي منه معشر وقبيل

وأعلام من أعطى المعالم حقها مخائلي باد حسنها وخيول

ترد جنود المارقين بعزمة تروع إذا ما استطلعت وتهول

تحصيله العلمي

درس يوسف على يد مجموعة من العلماء وأخذ العلم عنهم مثل الوزير الشاعر ابن زمرك والقاضي أبي محمد عبد الله بن جزي وعبد الله الشريسي وقاضي غرناطة الخطيب

أبي عبد الله محمد بن علاق وغيرهم. وسار في تعليمه على الطريقة الأندلسية التي كانت تركز على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة واللغة العربية بشكل عام والشعر بشكل خاص.

الخاتمة

توجه سنة 813 هـ ،1400 م نحو الجنوب حيث جبل طارق، ولكن في هذه الأثناء احتل المرينيون جبل طارق فاتجه إلى مالقة مرة أخرى ومكث فيها فترة من الزمن. وفي نهاية حياته شعر بالتعب والمرض فانتقل إلى قرية قرب غرناطة تدعى الحمة سنة 819 هـ، 1417 م، حيث كانت محطته الأخيرة. توفى فيها سنة 820 هـ،1417م عن عمر يناهز الأربعين عاما.

الفصل الخامس

العصر العباسي

قائمة الخلفاء العباسيين[1]

	الاسم	فترة الحكم
	العصر العباسي الأول	
1	عبدالله السفاح – أبو العباس السفاح	132- 136 هـ/ 750 – 754 م
2	أبو جعفر المنصور	136 – 158 هـ/ 754 – 775م
3	محمد المهدي	158 – 169 هـ / 775 – 785 م
4	موسى الهادي	169 – 170 هـ/ 785 – 786 م
5	هارون الرشيد	170 – 193 هـ/ 787 – 809 م
6	محمد الأمين بن هارون الرشيد	193 – 198 هـ/ 809 – 813 م
7	عبدالله المأمون بن هارون الرشيد	198 – 218 هـ / 813 – 833 م
8	محمد المعتصم بالله بن هارون	218 – 227 هـ/ 833 – 842 م
9	هارون الواثق بالله	227 – 232 هـ / 842 – 847 م

العصر العباسي الثاني[2]

10	جعفر المتوكل على الله	232 – 247 هـ/ 847 – 861 م

[1] ويكيبيديا (الموسوعة الحرة).
[2] المرجع السابق.

11	المنتصر بالله	247 – 248 هـ/ 861 – 862 م
12	المستعين بالله	248 – 252 هـ/ 862 – 866 م
13	المعتز بالله	252 – 255 هـ/ 866 – 869 م
14	أبو اسحق المهدي	255 – 256 هـ/ 869 – 870 م
15	أبو العباس المعتمد	256 – 279 هـ/ 870 – 892 م
16	أحمد المعتضد بالله	279 – 289 هـ/ 892 – 902 م
17	علي المكتفي بالله	289 – 295 هـ/ 902 – 908 م
18	جعفر المقتدر بالله	295 – 317 هـ/ 908 – 932 م
19	محمد القاهر بالله	317 – 320 هـ/ 932 – 934 م
20	محمد الراضي بالله	320 – 322 هـ/ 934 – 940 م
21	إبراهيم المتقي لله	322 – 329 هـ/ 940 – 944 م
22	عبدالله المستكفي بالله	329 – 333 هـ/ 944 – 946 م
23	الفضل المطيع لله	333 – 363 هـ/ 946 – 974 م
24	عبدالكريم الطائع لله	363 – 381 هـ/ 974 – 991 م
25	أحمد القادر بالله	381 – 422 هـ/ 991 – 1031 م

العصر العباسي الثالث[1]

26	عبدالله القائم بأمر الله	422 – 467 هـ/ 1031 – 1075 م
27	عبدالله المقتدي بأمر الله	467 – 487 هـ/ 1075 – 1094 م
28	أحمد المستظهر بالله	487 – 512 هـ/ 1094 – 1118 م
29	الفضل المسترشد بالله	512 – 529 هـ/ 1118 – 1135 م
30	المنصور الراشد بالله	529 – 530 هـ/ 1135 – 1136 م
31	محمد المتقي لأمر الله	530 – 555 هـ/ 1136 – 1160 م
32	يوسف المستنجد بالله	555 – 566 هـ/ 1160 – 1170 م
33	الحسن المستضيء بالله	566 – 575 هـ/ 1170 – 1180 م
34	أحمد الناصر لدين الله	575 – 622 هـ/ 1180 – 1225 م
35	محمد الظاهر بأمر الله	622 – 623 هـ/ 1125 – 1226 م
36	المنصور المستنصر بالله	623 – 640 هـ/ 1226 – 1242 م
37	عبدالله المستعصم بالله	640 – 656 هـ/ 1142 - 1258م

[1] ويكيبيديا (الموسوعة الحرة).

الغزو والمغولي وانتقال الخلافة العباسية إلى القاهرة.

الخلافة العباسية في القاهرة[1]

	الاسم	فترة الحكم
1	المستنصر بالله أبو القاسم أحمد	659 – 660 هـ / 1261 – 1262 م
2	الحاكم بأمر الله أحمد	660 – 701 هـ / 1262 – 1302 م
3	المستكفي بالله سليمان	701 – 736 هـ / 1302 – 1340 م
4	الواثق بالله إبراهيم	736 – 742 هـ / 1340 – 1341 م
5	الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكفي	742 – 753 هـ / 1341 – 1352 م
6	المعتضد بالله أبو بكر	753 – 763 هـ/ 1352 – 1362 م
7	المتوكل على الله محمد	763 – 379 هـ / 1362 – 1377 م
8	المستعصم بالله الثاني	779 – 779 هـ / 1377 – 1377 م
9	المتوكل على الله محمد	779 – 784 هـ / 1377 – 1383 م
10	الواثق بالله عمر	785 – 788 هـ / 1383 – 1386 م
11	المستعصم بالله زكريا	888 – 891 هـ / 1386 – 1389 م
12	المتوكل على الله محمد	791 – 808 هـ / 1389 – 1406 م

[1] ويكيبيديا (الموسوعة الحرة).

13	المستعين بالله العباس	808 – 816 هـ / 1406 – 1414 م
14	المعتضد بالله أبو الفتح داوود	816 – 845 هـ / 1414 – 1441 م
15	المستكفي بالله أبو الربيع سليمان	845 – 854 هـ / 1441 – 1451 م
16	القائم بأمر الله أبو البقاء حمزة	854 – 859 هـ / 1451 – 1455 م
17	المستنجد بالله الجمالي يوسف	859 – 884 هـ / 1455 – 1479 م
18	المتوكل على الله عبد العزيز	884 – 903 هـ / 1479 – 1497 م
19	المستمسك بالله يعقوب	903 – 914 هـ / 1497 – 1508 م
20	المتوكل على الله محمد	914 – 922 هـ / 1508 – 1516 م
21	المستمسك بالله يعقوب	922 – 923 هـ / 1516 – 1517 م
22	المتوكل على الله الثالث	923 – 923 هـ / 1517 – 1517 م

استمرت الخلافة العباسية حتى عام 1517، عندما اجتاحت الجيوش العثمانية بلاد الشام ومصر وتنازل آخر خلفاء بني العباس عن لقبه لصالح السلطان العثماني، وهو سليم الأول.

العصر العباسي

بعد أن تمكن العباسيون من إزاحة الأمويين عن الحكم، أسسوا الخلافة العباسية في الكوفة فترة من الزمن وفي الأنبار فترة أخرى إلى أن بنى أبو جعفر المنصور مدينة بغداد التي أصبحت عاصمة الخلافة وحاضرة المشرق. تألقت بغداد في تلك الأيام وخصوصا خلال فترة حكم هارون الرشيد وأصبحت الوجهة الأولى في الشرق ولم يضاهيها سوى قرطبة، عاصمة الخلافة الأندلسية، في الغرب التي أيضا أصبحت من أعظم الحواضر في بلاد المسلمين والعالم ويرى البعض أنها فاقت بغداد لتتبوأ المكانة الأولى عالميا في تلك الحقبة من الزمن.

امتد العصر العباسي لعدة قرون، بدءا من نهاية الدولة الأموية عام 132هـ، واستمر حتى 656 هـ عندما انتهت الدولة العباسية الأولى على يد المغول الذين دمروا بغداد وعاثوا فيها فسادا وأهلكوا الحرث والنسل وخربوا المكاتب ودور العلم. وقد قسم المؤرخون مدة الخلافة العباسية إلى ثلاثة عصور.

يمتد العصر العباسي الأول منذ بداية الدولة حتى خلافة الواثق بالله التي انتهت عام 232 هـ. لقد حققت الدولة خلال هذه الفترة تقدما حضاريا لافتا خاصة في عهد الخليفة هارون الرشيد وأبنائه. وتم في هذه الفترة تشييد الكثير من المكتبات ودور العلم

وازدهرت حركة الترجمة من وإلى العربية. كان هذه العصر يمثل عصر القوة والازدهار وجمع الكلمة واتحاد الدولة تحت حكم الخلفاء العباسيين.

بدأ العصر العباسي الثاني بخلافة المتوكل عام 232 هـ، وانتهى عام 446 هـ. اتسمت تلك الفترة بزيادة الترف بين الناس ونشطت الحركة العلمية وازدادت المكتبات وحركة التأليف والترجمة مع اتساع هامش اللهو وانتشار الموسيقى والآلات الموسيقية.

من الجدير بالذكر أن الخلافة العباسية الفعلية لم تدم طويلا إذ انتهى عصرها الذهبي خلال خلافة أحفاد هارون الرشيد وبمعنى أدق انتهت الخلافة الفعلية بمقتل أمير المؤمنين المتوكل حيث بدأت سيطرة الضباط الأتراك على السلطة وتدخلهم الكبير في شؤون الخلافة.

لقد تواجد الأتراك في جيش الخلافة العباسية منذ بداية تأسيسها جنبا إلى جنب مع العرب والفرس، وتحديدا خلال خلافة أبي جعفر المنصور، لكن تواجدهم لم يكن مؤثرا لقلة عددهم في تلك الأيام. وفي فترة حكم المعتصم بالله استكثر منهم وأحدث تغييرات كبيرة في بنية الجيش العباسي بعد أن آزر بعض العرب والفرس العباس بن المأمون ضد المعتصم الذي تخلص منهم فيما بعد وانتهى به المطاف مقتولا أو مات عطشا كما ذكرت بعض المصادر. وكان أحد الأسباب الذي جعل العباس يتحرك ضد عمه المعتصم هو تواجد الأتراك لكن المعتصم استقدم المزيد منهم بعد تلك الحادثة .

كان المعتصم يميل إلى أخواله الأتراك إذ إن أمه، ماردة، كانت جارية تركية الأصل، وقد استقدم أعدادا كبيرة منهم قيل: إنها بلغت نحو سبعين ألفا. بعد أن أكثر المعتصم من الأتراك، ضاقت بهم بغداد وربما حصلت بعض المشاكل بين العرب والترك فقرر المعتصم بناء العاصمة الجديدة لينتقل إليها هو والأترك وحاشيته وسماها سر من رأى، سامراء، حاليا. ربما كان أكبر خطأ ارتكبه المعتصم هو الإكثار من الأتراك وفسح المجال لهم ليتوغلوا في مفاصل الدولة. كان المعتصم معجبا بشجاعة وإقدام الأترك لكنه لم يكن مدركا للخطر الذي يهدد الدولة العباسية برمتها جراء هذا العمل، وقيل: إنه ندم على ذلك في أواخر حياته .

تولى هارون الواثق بالله الخلافة بعد وفاة أبيه المعتصم واستمر على سياسة أبيه في شأن الأتراك بعد أن ساهموا في القضاء على عدد من الفتن والاضطرابات في بلاد فارس وشبه الجزيرة العربية. لقد بدأ الاتراك بالاساتبداد بأمور الخلافة بعد وفاة الواثق سنة 847 ميلادي ووقعت بعض الخلافات بينهم وبين الخليفة جعفر المتوكل على الله إذ حاول التخلص منهم وترك سر من رأى كرها لهم وحاول الاستقرار في دمشق للاستعانة بالعرب ولكنه عاد إلى العراق مرة أخرى ونجح الأتراك في إحداث شرخ بين الخليفة جعفر المتوكل وابنه المنتصر فساند الأترك المنتصر وقتلوا الخليفة المتوكل على الله وتسببوا

بما يعرف تاريخيا بفوضى سامراء التي كانت سببا في خروج عدد من الأقاليم والولايات عن الخلافة العباسية وأحدثت شرخا في الخلافة لم يلتئم بعدها .

استمرت الاضطرابات التي كانت تعصف بالخلافة خلال فترة تمكن الأتراك إلى أن بدأت قبضتهم تتراخى عندما تمكن ولي العهد الموفق بالله بن المتوكل من وضع حد لنفوذ الأتراك قرابة عام 875 للميلاد. ساهم هذا الأمر في إعادة بعض الهيبة للخلافة العباسية، ولكن الدولة لم تعد كما كانت عليه في السابق أو في أوج القوة لأن الكثير من الولايات اتخذت حكما ذاتيا وكانت تتبع للخلافة بشكل اسمي. استمر خلال الفترات التالية نفوذ الاتراك لكنه لم يكن قويا كما كان في السابق وظهر على مسرح الأحدث عددا من الحركات الاخرى مثل حركة الزنج والتسلط البويهي ومن ثم ظهور السلاجقة، حيث انتهى نفوذ كل هذه الفئات بالغزو المغولي الذي تسبب بهدم الكثير من المعالم وخاصة الثقافية في بغداد إضافة إلى قتل الخليفة آنذاك.

بدأ العصر العباسي الثالث منذ عام 446 حتى سقوط بغداد بيد المغول. اتسمت هذه الفترة باتساع حركة التأليف في مجالات متعددة مثل التاريخ والجغرافيا ومختلف العلوم الإسلامية. وبعد أن دمر المغول بغداد وقتلوا الخليفة العباسي عبدالله المستعصم بالله سنة 656 هـ 1258 م، انتقلت الخلافة إلى القاهرة واستمرت حتى تنازل آخر خليفة عباسي، المتوكل على الله الثالث، عن لقبه لصالح السلطان العثماني سليم الأول، وكانت

الخلافة طيلة هذه القرون رمزية ولم تكن للخليفة سلطة فعلية يستطيع من خلالها تسيير أمور الدولة.

كان نظام الحكم في العصر العباسي كسلفه، العصر الأموي، أي بالتوريث حيث تم توارث الخلافة بين أفراد الأسرة العباسية لقرون عدة. وهناك فرق كبير بين بدايات الخلافة العباسية ونهاياتها لأن الخلفاء في بداياتها كانت لهم الكلمة الأولى لذلك كانت الدولة قوية ومهيبة الجانب ومنيعة على الأعداء، أما في نهاياتها فقد اتسمت بالضعف وأصبحت الخلافة ولقب الخليفة رمزي ولم يكن له شيء من الحكم إذ إن الحكم الفعلي كان لملوك الدويلات التي كانت شبه مستقلة عن الخلافة وتتبع للخلافة بشكل اسمي فقط.

كان الخلفاء العباسيون عموما يبدون اهتماما كبيرا بالشعر والأدب، دأبهم في ذلك دأب الخلفاء الأندلسيين والأمويين وكانوا يكرمون الشعراء والأدباء. اشتهر خلال هذا العصر عدد كبير من الشعراء والأدباء مثل أبي العتاهية والأصمعي وأبي تمام ومحمد بن جرير الطبري وأبي الطيب المتنبي وابن زريق البغدادي وياقوت الحموي وغيرهم. وفي هذا العصر أيضا ظهرت المقامات وازدهرت على يد بديع الزمان الهمذاني مما ساهم في تعزيز تنوع الأصناف الأدبية وإثرائها.

لقد ساهم أيضا امتداد زمن الدولة العباسية لقرون عديدة في زيادة عدد العلماء في مختلف المجالات وكذلك الشعراء والأدباء، خاصة أن الخلافة العباسية استمرت خلال

العصور الوسطى التي شهدت بدايات التطور ووضع اللبنات الأولى في مسار البشرية نحو الحداثة والتطورات التي شهدتها البشرية فيما بعد في العصر الحديث.

مقارنة بين العصر الأموي والأندلسي والعباسي

من بين العصور الثلاثة، كان العصر الأموي الأول في الشام هو الأقصر ومع قصره كان حافلا بالإنجازات، بل أسس لما بعده فسار كل من العصر الأندلسي والعباسي على أثره. في أيام الدولة الأموية الأولى، توسعت الخلافة الإسلامية توسعا هائلا حتى وصلت خيول المسلمين أقصى الشرق على حدود الصين بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي الذي أوفده الحجاج بن يوسف الثقفي لفتح تلك البلاد. وسار بموازاة ذلك محمد بن القاسم الثقفي بجيشه حتى بلغ الهند عبر باكستان، وكان قد أوفده الحجاج أيضا لفتح تلك البلاد. أما في الغرب، فقد بلغت الدولة الإسلامية حدود فرنسا فكان اتساعها خلال خلافة هشام بن عبدالملك بن مروان من فرنسا غربا حتى تخوم الصين شرقا، وهي أكبر دولة إسلامية تكونت حتى زماننا هذا. وكان من بين خلفاء بني أمية في المشرق عمر بن عبدالعزيز الذي لقبه بعض أهل العلم بالخليفة الراشدي الخامس.

تميز هذا العصر بزيادة اختلاط العرب بالعجم نتيجة الفتوحات والاعتناق غير المسبوق للإسلام من قبل شعوب مناطق الفتوحات حتى بدأت تظهر بعض المفردات والتعابير التي تأثرت بلغات أخرى، إضافة إلى ظهور الضعف في اللغة العربية على لسان من تعلمها من العجم. شهد هذا العصر أيضا إنجازات عظيمة حيث بدأت مرحلة تعريب

الدواوين وسك الدينار العربي التي أسست لما بعدها من الدول ونشطت حركة التدوين نشاطا غير مسبوق.

سار العصر الأندلسي على نهج العصر الأموي بقيادة عبدالرحمن الداخل أولا ومن ثم أبنائه وأحفاده، حيث أسس أمراء بني أمية حضارة عظيمة في الأندلس. كان البعض يرى أن الحضارة الإسلامية في الأندلس قد فاقت الحضارة العباسية في المشرق لما لاقت من اهتمام الأمراء الأمويين بالعلم والأدب وبناء المدارس وتشييد المدن والقصور العظيمة.

اتسم العصر الأندلسي برغد العيش والاعتناء بالعلوم والمعارف وتوجه بعض أبناء المشرق نحو الأندلس لما كانت تصلهم من أخبار سارة عن تلك البلاد مثل زرياب الذي أسس دار الموسيقى هناك وكذلك الشاعر ابن زريق البغدادي الذي سيرد ذكره في هذا الكتاب لاحقا. تميزت الخلافة الأندلسية أيضا بالاعتناء بالبناء العربي وتشييد القصور وانتشار حلق العلم والمعارف في كافة العلوم فأصبحت مركزا ثقافيا عالميا يأتي إليه الأوربيون من كل مكان لطلب العلم ومن ذلك علوم الطب. وكان من بين علماء هذا العصر أبو إسحق البطروجي الذي اشتهر في علم الفلك، وأبو الحسن علي القلصادي الذي اشتهر بالرياضيات، وأبو بكر بن الصيرفي الذي اشتهر في الفقه، وأبو حيان الغرناطي الذي اشتهر بعلوم العربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات وابن رشد الذي اشتهر بالفلسفة.

أما الخلافة العباسية فقد كانت وريثة أو صاحبة تركة الدولة الأموية بعد أن تغلب العباسيون على بني أمية في المشرق. ومع ذلك لم تتوسع الدولة العباسية كثيرا، بل عملت على المحافظة على ما ورثته من تركة الدولة الأموية في المشرق وبقي الأندلس وبعض مناطق المغرب العربي تحت حكم الدولة الأموية في الأندلس؛ لذا فإن الدولة الأموية أكبر من حيث المساحة من الدولة العباسية لأن الأندلس وبعض مناطق المغرب بقيت خارج سلطانها ثم إن الدولة العباسية لم تتوسع كثيرا في الشرق بعد أن أفل نجم الدولة الأموية.

تميز العصر العباسي خاصة في أيام هارون الرشيد وأبناءه بالتوسع في دراسة العلوم والاعتناء بالترجمة وبرز كثير من العلماء في هذا العصر مثل ابن سينا الذي لقبه الغربيون بأمير الأطباء، وأبو بكر الرازي الذي اشتهر بالطب والكيمياء والفلسفة والرياضيات، وابن النفيس الذي أعتبره الغرب أعظم فيزيولوجيي العصور الوسطى وهو أول من تكلم عن الشرايين التاجية والدورة الدموية، وأبو الحسن الطبري الذي اشتهر بالطب أيضا.

أبو العتاهية

شاعر الوعظ والحكمة

حياته ونسبه

اسمه أبو إسحق إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني. ولد في منطقة عين التمر، قرب الكوفة، سنة 130هـ/747م. عمل أبو العتاهية في بداية حياته بائعا، لكنه اتجه إلى الأدب فيما بعد ونبغ في الشعر. عاش هذه الفترة من حياته في الكوفة وبدأت مواهبه الأدبية والشعرية بالسطوع عندما انتقل إلى بغداد فمدح المهدي والهادي والرشيد. وكانت له قصص جميلة مع هارون الرشيد، سنذكر بعض منها في هذا القسم.

قيل: إنه عاش حياة المجون في شبابه ولذلك سمي بأبي العتاهية، والتي تعني الحمق أو الأحمق، لكنه غير حياته بشكل كامل فيما بعد وعاش حياة الزهد.

اتصاله بالخلفاء

قال ابن كثير في البداية والنهاية: أصل أبي العتاهية من الحجاز وسكن بغداد، وكان يبيع الجرار أولا، ثم حظي عند الخلفاء لاسيما المهدي. وقد كان يعشق جارية للمهدي اسمها عتبة وقد طلبها من الخليفة أكثر من مرة، ولكنها رفضته. وقالت للمهدي: أتعطيني لرجل دميم الخلق كان يبيع الجرار؟ وكان يكثر التغزل فيها، وشاع أمره، ولكن المهدي كان يتفهم ذلك.

قيل: إن الخليفة المهدي استدعى الشعراء إلى مجلسه ذات يوم فاجتمعوا له، وكان فيهم أبو العتاهية وبشار بن برد، الأعمى، فسمع صوت أبي العتاهية، فقال بشار لجليسه: أثم هاهنا أبو العتاهية؟ قال: نعم. فوجم لها بشار، ثم استنشد المهدي أبي العتاهية، فأنشده قصيدة قال فيها:

ألا ما لسيدتـــي ما لهـــا أدلت فأحمـــــل إدلالها

فقال بشار لجليسه: ما رأيت أجسر من هذا. حتى انتهى أبو العتاهية إلى قوله:

أتته الخلافـــة منقـــادة إليه تجـــــرر أذيالهـــا

فلم تـــك تصلـــح إلا لـه ولم يك يصلـــح إلا لهـا

ولو رامها أحـــد غيـــره لزلزلـت الأرض زلزالهـــا

ولو لم تطعه بنات القلوب لما قبـــــل الله أعمالهـــا

فقال بشار لجليسه: انظر ويحك، أطار الخليفة عن فراشه أم لا؟ قال: فوالله ما خرج أحد من الشعراء يومئذ بجائزة غيره. وقال ابن خلكان: من لطيف شهر أبي العتاهية، قوله:

ولقد صبـوت إليك حتـــى صـــار من فـــرط التصابي

يجد الجليـــس إذا دنـــا ريـــح التصابي في ثيابـــي

وقال ابن خلكان أيضا: أشعاره كثيرة، وكان مولده سنة ثلاثين ومائة، وتوفي يوم الاثنين ثالث جمادى الآخر سنة إحدى عشرة- وقيل: ثلاث عشرة- ومائتين من الهجرة. وأوصى أن يكتب على قبره ببغداد:

إن عيشا يكون آخره المـوت لعيش معجـــل التنغيـص

شعره

عاش أبو العتاهية حياة متضاربة، حيث خالط أهل اللهو والمجون من طبقته من الشعراء مثل أبي نواس، ولكن انقلبت حياته رأسا على عقب، بعد توبته حيث أعرض عن شعر الغزل وأنصرف إلى الزهد وشعر الوعظ والحكمة.

وكان ينظم المائة والمائة والخمسين بيتا في اليوم، حتى لم يكن للإحاطة بجميع شعره من سبيل. وكان يجيد القول في الزهد والمدح وأكثر أنواع الشعر في عصره، وهذه بعض من أبياته:

بكيت على الشباب بدمع عيني فلم يغن البكـــاء ولا النحيب
فيا أسفا أسفت على شبـــاب نعاه الشيب والرأس الخضيـب
عريت من الشباب وكنت غضـا كما يعرى من الورق القضيـب
فيا ليت الشباب يعـود يومـــا فأخبره بما فعـــل المشيـــب

وقد أبدع بقصيدة أخرى تعرف باليأس من الدنيا، حيث تزخر هذه القصيدة بالوعظ وتصور حالة الإنسان في هذه الدنيا الفانية التي ستنتهي يوما بهادم اللذات:

قطعت منك حبائـــل الآمال وحططت عن ظهر المطي رحالي

ويئست أن أبقى لشيء نلت ممـا فيك يا دنيـا وإن يبقـــى لي

ولقد أقام لي المشيـــب نعاته تفضي إلي بمفـــرق وقـــذال

ولقد رأيت المـــوت يبرق سيفه بيد المنية حيث كنت حيالـــي

ولقد رأيت عرى الحياة تخرمت ولقد تصدى الوارثـــون لمالي

وإذا تناسبت الرجـــال فما أرى نسبا يقاس بصالـــح الأعمـال

وإذا بحثت عن التقي وجدتـــه رجلا يصـدق قوله بفعـــال

وعلى التقي إذا ترســـخ في التقى تاجان تـــاج سكينـــة وجلال

الحمـــد لله الحميـــد بمنه خسرت ولم تربـــح يد البطال

أبو العتاهية والرشيد

هناك الكثير من القصص التي رويت عن أبي العتاهية، وكثير من المواقف له مع الخلفاء وخاصة هارون الرشيد، ولطالما سالت دموع الرشيد تأثرا بشعر أبي العتاهية الوعظي. يروى أن هارون الرشيد كان يوما في قصره، محاطا بحاشيته وكان من بينهم أبي العتاهية، فأراد الرشيد أن يصف له أبو العتاهية هذا الحال المترف، فقال أبو العتاهية:

عش ما بـــدا لك سالمـــا في ظـــل شاهقة القصـور

يسعى عليك بما اشتهيـت لـــدى الرواح أو البكـــور

فقال: حسن، ثم ماذا؟ فقال:

فإذا النفـوس تقعقعـــت في ظل حشرجة الصـدور

فهنـــاك تعلـــم موقنـــا ما كنـــت إلا في غـــرور

وقيل: إن أبا العتاهية قرر أن يتوب، ذات يوم عن شعر الغزل، لكن الرشيد حبسه ورفض أن يطلق سراحه مالم يقل شعرا في الغزل، فقال أبو العتاهية:

أما والله إن الظلـــم لـؤم ومازال المسيء هو الظلـوم

إلى ديان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصـوم

فلما بلغ ذلك الرشيد تأثر وأمر بإطلاقه.

وذكر أبو الفرج الأصفهاني، في كتاب الأغاني، أن الرشيد كان يحب أن يسمع صوت الملاحين ينشدون إذا ركب الزلالات. فقال: قولوا لمن معنا من الشعراء ينظموا لهؤلاء شعرا ينشدونه، فقيل له: ليس أقدر على هذا من أبي العتاهية، وهو في الحبس. فقال أبو العتاهية: توجه إليّ الرشيد فقال لي: قل: شعرا حتى أسمعه منهم، ولم يأمر بإطلاقي فغاظني ذلك، فقلت: والله لأقولن شعرا يحزنه ولا يسره فنظمت هذه الأبيات ودفعتها إلى من حفظها من الملاحين:

خانك الطرف الطمـــوح أيها القلــب الجـمـــوح

لدواعي الخــير والشـــر دنـــــو ونـــــــــزوح

هل لمطلـوب بذنـــــب توبـــة منـه نصـــــوح

كيـف إصلاح قلـــــوب إنمـــا هـــــن قـــــروح

أحســـــــن الله بنـــا أن الخطايـــــا لا تفـــوح

فإذا المستـــــــور منـــا بين ثوبيـــــه فضـــوح

موت بعــض النـــاس في الأرض على البعض فتــوح

فلما سمع الرشيد هذه الأبيات تأثر بها كثيرا وكان ممن يتأثرون بالمواعظ وكان أيضا من أشد الناس عسفا وقت الغضب. ولما لاحظ الفضل بن الربيع كثرة بكاء الرشيد أومأ إلى الملاحين أن يسكتوا.

خاتمة

توفي أبو العتاهية رحمه الله تعالى سنة 211 هـ/ 826 م، وقد أبدع وتألق في شعره رغم أن جل شعره كان يتعلق بموضوع واحد وهو الزهد والوعظ.

الأصمعي

حياته ونسبه

عاش عبد الملك بن علي بن أصمع الملقب بالأصمعي عمرا مديدا تجاوز التسعين عاما وعاصر العديد من الخلفاء العباسيين. ولد في البصرة سنة 121 هجري، وكان كثير التجوال في البوادي ينهل من علومها ويتلقى أخبارها وطرائفها ويتحف بها الخلفاء.

مؤلفاته

اشتهر الأصمعي في الأدب وله عدة مؤلفات مثل كتاب الأصمعيات والإبل وخلق الإنسان والأمثال وغيرها. يشتمل كتابه الأصمعيات على مختارات من الشعر الجاهلي والمخضرم والإسلامي ويحتوي على اثنتين وتسعين قصيدة. ويعتبر كتاب الأمثال أحد الكتب التراثية الثمينة للأصمعي وقد افتقدته المكتبة العربية، وقد ذكره المصنفون القدماء وأفادوا منه ثم ضاع بعد ذلك ولم يعثر له على أثر سوى ما كان متفرقا منه هنا وهناك في بطون الكتب والمصنفات. لم يكن الأصمعي أديبا فحسب، بل كان من الحفاظ والرواة وقد نسبت إليه بعض القصائد التي ربما لم يكتبها بنفسه كقصيدة صوت صفير البلبل.

الأصمعي والمنصور

يذكر أن الأصمعي كتب هذه القصيدة لأن أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور كان قوي الذاكرة ويستطيع أن يحفظ الشعر من أول مرة يسمعه وعنده جارية تحفظ الشعر إذا سمعته مرتين وغلام إذا سمعه ثلاث مرات. خصص المنصور جائزة لمن يأتي بقصيدة جديدة لم يسمعها أحد من قبل، وهي وزن ما كتبت عليه ذهبا.

كان الشعراء يتوافدون إلى أمير المؤمنين وكلما ألقى شاعر قصيدته قال المنصور سمعنا هذه القصيدة من قبل، فيعيدها ويأمر الجارية والغلام بإعادة القصيدة أيضا. تحير الشعراء من هذا الأمر فقال أحدهم للأصمعي: أرأيت ما يفعل أمير المؤمنين؟ نكتب القصيدة ونلقيها عنده ثم يقول: هذه ليست لكم، لقد سمعتها من قبل ويعيدها على أسماع الشعراء. فكر الأصمعي قليلا ثم أدرك أن في الأمر خدعة وقرر أن ينظم قصيدة يستحيل حفظها من أول مرة يسمعها الإنسان، وكانت النتيجة لاميته المشهورة "صوت صفير البلبل" وقدم بها إلى المنصور، ونذكر منها هنا بعض الأبيات:

صـــوت صفيـــر البلبـــل هيّـــج قلبـــي الثمـــل
المـــــاء والزهـــر معـــا مع زهـــر لحـظ المقـــل
وانـــت يا سيـــــد لـي وسيـدي ومولـــى لـــي

فكـــم فكـــــم تيمنـــي غزيـــــــــل عقيقـــــل

قطفتـــــــــه من وجنـــــة من لثـــــم ورد الخجـــل

فـــقـــــــــال: لا لا لا لا لا وقد غـــــــدا مهـــــرول

والخـــــود مالـــــت طربـا من فعـــــل هـــذا الرجـــل

والعـــــــود دن دن دن لـــي والطبـــــــل طب طب لـــي

طب طب طب طب طب طب طب طب طب طب لي

إلى نهاية القصيدة.

ولم يستطع المنصور ولا الجارية والغلام حفظ أو إعادة القصيدة، فقال الأصمعي: هل سمعت بهذه القصيدة من قبل يا مولاي؟ قال المنصور: لا. لم أسمع بها من قبل، وأمر المنصور أن يعطوه وزن ما كتبت عليه ذهبا. قال الأصمعي لكني لم أكتبها على ورق وإنما ورثت عمود رخام من أبي فنقشتها عليه نقشا وهو على ظهر ناقتي عند باب القصر ولا يحمله إلا أربعة من الجند. قال وزير المنصور: كل ما في بيت مال المسلمين لا يعدل وزن هكذا عمود! وقال الوزير للأصمعي أيضا: أترضى أن ينفد بيت مال المسلمين؟ قال لا! ولكن يا أمير المؤمنين قطعت أرزاق الشعراء بذاكرتك القوية، وإني أتنازل عن حقي على أن تعطوا كل شاعر حقه بما قال.

ماذا قال عنه العلماء؟

قال الأخفش ما رأينا أحدا أعلم بالشعر من الأصمعي. وقال أبو الطيب اللغوي: كان الأصمعي أتقن القوم للغة وأعلمهم بالشعر. وقد أثنى عليه الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه. وقال عمر بن شبة: سمعت الأصمعي يقول: أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة. وقال محمد بن الأعرابي: شهدت الأصمعي وقد أنشد نحوا من مائتي بيت، ما فيها بيت عرفناه. وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: ما عبر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعي. وقال أبو داود: صدوق. وقال أبو داود السنجي سمعت الأصمعي يقول: إن أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل في جملة قوله ﷺ: "من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار". وقال نصر الجهضمي: كان الأصمعي يتقي أن يفسر الحديث، كما يتقي أن يفسر القرآن. وقال ثعلب: قيل للأصمعي: كيف حفظت ونسوا؟ قال درست وتركوا. وكان الأصمعي يقول: أحفظ عشرة آلاف أرجوزة.

فصاحة الأعراب

يذكر أن الأصمعي كان يتحدث في أحد المجالس فأراد أن يستشهد بآية فقال: والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله غفور رحيم. وكان هناك أعرابي في المجلس، فسأل الأعرابي: كلام من هذا يا أصمعي؟ فقال الأصمعي: كلام الله. قال الأعرابي هذا ليس بكلام الله! عندها كثر اللغط في المجلس إذ غضب الناس على

الأعرابي لأنهم ظنوا أنه ينكر آية من كتاب الله. ثم سأله الأصمعي، هل تحفظ القرآن؟ قال الأعرابي: لا! قال الأصمعي: هل تحفظ سورة المائدة؟ قال: لا! ولكن هذا ليس بكلام الله! طلب الأصمعي أن يأتوه بالقرآن ثم قرأ قوله تعالى بعد بسم الله الرحمن الرحيم:

(وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلاً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[1]

أعجب الأصمعي بذكاء الأعرابي ودقة ملاحظته فسأله: كيف عرفت يا أعرابي؟ فقال: يا أصمعي عز فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع. أي أن الغفران والرحمة لا تتناسب مع هذا الموقف الذي يتطلب الشدة والتنفيذ في الحكم خصوصا أن الآية تتحدث عن حكم شديد من أحكام الإسلام وهو قطع اليد درءا للمفاسد وردعا لمن تسول له نفسه بالسرقة.

الأصمعي وهارون الرشيد

قال الأصمعي: كنت بالبصرة أطلب العلم، وأنا فقير، وكان على باب زقاقنا بقال، إذا خرجت باكرا يقول لي إلى أين؟ فأقول إلى فلان المحدث. وإذا عدت مساء يقول لي: من أين؟ فأقول من عند فلان اللغوي. فيقول البقال: يا هذا، اقبل وصيتي، أنت شاب فلا تضيع نفسك في هذا الهراء، واطلب عملا يعود عليك نفعه وأعطني جميع ما عندك من الكتب فأحرقها. فوالله لو طلبت مني بجميع كتبك جزرة، ما أعطيتك! فلما ضاق صدري

[1] سورة المائدة: (38).

بمداومته هذا الكلام، صرت أخرج من بيتي ليلا وأدخله ليلا، وحالي تزداد ضيقا، حتى اضطررت إلى بيع ثياب لي، وبقيت لا أهتدي إلى نفقة يومي، وطال شعري، وبلي ثوبي، واتسخ بدني. فجاءني ذات يوم خادم للأمير محمد بن سليمان الهاشمي "والي البصرة" فقال لي: أجب الأمير، فقلت: ما يصنع الأمير برجل بلغ به الفقر إلى ما ترى؟ فلما رأى سوء حالي وقبح منظري، رجع فأخبر محمد بن سليمان بخبري، ثم عاد إلي ومعه كيس فيه ألف درهم فسررت سرورا شديدا، ودعوت له. ومضيت بعد ذلك معه حتى دخلت على محمد بن سليمان، فلما سلمت عليه، قربني ورفعني ثم قال: يا عبد الملك، قد سمعت عنك، واخترتك لتأديب ابن أمير المؤمنين، فتجهز للخروج إلى بغداد. فشكرته ودعوت له، وقلت: سمعا وطاعة، سآخذ شيئا من كتبي وأتوجه إليه غدا.

عدت إلى داري فأخذت ما احتجت إليه من الكتب، وجعلت باقي الكتب في حجرة سددت بابها، وأقعدت في الدار عجوزا من أهلنا تحفظها. فلما وصلت إلى بغداد دخلت على أمير المؤمنين هارون الرشيد. قال: أنت عبد الملك الأصمعي؟ قلت: نعم، أنا عبد أمير المؤمنين الأصمعي. قال: اعلم أن ولد الرجل مهجة قلبه، وها أنا أسلم إليك ابني محمدا بأمانة الله. فلا تعلمه ما يفسد عليه دينه، فلعله أن يكون للمسلمين إماما. قلت: السمع والطاعة. فأخرجه إلي، وحولت معه إلى دار قد أخليت لتأديبه، وأجرى علي في كل شهر عشرة آلاف درهم. فأقمت معه حتى قرأ القرآن، وتفقه في الدين، وروى الشعر واللغة،

وعلم أيام الناس وأخبارهم. واستعرضه الرشيد فأعجب به وقال: أريد أن يصلي بالناس في يوم الجمعة، فاختر له خطبة فحفظه إياها، ففعلت وخرج فصلى بالناس وأنا معه، فأعجب به الرشيد وأتتني الجوائز والصلات من كل ناحية، فجمعت مالا عظيما اشتريت به عقارا وضياعا وبنيت لنفسي دارا بالبصرة.

وبعد الانتهاء من تأديب ابن أمير المؤمنين قال هارون الرشيد للأصمعي إن شئت بقيت قربنا وإن شئت ذهبت إلى البصرة. فاختار الأصمعي البصرة. قال الرشيد للأصمعي قبل أن يغادر: "تمنى يا عبد الملك" قال الأصمعي لا أحتاج شيئا، بعد أن أكثر الرشيد له الهدايا. قال الرشيد مرة ثانية: "تمنى يا عبد الملك" فقلت: يا أمير المؤمنين أكتب إلى والي البصر أن يستقبلني هو وحاشيته عندما أصل إلى البصرة وأكتب إليه أيضا أن يأمر الناس أن يأتوا للسلام علي، ففعل أمير المؤمنين ذلك واستقبله الوالي وأتى الناس للسلام عليه وقد علموا ما صار إليه حال الأصمعي. قال الأصمعي: تأملت من جاءني، فإذا بينهما البقال وعليه عمامة وسخة، وجبة قصيرة. فلما رآني صاح: عبد الملك! فضحكت من حماقته ومخاطبته إياي بما كان يخاطبني به الرشيد ثم قلت له: يا هذا! قد والله جاءتني كتبي بما هو خير من الجزرة! - من كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخي.

وتذكرنا قصة الأصمعي والبقال بقول الشاعر أحمد شوقي:

العلـم يبني بيوتـــا لا عمـــاد لهـا والجهل يهدم بيوت العز والكــرم

لأن العلم كانت نتائجه عظيمة على الأصمعي ولا شك أن مثل هذا يتطلب الصبر والمثابرة لتحقيق الأهداف التي نصبوا إليها.

خاتمة

كانت حياة الأصمعي مليئة بالمصاعب والتحديات في نصفها الأول والراحة والسكينة في نصفها الثاني بعد أن أغدق عليه هارون الرشيد المال الوفير. قصته أيضا تبين أن صاحب العلم لابد أن ينجح ويستفيد من علمه وإن كانت هذه الفائدة ليست بفائدة مادية إذ إن الناس عموما تجل وتحترم وتوقر أهل العلم. توفي الأصمعي، رحمه الله تعالى، سنة 216.

أبو تمام

حياته ونسبه

هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، ويعرف بأبي تمام. ولد في مدينة جاسم في محافظة درعا السورية خلال فترة حكم هارون الرشيد سنة 188هـ / 804 م، ويعود نسبه إلى قبيلة طي. رحل أبو تمام من دمشق إلى مصر ومن ثم استقدمه المعتصم إلى بغداد وقدمه على الشعراء الآخرين بذلك الوقت، وتولى بريد الموصل لكنه توفي بعد عامين. كان أسمرا طويلا، حلو الكلام، وكان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة ويعتبر من كبار شعراء العصر العباسي، أي من طبقة المتنبي والبحتري.

شعره

تميز أبو تمام في مختلف فنون الشعر وقدم قصائد رائعة في المدح والهجاء والرثاء والغزل والوصف، كوصف معركة عمورية. اتسم شعره بالقوة والجزالة وغزارة المفردات. وهو أحد الشعراء الذين ساهموا في توثيق التاريخ من خلال قصائدهم فقد وصف كثيرا من الأحداث المهمة التي حدثت خلال حياته. وكانت قصائده أيضا غزيرة المعاني وقوية السبك وتدل على ثقافة الشاعر واطلاعه الواسع. قال في إحدى قصائده:

قل لابن طوق رحى سعد إذا خبطت نوائـب الدهر أعلاها وأسفلها

أصبحت حاتمهـــا جودا وأحنفها حلما وكيسهـا علمـــــا ودغفلهـا

مالي أرى الحجرة الفيحـــاء مقفلة عني وقد طالما استفتحت مقفلها

كأنهـــــا جنة الفردوس معرضــة وليس لي عمـــــل زاك فأدخلهـــا

وقال أيضا:

نفق المديـــــح ببابـه فكسوتـه عقدا من الياقـــــوت غير مثقـب

أولى المديـــــح بأن يكون مهذبا ما كان منه في أغـــــر مهـــذب

غربت خلائقـــــه وأغرب شاعـــر فيه فأحســـــن مغرب في مغـرب

لما كرمت نطقت فيك بمنطـــق حـقّ فلـــــم آثم ولم أتحـــــوب

مصنفات أبي تمام

رغم أن أبا تمام لم يعش طويلا، زهاء اثنتي وأربعين عاما فقط، إلا أنه قدم العديد من المصنفات الجميلة مثل فحول الشعراء وديوان الحماسة ومختار أشعار القبائل وديوانه الشعري، إضافة إلى مصنفات أخر. وروى الصولي أن أبا تمام كان حسن الصوت وكان ينشد شعره بين أيدي الخلفاء والأمراء، وصحب الخليفة المعتصم أحيانا.

اتصاله بالخلفاء

اختلط أبو تمام بالكثير من العلماء والشعراء، واطلع على علوم مختلفة منها الدينية والأدبية واللغوية والفلسفة مما زاد في ثقافته العامة وقوته الشعرية. وتنقل أيضا بين المدن المصرية ومكث في الإسكندرية زهاء خمس سنين، عاد بعدها إلى الشام ومن ثم إلى العراق.

وكان المأمون أول خليفة يمدحه أبو تمام، ولكن صلته بالمأمون لم تكن قوية مثلما كانت مع المعتصم. عندما سمع منه المعتصم أجازه وقدمه على شعراء عصره ورافق المعتصم أثناء غزوه للروم، في معركة عمورية، ووصف المعركة والانتصارات التي تلتها، قائلا:

السيف أصدق إنبـــاء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جـــلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرمـــاح لامعة بين الخميسين لافي السبعة الشهب
أين الرواية بل أين النجـــوم وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
يقضون بالأمـــر عنها وهي غافلة ما دار في فلك منها وفي قطـــب
لو بينت قط أمـــرا قبل موقعه لم تخف ماحل بالأوثان والصلب
فتح الفتوح تعالى أن يحيـــط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب

معارضات شعرية

اختلفت نظرة الشعراء والأدباء حول الحب، وربما كان لكل واحد منهم سببا جعله ينظر إليه نظرة تختلف عن الآخر. فأبو تمام كان يعطي أهمية كبرى للحب الأول وقال بيتين خالدين لا يزال كثير من الناس يحفظونهما جيدا حتى يومنا هذا، ولعل هذين البيتين أشهر ما قاله أبو تمام من شعر، هما:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحـــبّ إلا للحبيـــــب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتـــى وحنينـــــه أبدا لأول منـــــــزل

ولكن أبا الحسن بن طباطبا العلوي كانت له رؤية مختلفة عن أبي تمام، فهو يرى أن الحب الحقيقي هو للآخر وليس للأول، فقال:

دع حـبّ أول من كلفت بحبـه ما الحـبّ إلا للحبيب الآخـر

ما قد تولى لا ارتجـاع لطيبـه هل غائب اللذات مثل الحاضـر

إن المشيـب وقد وفى بمقامـه أوفى لدي من الشبـاب الغـادر

دنياك يومـك دون أمســك ما السالـف المفقود مثل الغابـر

ويتفق الشاعر عبد السلام الحمصي أو ما يعرف باسم ديك الجن، وهو أيضا من شعراء العصر العباسي، مع ابن طباطبا، إذ قال:

نقل فؤادك حيث شئت فلن ترى كهوى جديـــد أو كوجه مقبـــل

عشقـــي لمنزلي الذي استحدثته أما الذي ولـى فليـــس بمنـــــزل

ولم يتوقف الشعراء عند هذا الحد، فقد خالفها جميعا شاعر آخر لأنه كان يرى أن القلب يتسع للمزيد، فقال:

قلبي رهيـــن بالهـــوى المقتبـل فالويل لي في الحب إن لم أعـدل

أنا مبتلى ببليتيـــن من الهـــوى شوق إلى الثانـــي وذكـــر الأول

فهمـا حياتي كالطعـــام المشتهى لا بد منـــه وكالشـراب السلسـل

قســـــم الفؤاد لحرمـــة وللذة في الحب من ماض ومن مستقبل

إني لأحفـــظ عهـد أول منـــزل أبدا وآلـــف طيـب آخر منـــزل

الخاتمة

عاش أبو تمام آخر حياته في مدينة الموصل، في العراق، وتولى بريد الموصل في آخر سنتين من حياته وتوفي، رحمه الله، سنة 231 هـ /846م.

محمد بن جرير الطبري

شيخ المفسرين والمؤرخين

حياته ونسبه

ولد أبو جعفر بمدينة آمل في طبرستان في أواخر سنة 224 هـ/ 838م، ونشأ بهذه المدينة وأخذ عن شيوخها. تمكن من حفظ القرآن الكريم قبل أن يتجاوز سن السابعة، وأمَّ الناس في الصلاة وعمره ثمان سنين، وبدأ يكتب الحديث وعمره تسع سنين. بدت علامات النبوغ والذكاء على الطبري منذ نعومة أظافره ولاحظ والده هذا الأمر لذلك عهد به إلى علماء المدينة في ذلك الوقت. وقد رأى والده رؤية أستبشر بها خيرا، وتحدث أبو جعفر عن هذه الرؤيا، فقال: (رأى أبي في النوم أنني بين يدي رسول الله ﷺ ومعي مخلاة مملوءة بالأحجار، وأنا أرمي بين يديه). وفسر أحدهم الرؤيا بأنه إن كبر نصح في دينه، ودافع عن شريعته، فحرص بعدها والد محمد، رحمهما الله، على إعانة ابنه في طلب العلم منذ الصغر. وعندما أصبح شابا يافعا بدأ يتنقل من مكان إلى آخر لطلب العلم فتعلم الفقه في بغداد ومن ثم توجه إلى عدة مدن وبلدان أخرى مثل الكوفة والشام ومصر.

كتبه ومؤلفاته

ترك الطبري، رحمه الله، إرثا عظيما في مجال علوم الدين والتاريخ والأدب. وقال عدد من العلماء: إنه لم يصنف مثل الطبري، وله كتب مشهورة وغنية عن التعريف، ولعل

أجل أعماله هو تفسير القرآن الكريم، جزاه الله عنا خيرا، ويسمى بتفسير الطبري أو جامع البيان عن تأويل آي القرآن. وكتب أيضا كتاب تأريخ الأمم والملوك أو ما يعرف بتاريخ الطبري، بالإضافة إلى عدة كتب أخرى مثل اختلاف علماء الأمصار في أحكام شرائع الإسلام، صريح السنة، الفصل بين القراءات، آداب القضاة، آداب النفوس، تهذيب الآثار، وفضائل أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما.

همة الطبري

يروى أن أبا جعفر قال يوما لتلاميذه: هل تنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم سيكون، أي كم عدد أوراق الكتاب الذي تريد أن تكتبه؟ وكان طلابه على علم بالهمة العالية التي كان يتمتع بها الطبري. قال: سيكون نحوا من ثلاثين ألف ورقة. فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه، أي سينقضي العمر ونموت قبل أن نتم هذا الكتاب، فاختصره في ثلاثة آلاف ورقة. وبعد أن انتهى قال لهم: أتنشطون في كتابة التاريخ من عصر آدم إلى يومنا هذا؟ وسألوا نفس السؤال، فقال: في ثلاثين ألف ورقة، أيضا! وكرروا نفس الإجابة، فاختصره في نحو من ثلاثة آلاف ورقة، ثم قال: إنا لله ماتت الهمم! هكذا كانت همته رحمه الله تعالى.

شعره

لم يتوقف ابن جرير، رحمه الله، على التصنيف والتفسير وكتابة كتب التاريخ وإنما كانت له بصمة أخرى في الشعر. لقد رويت عنه بعض القصائد سنذكر منها بعض الأبيات. قال الطبري في أبيات تعبر عن حيائه وقناعته بما رزقه الله تعالى، وهجره الدنيا وملذاتها:

إذا أعسرت لم يعلم رفيقـــي وأستغني فيستغني صديقـــي

حيائي حافظ لي مـــــاء وجهي ورفقي في مطالبتي رفيقـــــي

ولو أني سمحت ببذل وجهي لكنت إلى الغنى سهل الطريق

وقال أيضا:

خلقان لا أرضى طريقهمـــا بطر الغنى ومذلة الفقـــــر

فإذا غنيت فلا تكن بطـــرا وإذا افتقرت فته على الدهـر

شيوخ الطبري وتلاميذه

لقي الإمام ابن جرير الطبري علماء كثر، وسمع من شيوخ يصعب حصرهم، ومن الشيوخ الذين أخذ عنهم الطبري محمد بن حميد الرازي التميمي أبو عبدالله، وعمران بن موسى الليثي البصري، وأبو همام الوليد بن شجاع السكوني حيث لقيه في الكوفة، ومحمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب البصري الأموي، وإسماعيل بن يحيى المزني صاحب الشافعي حيث لقيه بالقاهرة وأخذ عنه الفقه، وغيرهم.

وقد كان الكثير من الطلاب يحضرون مجالسه وكثير من العلماء تتلمذ على يديه ومن هؤلاء: أبو شعيب عبد الله بن الحسن الحراني وكان أكبر من ابن جرير، والإمام الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني صاحب المعاجم والسنن والتصانيف، والشيخ القاضي أبو بكر أحمد بن كامل قاضي الكوفة وصاحب التصانيف في الفقه، وأبو أحمد عبدالله بن عدي صاحب الكتاب الحافل (الكامل في ضعفاء الرجال)، والقاضي أبو الفرج المعافى بن زكريا النهرواني، ومحمد بن عبد الله الشافعي، وأحمد بن موسى بن العباس التميمي، و كثير غيرهم.

ماذا قال عنه العلماء؟

قال الإمام النووي: أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل الطبري. وقال ابن الأثير: أبو جعفر أوثق من نقل التاريخ وفي تفسيره ما يدل على علم غزير وتحقيق، وكان مجتهدا في أحكام الدين لا يقلد أحدا، بل قلده بعض الناس وعملوا بأقواله وآرائه وكان أسمرا، أعين، نحيف الجسم، فصيح اللغة. وقال الذهبي: الإمام الجليل، المفسر أبو جعفر، صاحب التصانيف الباهرة، من كبار أئمة الإسلام المعتمدين، وكان ثقة حافظا صادقا، رأسا في التفسير، إماما في الفقه والإجماع والاختلاف، علامة في التاريخ وأيام الناس، عارفا بالقراءات واللغة، وغير ذلك.

وقال ابن تيمية: أما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف، بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين. وقال الخطيب البغدادي: كان أحد أئمة العلماء، يحكم بقوله، ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظا لكتاب الله، عارفا بالقراءات كلها، بصيرا بالمعاني، فقيها في أحكام القرآن، عالما بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفا بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم، قل أن ترى مثله العيون، وكان عارفا بأيام الناس وأخبارهم.

عندما توفي الطبري رثاه أبو بكر بن دريد بقصيدة، هذه بعض من أبياتها:

لن تستطيع لأمـــر الله تعقيبا فاستنجد الصبر أو فاستعر الحوبا

وافزع إلى كنف التسليم وارض بما قضى المهيمن مكروها ومحبوبا

إن المنية لم تتلــف به رجـــلا بل أتلفت علمـــا للدين منصوبا

لا ينسري الدهر عن شبه له أبـدا ما استوقف الحج بالأنصاب أركوبا

كانت حياتك للدنيا وساكنهـــا نورا فأصبح عنها النور محجوبا

لو تعلم الأرض من وارت لقد خشعت أقطارهـــا لـــك إجلالا وترحيبـــا

إن يندبوك فقد ثلت عروشهم وأصبـــح العلـــم مرثيا ومندوبـــا

خاتمة

لقد عاش الطبري عمرا طويلا وقضى جل عمره في طلب العلم والتصنيف وتأليف الكتب. عاش، رحمه الله تعالى، خمس وثمانين عاما وتوفي يوم الأحد 26 من شهر شوال في مدينة بغداد سنة 310 هـ/ 923م. قال ابن كثير: توفي الطبري عن عمر ناهز الثمانين بخمس سنين، وفي شعر رأسه ولحيته سواد كثير.

أبو الطيب المتنبي

حياته ونسبه

ولد المتنبي، أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي، سنة. 303هـ، / 915م، في الكوفة. لقب بأبي الطيب الكندي والكوفي لأنه ولد في الكوفة وفي حي كانت تقطنه قبيلة كندة. اختلفت الروايات حول تسميته بالمتنبي، فقيل: إنه سمي بذلك لأنه متنبئ الشعر، أي شاعر غزير فاق شعراء عصره، وهذا القول هو الأرجح، والله أعلم. وقيل: أيضا سمي بالمتنبي لأنه ادعى النبوة في بادية السماوة في العراق وتبعه بعض أبناء تلك المنطقة فأسره الإخشيدي وسجنه وتاب في السجن ثم خرج. ويرى البعض أنه سمي بالمتنبي لأنه قال هذه الأبيات:

ما مقامي بأرض نخلـــة إلا كمقام المسيـح بين اليهـود

أنا فـي أمـــة تداركهـــا الله غريـب كصالـــح في ثمـود

رحل المتنبي مع والده من الكوفة إلى بغداد وهو في الرابعة عشر من عمره، ومكث بعدها طويلا عند سيف الدولة في حلب وكذلك زار دمشق وطرابلس واللاذقية وحمص ومدح كثيرا من الأمراء. كان صاحب كبرياء وشموخ ومحبا للمغامرات، وبدأ بنظم الشعر مذ كان عمره تسع سنين وكان موهوبا وحاد الذكاء.

المتنبي وسيف الدولة

طاف المتنبي الصحاري والمدن بحثا عن أمير يمدحه ويتقرب منه ومدح الكثير إلى أن استقر به الحال في حضرة سيف الدولة الحمداني، شاعر وفارس بني حمدان. ويعود نسب سيف الدولة إلى قبيلة تغلب لذلك قال فيه المتنبي:

من تغلب الغالبين الناس منصبه ومن عدي أعادي الجبن والبخل

عندما سمع الحمداني شعر المتنبي أجازه وقربه منه وقدم له الكثير من الهدايا والأعطيات في مدينة حلب التي كان يقطنها سيف الدولة، لكن المتنبي كان يرى أنه يستحق أكثر من هذه الهدايا والأعطيات لأنه فاق جميع الشعراء آنذاك. كان الحمداني يحترم المتنبي كثيرا وخاضا عدة معارك معا. يذكر أن الشعراء كانوا يلقون قصائدهم وقوفا إلا المتنبي كان يلقي قصائده وهو جالس ولم تكن هذه الميزة لغيره من الشعراء الآخرين في مجلس سيف الدولة. لقد اعتاد المتنبي أن يمدح نفسه وأن يخصص جزءا كبيرا من قصائده لنفسه قبل أن يبدأ بمدح الشخص الآخر لذا حدثت فجوة بينه وبين سيف الدولة وازدادت بفعل الكارهين له.

نجح أعداء المتنبي في استغلال هذه الفجوة وزيادتها وأحس المتنبي بأن الأمير بدأ يتغير عليه، وقالوا للمتنبي إن سيف الدولة غير راض عنه وقالوا كلاما مشابها لسيف الدولة أيضا، ثم بدأ المتنبي يتصرف بغلظة مع حاشية الأمير الذين أبلغوه هذا. وبعد فترة من

الزمن، فارق المتنبي سيف الدولة ولم يكن كارها له وإنما كره بعض حاشيته من الحساد، وقال في هذا:

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يزيدك في إقدامك القسم

وفي اليمين على ما أنت واعده ما دل أنك في الميعاد متهم

كل السيوف إذا طال الضراب بها يمسها غير سيف الدولة السأم

لو كلت الخيل حتى لا تحمله تحملته إلى أعدائه الهمم

وظنهم أنك المصباح في حلب إذا قصدت سواها عادها الظلم

ضربته بصدور الخيل حاملة قوما إذا تلفوا قدما فقد سلموا

تخط فيها العوالي ليس تنفذها كأن كل سنان فوقها قلم

لا تطلبن كريما بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يدا ختموا

ولا تبال بشعر بعد شاعره قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

مقتطفات من شعر المتنبي

تميز شعر المتنبي بخصوبة الخيال وقوة المعاني وكان معبرا عن الحقبة الزمنية التي عاش فيها، خصوصا أن تلك المرحلة لم تكن مستقرة سياسيا، وكانت الثورات تجتاح أراضي الخلافة العباسية، ووصف في بعض قصائده المعارك التي خاضها سيف الدولة مع

الروم. كان المتنبي يربى بنفسه عن مدح الكثير من الولاة وكرس ما يقارب ثلث شعره لسيف الدولة، الذي قال فيه:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

أبدع المتنبي بمختلف ألوان الشعر مثل الوصف كوصف المعارك والحروب ووصف الطبيعة، وكان شديد الاعتداد بنفسه وهذا يبدو جليا في شعره كما في الأبيات التالية:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

وجاهل مده في جهله ضحكي حتى أتته يد فراسة وفم

إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنن أن الليث يبتسم

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

أما في الهجاء فكان له شأن آخر، خصوصا في هجاء كافور الاخشيدي حاكم مصر، علما بأن كافور كان شهما كريما كما وصفه المؤرخون ولا يستحق الهجاء، وكان كافور عبدا خصيا. كان سبب توجه المتنبي إلى كافور هو الخلاف الذي وقع بينه وبين حاشية سيف

الدولة، لذا قرر التوجه إلى مصر لعله يحصل على مكانة أفضل عند كافور فأكرمه كافور ثم مدحه المتنبي وأسمى كافورا بأبي المسك. ومما قال في مدحه لكافور:

عند الهمام أبي المسك الذي غرقت في جوده مضر الحمـــراء واليمـن
وإن تأخـر عني بعض موعـــــده فما تأخـــــــر آمالي ولا تهـــــن
هو الوفـــــي ولكني ذكـرت له مودة فهـو يبلوهـــــا ويمتحـــن

ولكن عندما تيقن المتنبي أنه لن يحصل على المرتبة التي كان يصبو إليها، انقلب على كافور فهجاه هجاء قبيحا. ومن المفارقات الغريبة هي أن بعض الناس نسوا كل صفات كافور الحميدة ولا يذكرون الآن سوى هجاء المتنبي له، ولعل هذا ما يبرز دور الشعراء وأهمية الشعر وكذلك خوف الحكام من إغضاب الشعراء لأنهم إذا خرجوا من الديار سيهجونهم، وأن قصائد الشعراء المجيدين سيرددها الناس أزمانا مديدة. قال المتنبي في هجاء كافور:

لا تشتر العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجـاس مناكيد
ما كنت أحسبني أحيا إلى زمـن يسيء بي فيه عبد وهو محمـود
ولا توهمت أن الناس قد فقـدوا وأن مثل أبي البيضاء موجـود
وأن ذا الأسـود المثقوب مشفـره تطيعه ذي العضاريط الرعاديـد
جوعان يأكل من زادي ويمسكني لكي يقال عظيم القدر مقصود

وقال فيه أيضا:

من أية الطرق يأتي مثلك الكـرم أين المحاجم يا كافور والجلـم

جاز الألى ملكت كفاك قدرهـم فعرفوا بك أن الكلـب فوقهـم

سادات كـل أناس من نفوسهـم وسادة المسلميـن الأعبد القـزم

أغاية الدين أن تحفـوا شواربكـم يا أمة ضحكـت من جهلها الأمـم

ألا فتـى يورد الهنـدي هامته كيما تزول شكـوك الناس والتهم

خاتمة

شارك المتنبي في عدة حروب مع سيف الدولة حيث أبلى فيها بلاء حسنا بيده ولسانه. وبعد أن غادر سيف الدولة هجى ضبة بن يزيد الأسدي العيني الذي توعده وترصد طريقه وعندما عاد المتنبي ذات يوم من بغداد إلى الكوفة وكان معه جماعة من بينهم ابنه محمد وغلامه مفلح لقيه جماعة من بني أسد وتقاتلا وكانت الغلبة لبني أسد فحاول المتنبي الهرب من أرض المعركة فقال له غلامه مفلح: أتهرب وأنت القائل؟

الخيل والليـل والبيـــداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقال المتنبي: قتلتني، قتلك الله. وعاد المتنبي وقاتل إلى أن قتل. تبين هذه الحادثة إقدام المتنبي وأنه لم يستمر بالهرب وأن قوله كان مطابقا لفعاله. قتل معه في تلك الوقعة ابنه وغلامه مفلح وكان ذلك سنة 354هـ، / 965م.

ابن زريق البغدادي

حياته ونسبه

هو أبو الحسن علي بن زريق البغدادي، ولد في العصر العباسي ولم يذكر تاريخ دقيق لولادته. تزوج من ابنة عمه، وكان يحبها كثيرا. أصيب بالفقر الشديد نهاية حياته وكان يعاني من ضيق العيش، فقرر ذات يوم أن يتوجه إلى الأندلس لعله يستطيع تغيير ذلك الواقع المرير. تشبثت به زوجته وحاولت منعه ودعته إلى البقاء لكي يتجنب مخاطر السفر إلى الأندلس، التي تفصلها مسافات شاسعة عن بغداد، لكنها لم تستطع إلى ذلك سبيلا.

سمي البغدادي بشاعر القصيدة الواحدة لأنه لم تدون له سوى هذه القصيدة ولم يرو أنه كتب غيرها. وشعراء القصيدة الواحدة هم ثلاثة: ابن زريق والمنخل اليشكري صاحب قصيدة "فتاة الخدر" ودوقلة بن العبد المنبجي صاحب القصيدة "الدعدية".

السفر إلى الأندلس

لم يصغ ابن زريق لنصح زوجته التي كانت تخاف عليه من عواقب تلك الرحلة وتوجه إلى الأندلس قاصدا الأمير أبا الخير عبد الرحمن الأندلسي في الأندلس حتى يمدحه ويحصل على أعطياته. عندما التقى به الأمير عرف مقصده فأراد أن يختبره إذا ما كان همه فقط الحصول على المال أم هو متعفف ويرضى باليسير؛ لذا أعطاه أعطية زهيدة، فأصابه

الحزن الشديد لأنه ترك أهله وقطع المسافات الطويلة ليتفاجأ بعدها بعطاء زهيد. قال البغدادي: "إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد هجرت الأهل وقطعت البراري والبحار لأحصل على هذا العطاء الزهيد". أعتل بعدها ومات في الخان الذي حل به أول وصوله إلى الأندلس.

شغل عنه الأمير الأندلسي أياما ثم سأل عنه فخرج هو ومن معه يطلبونه حتى انتهوا إلى الخان، فسألوا عنه صاحب الخان فقال: "كان في الخان ولم أبصره منذ أمس"، فذهبوا نحو غرفته ودفعوا الباب فوجدوه ميتا وعند رأسه رقعة مكتوب عليها قصيدته الشهيرة. قال الأمير بعد قراءة الأبيات: "وددت أن هذا الرجل حي حتى أشاطره نصف مالي".

ويذكر أن الأمير قد عرف مكانه الذي كان يعيش به في بغداد فأرسل لأهله خمسة آلاف دينار وحمل إليهم خبر وفاته. تسمى قصيدته "عينية ابن زريق وتسمى فراقية ابن زريق لأنها تتحدث عن الفراق وتسمى يتيمة ابن زريق لأنه لم يدون له غير هذه القصيدة، التي قال فيها:

لا تعذليه فإن العـــــذل يولعـــه قد قلت حقـا ولكن ليس يسمعه

جاوزت في نصحه حـــــدا أضر به من حيث قدرت أن النصح ينفعه

فاستعملي الرفـــق في تأنيبه بدلا من عذله فهو مضنى القلب موجعه

قد كان مضطلعا بالخطب يحمله فضيقت بخطوب الدهـــر أضلعه

يكفيه من لوعة التشتيـــت أن له من النوى كل يـــــوم ما يروعـــه

ما آب من سفـــــر إلا وأزعجـــه رأي إلى سفـــــــر بالعزم يزمعـــه

كأنما هو في حـــــل ومرتحـــــل موكل بفضـــــــاء الله يذرعـــــــه

قد وزع الله بين الخلق رزقهـــــم لم يخلق الله من خلـــق يضيعـه

لكنهم كلفوا حرصا فلســـــت ترى مسترزقا وســـوى الغايات تقنعه

اعتضت من وجه خلي بعد فرقته كأسا أجـــــــرع منها ما أجرعـه

كم قائل لي ذقت البيـن قلت له الذنب والله ذنبـي لست أدفعـه

ما كنت أحسب أن الدهر يفجعني به ولا أن بي الأيـــــام تفجعـه

حتى جرى البين فيما بيننـا بيد عسراء تمنعني حظـــــي وتمنعه

جولة أدبية في قصيدته

لقد أورثت هذه القصيدة صاحبها، ابن زريق، شهرة كبيرة ولولاها لم يعرف أحد قصته ولم يدون اسمه في دواوين التاريخ والأدب. وتنبض قصيدته برقة التعبير وصدق المقال وتبين أنه شاعر مجيد لما تحتويه من الصور وقوة السبك. تبلغ أبيات القصيدة قرابة الأربعين ويظهر فيها حنينه إلى الوطن والديار والأهل، كما في الأبيات التالية:

استودع الله في بغداد لـي قمـــرا بالكـرخ من فلك الأزرار مطلعــه

ودعتــه وبودي لو يودعنـــــي صفو الحيـــــاة وأني لا أودعـه

وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى وأدمعـي مستهـــــلات وأدمعـه

لا أكذب الله ثوب الصبـر منخرق عني بفرقتـــــه لكـن أرقعـــــه

إضافة إلى حنين الشاعر لوطنه، تبين القصيدة مرارة العيش التي كان يعانيها ويظهر ندمه لعدم الإصغاء لزوجته عندما حاولت أن تثنيه عن السفر إلى الأندلس، لكنه ندم بعد فوات الأوان، لذا قال في يتيمته:

في ذمة الله من أصبحـت منزلـه وجاد غيـث على مغناك يمرعه

من عنـــده لي عهـــد لا يضيعـه كما له عهـد صدق لا أضيعـــه

ومن يصدع قلبـي ذكـــره وإذا جرى على قلبــه ذكـري يصدعه

لأصبرن على دهـر لا يمتعنـــي به ولا بي في حـــــال يمتعــه

علما بأن اصطباري معقب فرجـا فأضيق الأمـــر إن فكرت أوسعه

وإن تغـــــل أحـــدا منا منيتـــه فما الذي بقضـــاء الله يصنعــه

وتشير القصيدة أيضا إلى أنه كان ميسور الحال ذات يوم خلاف نهاية حياته التي اتسمت بالفقر، قال:

رزقت ملكا فلم أحسن سياسته وكل من لا يسوس الملك يخلعه

ومن غدا لابسا ثوب النعيم بلا شكـر عليــه فإن الله ينزعـــه

الخاتمة

كانت حياة ابن زريق تتقلب به من يسر الحال إلى العسر إلى أن انتهى به المطاف فانيا في بلاد الأندلس بعيدا عن وطنه وأهله. توفي، رحمه الله، سنة 420 هـ/ 1029 م. اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات.

ياقوت الحموي

حياته ونسبه

نتحدث في هذه الصفحات عن مقتطفات تاريخية وأدبية وجغرافية لشخصية جديدة نبغت في مجالات عدة لاسيما الجغرافية منها. إنه مؤلف كتاب معجم البلدان وكتاب معجم الأدباء شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي ويلقب بالحموي نسبة إلى مدينة حماة السورية. لم يكن الحموي جغرافيا فحسب إنما كان أديبا وشاعرا ومؤرخا وخطاطا ولغويا ورحالة، وهذا دأب الكثير من علمائنا الذين برعوا في مجالات وتخصصات مختلفة خلال العصور السالفة. ولد أبو عبدالله في مدينة حماة سنة 1178م.

تنقل الحموي في الكثير من البلدان في صغره، وكان يعمل في خدمة التاجر عسكر بن أبي نصر البغدادي الذي عامله معاملة حسنة كمعاملة الابن. حفظ القرآن منذ الصغر وكان يقرأ الكتب في مسجد المدينة التي حفظ بها القرآن وشجعه إمام المسجد على ذلك. كان الحموي يدون ملاحظاته أثناء سفره حول الأماكن والبلدان والمساجد والقصور والآثار القديمة والحديثة. وفي عام 1200م، ترك ياقوت الحموي تجارة عسكر وفتح دكانا متواضعا بحي الكرخ في بغداد ينسخ فيه الكتب لمن يقصده من طلاب العلم، وجعل

لجدران الدكان رفوفا يضع بها ما لديه من الكتب. وكان في الليل يتفرغ للقراءة، وأدرك ياقوت أهمية التمكن من اللغة والأدب والتاريخ والشعر فنظم لنفسه أوقاتا لدراسة اللغة.

مؤلفاته

عاش ياقوت حياة غير مستقرة، ورغم ذلك فقد صنف كتبا كثيرة من أهمها معجم البلدان ومعجم الأدباء والمبدأ والمآل في التأريخ وأخبار المتنبي وغيرها. لقد تمكن الحموي من تحصيل علوم مختلفة في سن مبكرة ونبغ في مجال الجغرافيا حيث تنقل بين بلدان كثيرة وعمل في تجارة الكتب ولقي الكثير من العلماء والأدباء خلال أسفاره وزار مدنا كثيرة منها نيسابور وتزوج فيها لكنه لم يقم هناك طويلا إذ عاود السفر وتجارة الكتب مرة ثانية بين مدائن خراسان. لقد كان الحموي يتحقق من الأخبار التي يسمعها فقد سمع بأن سكان مرو، إحدى مدائن خراسان، بخلاء فمكث فيها فترة من الزمن وتيقن بأن ما سمعه لم يكن دقيقا، ولكن أهلها كانوا ليني الأخلاق ويؤثرون الاعتدال والاقتصاد ويكرهون الإسراف، والإسراف أصلا صفة مذمومة. هنا بدأ الحموي مشروعه العظيم وهو وضع معجم جغرافي يصف ما سمعه ورآه وفيه وصف دقيق لهذه المواقع مراعيا لخطوط الطول والعرض. يضم الكتاب أيضا نبذة تاريخية عن تلك المواقع وسكانها، وسمى الحموي هذا الكتاب "معجم البلدان". سافر ياقوت إلى مدينة حلب السورية بعد اجتياح المغول لمدينة مرو واستقر هناك وبدأ بتجميع معجم البلدان.

معجم البلدان

يعد معجم البلدان موسوعة جغرافية ضخمة جمعت بعدة مجلدات ومصدرا تاريخيا مهما لوصف الحقبة التي عاش بها الحموي وقد تمت طباعة الكتاب وترجمته إلى عدة لغات. استهل الحموي كتابه بمقدمة تتكلم عن مواضيع مختلفة تتقدمها الجغرافيا. وذكر في المقدمة بعض أعمال الجغرافيين الذين سبقوه وفي نهاية المقدمة أعطى معلومات مفصلة عن المعجم. لقد تحدث الحموي في معجم البلدان عن النظريات الجغرافية التي تناولت شكل الأرض وأعتبرها كروية حيث يخالف هذا الوصف رأي بعض العلماء القدامى الذين كانوا ينفون كروية الأرض نتيجة لتفسير بعض الآيات القرآنية علما بأن جميع هذه الآيات لا تشير إلى أن الأرض غير كروية. قال تعالى:

(وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ)[1]

وهذه الآية لا تنفي كروية الأرض وقد فسرها الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله قائلا: فرشناها؛ أي: جعلناها فراشا للمخلوقات، وقال عن نعم الماهدون: أي جعلناها مهدا لأهلها. ففرشت الأرض ومهدت لتكون صالحة للعيش عليها، والله أعلم.

[1] سورة الذاريات: (48).

معجم الأدباء

جمع الحموي فيه أخبار الأدباء القدامى إلى العصر الذي عاش فيه ورتبهم فيه حسب حروف المعجم، وأشار إلى من اشتغل منهم بالكتابة أو الوراقة أو النسخ أو الشعر. ويعتبر الكتاب موسوعة ضخمة للأدباء. لقد ذكر ياقوت في "مقدمته" كتب التراجم الكثيرة التي استفاد منها، وتدل القائمة الكبيرة التي ذكرها على أنه علم من أعلام ومؤلفي الموسوعات في التاريخ. لقد عرف هذا الكتاب باسم معجم البلدان رغم أن الحموي لم يطلق عليه هذا الاسم إنما أسماه "إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب"، لكن الاسم الدخيل غلب الاسم الأصلي للكتاب. كان المستشرق الإنكليزي داوود صموئيل مرجليوت هو من أطلق اسم معجم البلدان على كتاب ياقوت وهو أستاذ في جامعة أكسفورد ونشر الكتاب عام 1907، ويظهر أن النسخ المتداولة هي استنساخ من هذه الطبعة.

يتألف الكتاب من مقدمة وفصلين وتراجم الأدباء ويناقش الفصل الأول فضل الأدب وأهله وذم الجهل بينما يناقش الفصل الثاني فضيلة علم الأخبار ويليه تراجم الأدباء وهم مرتبون حسب حروف الهجاء وبلغ عددهم 1071. يشرح المؤلف في المقدمة حبه للأدب والعلم وأخبار العلماء والأدباء وقد أشار إلى عدد من الكتب والمصنفات التي كانت موجودة في زمانه مثل كتاب أبي بكر التاريخي وأبي سعيد السيرافي وغيرهم.

تميزت كتب ياقوت الحموي بالدقة والأمانة في النقل وكان كثير الاستشهاد بالقرآن الكريم والسنة النبوية العطرة لدعم ما يصف أو يحلل من ظواهر. وكان الحموي يحدد أولا الموقع الذي يريد أن يكتب عنه حسب خطوط الطول والعرض ثم يبين أهمية الموقع ويسرد تاريخ سكانه وطبيعة المنطقة وكان يحرص كثيرا على ذكر النطق الصحيح والدقيق للأسماء.

ديوانه الشعري

لم يتوقف الحموي عند حدود الجغرافيا والتاريخ والخط إنما أولى جانبا من اهتماماته للشعر، ونجح في ذلك وقدم قصائد رائعة جمعت بديوان شعري جميل. وقد قيل: إن الحموي يقول الشعر، ولكنه لا يمدح أحدا بشعره أبدا، وهنا بعض الأبيات من قصائده:

إن غاض دمعك والأحباب قد بانوا فكل ما تدعـــــــي زور وبهتـان

وكيف تأنس أو تنسى خيالهـــــم وقد خلى منهم ربـــــع وأوطـان

لا أوحش الله من قـوم نأوا فنأى عن النواظر أقمـــــار وأغصـان

ساروا فسار فؤادي إثـــر ظعنهم وبان جيش اصطباري ساعة بانوا

وقال أيضا:

تنَّكر لي مذ شبت دهري فأصبحت معارفه عنـدي من النكـــــرات

ذكرتها النفس حنـــــت صبابـة وجادت شؤون العيـــن بالعبرات

إلى أن أتى دهـر يحسن ما مضى ويوسعني من ذكـره حســـرات

خاتمة

رغم أن الحموي عاش حياة متقلبة ولم يستقر في مكان لفترة طويلة، لكنه ترك بصمات خالدة في مجالات متنوعة كالجغرافيا والأدب والشعر والتاريخ وغيرها. وقيل: إن الحموي منح كتبه كوقف في أحد المساجد وإنه سلمها لصديقه الشيخ عز الدين أبي الحسن علي بن الأثير- المؤرخ وصاحب كتاب الكامل في التاريخ- رحمها الله تعالى، فحملها إلى مسجد الزيدي ببغداد. وكان الناس يذكرون الحموي ويثنون عليه خيرا ويذكرون فضله وأدبه بعد موته. توفي، رحمه الله تعالى، في مدينة حلب السورية سنة 1223م.

الفصل السادس

عصر الدول المتتابعة

العصر المملوكي

الممالك التي قامت على أنقاض الدولة العباسية[1]

	اسم الدولة	العاصمة	المدة الزمنية
1	الحمدانيون/ الدولة الحمدانية	حلب	930 – 1003
2	الزنكيون	حلب	1127 – 1250
3	الأيوبيون	دمشق	1171 – 1252
4	الدولة الفاطمية	القاهرة	909 – 1170 تقريبا
5	المماليك / الدولة المملوكية	القاهرة	1250 – 1517

وقد نشأت خلال هذه الفترة ممالك ودول كثيرة أخرى نتيجة ضعف الخلافة العباسية.

[1] ويكيبيديا (الموسوعة الحرة).

لم تتسم هذه الفترة الزمنية بالاستقرار السياسي فقد كانت تسقط دويلات وتقوم أخرى ما بين الحين والآخر، وذلك بعد تفكك الخلافة العباسية. وقد تعددت الممالك والدويلات وتعاقب الحكام على كثير منها كحكام العهد الزنكي والأيوبي والمملوكي، وصولا إلى العهد العثماني.

أما من الناحية الأدبية، فلم تختلف موضوعات الشعر في هذا العصر عن موضوعات العصور السابقة من مدح وهجاء وفخر وغزل ورثاء ووصف وشكوى وما إلى ذلك. وكان عدد الشعراء كبيرا في هذه الفترة، لكنهم لم يتميزوا بالجزالة والجودة التي تميز بها شعراء العصور السالفة فكان الشعراء المجيدون قلة قليلة.

ومن بين الشخصيات والحكام الذين كانوا يعتنون بالشعر والشعراء آنذاك صلاح الدين الأيوبي وبعض خلفائه ومن ثم سار المماليك على هذا النهج. وكان من بين الشعراء الذين تميزوا في العصر المملوكي شهاب الدين محمود الحلبي وابن الوردي عمر بن مظفر بن عمر بن أبي الفوارس البكري المعري.

المغول

المغول ما بين الانتصارات السريعة والسقوط الخاطف

نتحدث في هذا القسم، إن شاء الله تعالى، عن الانتشار الكبير والسريع للإمبراطورية المغولية التي انتشرت كالنار في الهشيم، وسنسلط الضوء على سقوطها المدوي في بلاد الشام. سنتناول أيضا الحديث عن الأدب وكيف صور الأدباء هذه المرحلة العصيبة في بلاد المسلمين والتي كانت أحد أسوأ المراحل في تاريخ الأمة، ولكن مع ذلك، رب ضارة نافعة، وكذلك ليقضي الله أمرا كان مفعولا، وما حدث ذلك إلا بتقدير العزيز الحكيم. سنبين أيضا كيف انقلبت هذه النقمة إلى نعمة، بل وساهمت في نشر الإسلام وعز المسلمين، فيما بعد. سننهي هذا القسم مع شاعر مملوكي عاصر الغزو المغولي وهزيمتهم النكراء.

ولادة الإمبراطورية المغولية

ظهر المغول على مسرح أحداث التاريخ العالمي أواخر القرن 6هـ/12م، ثم برزوا، كقوة عالمية خارج حدود موطنهم الأصلي، منغوليا، خلال العقدين الأول والثاني من القرن 7هـ/13م. وقد استطاعوا أن يؤسسوا أكبر إمبراطورية عالمية عرفتها البشرية في أقصر مدة، وهي أكبر إمبراطورية من حيث الرقعة؛ أي ككتلة واحدة، إذ إن الإمبراطورية البريطانية كانت أكبر منها مساحة، ولكن تفصل بين أجزائها محيطات وبحار كثيرة. تكونت

إمبراطورتيهم الواسعة والمترامية الأطراف خلال ثلاثة عقود وامتدت من الجزر اليابانية والمحيط الهادي شرقا إلى قلب القارة الأوربية غربا، ومن سيبريا وبحر البلطيق شمالا إلى الحدود الشمالية للجزيرة العربية وبلاد الشام وفلسطين جنوبا.

المغول والتتار

يمكن القول: إن التتار مغول وليس المغول تتارا، لأن التتار فرع من المغول، والأصل هم المغول. يتكون المغول من عدد من القبائل بينها قبائل تركية وقبائل تتارية وكانت ديانتهم وثنية يعبدون الشمس وأشياء أخرى مستوحاة من الطبيعة، وتمسى ديانتهم الشمانية، لكن لم تستطع تعاليم ديانتهم الصمود في وجه الديانات الأخرى كالإسلامية والمسيحية.

غزو الشرق وتدمير بغداد

بدأ المد المغولي بالتوسع نحو الشرق في عهد جنكيز خان، وبدأ يفكر في إسقاط الخلافة العباسية في بغداد نتيجة بعض المشاكل التي حصلت مع الدولة الخوارزمية. كان جنكيز خان يدرك صعوبة إسقاط الخلافة في بغداد، ولكن ليس لقوة دولة الخلافة، التي كانت مفككة وجيشها هزيل، بل لبعد المسافة بين الصين والعراق. لذلك قرر جنكيز خان بناء قواعد أقرب إلى بغداد، في أفغانستان، لتأمين خطوط الإمداد، ومن ثم الانقضاض

على الدولة الخوارزمية، التي كانت تعاني أيضا من العديد من المشاكل، والقلاع الإسماعيلية التي كانت تتواجد في بعض مناطق إيران ومناطق أخرى.

لقد كان هناك عدة عوامل دفعت المغول للتوجه نحو بلاد المسلمين، وكان أبرزها اعتداء بعض رجال الدولة الخوارزمية على تجار مغول بحجة أنهم جواسيس وحاول جنكيز خان أن يعالج المشكلة بالحكمة، لكن تعنت الخوارزميين حال دون ذلك. ويعود نسب الخوارزميين إلى عوائل تركية مسلمة، وحكموا أجزاء واسعة من آسيا وغرب إيران، وكان المغول لا يستطيعون الوصول إلى بغداد إلا بعد القضاء على هذه الدولة. شن المغول حملة كبيرة على الدولة الخوارزمية المنهكة وبدأت مدنها تتساقط واحدة تلو الأخرى واستولوا على بخارى سنة 616هـ/1219م.

توفي جنكيز خان عام 1226م، وانتخب أوكتاي خانا أعظم للمغول، أي حاكما جديدا، وكان مولعا بالشرب واللهو إلى أن توفي سنة 639هـ/1241م. اضطربت أحوال الدولة المغولية بعد وفات أوكتاي، ووقع خلاف حول خليفته، إلى أن تولى العرش كيوك خان، خانا أعظم للمغول عام 644هـ/ 1246 م، ولكنه لم يعش طويلا إذ إنه مات سنة 647هـ/1249م، واختير منكو خانا أعظم.

خرج هولاكو على رأس جيشه من قراقورم عاصمة المغول عام 651هـ/1253م، وأعد السفن لعبور الأنهار الكبيرة، كما قام الأمراء في تلك النواحي بحشد أعداد كبيرة من

الجند للانضمام إلى جيش هولاكو. وفي شهر شعبان من عام 653هـ/1255م، وصل جيش هولاكو إلى سمرقند، وأمضى بها أربعين يوما ثم توجه إلى مدينة كش، وهناك التحق به كافة الأمراء والأعيان في خراسان وأعلنوا خضوعهم وقدموا هداياهم له وأقام بهذه المدينة قرابة شهر وجه خلاله عدة رسائل إلى الملوك والسلاطين في البلاد المجاورة وطلب منهم مساعدته في تحطيم قلاع الإسماعيلية والقضاء عليهم. وفي مقابل ذلك تعهد لهم بأن يبقيهم على ولاياتهم ولا يتعرض لهم بسوء، وهددهم بأن امتناعهم عن مساعدته يجرهم إلى الهلاك وأنه سينزل بهم ما ينزل بالإسماعيلية.

استولى المغول على الدولة الخوارزمية وبات الطريق مفتوحا أمامهم نحو الغرب، وتولى القيادة في هذه الجبهة هولاكو الذي تلقى دعما كبيرا من الخان الأعظم منكو. وكان هولاكو قد اجتاح القلاع الإسماعيلية أيضا. بعد القضاء على الدولة الخوارزمية، بدأ بتحقيق هدفه الثاني في اسقاط الخلافة العباسة المتهالكة. توجه هولاكو نحو بغداد عام 655هـ/ 1257م، وجرت مراسلة بين هولاكو والخليفة العباسي المستعصم بالله لكن رسائل الخليفة كانت تحمل نبرة من التحدي، رغم الوضع البائس للدولة، بل هدد الخليفة هولاكو رغم أن جيش الخليفة لا يتجاوز عدده عشرة آلاف مقاتل، بينما تجاوز عديد جيش المغول المائة وخمسين ألفا، كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية. لذا كان هولاكو

حاقدا على بغداد ودمرها أكثر من غيرها من المدن، بل وقتل الخليفة العباسي رغم أن مستشاريه وحاشيته نصحوه ألا يفعل.

اجتاح هولاكو بغداد عام 656هـ/ 1258م، وأصدر أمرا باستباحة بغداد فانتشر الدمار والخراب والسلب والحرق في كافة أرجائها، وربما حدث ذلك لأن هولاكو، عليه من الله ما يستحق، كان غاضبا جدا من الخليفة. وقد هدموا المساجد والقصور وسرقوا محتوياتها، وقتل في تلك الفترة العصيبة التي لم تتجاوز 40 يوما أكثر من 800 ألف شخص ويرى بعض المؤرخين أن عدد القتلى قد تجاوز ذلك بكثير. وبعد مرور الأربعين يوما أمر هولاكو بقتل الخليفة المستعصم بالله. ولم تسلم المراكز الثقافية من المغول فقد أتلف المغول مكتبة بغداد التي كانت أفضل وأضخم مكتبة على وجه الأرض، بل وألقوا بآلاف الكتب في نهر دجلة حتى أصبح لون مياهه يميل إلى السواد.

بعد أربعين يوما من الخراب، أعلن هولاكو الأمان وكان قد أختبأ الكثير من الناس، ممن سلموا من القتل، في الكهوف ومجارير الصرف حتى قال بعض المؤرخين إن كثيرا من الناس لم يعرف بعضهم بعضا عندما خرجوا من أماكن اختبائهم لأن أشكالهم تغيرت تماما من الجوع والهول الذي شاهدوه. وانتشرت الأمراض والأوبئة بين الناس أيضا. شكل هولاكو وقتذاك حكومة سميت الحكومة الإيلخانية بالعراق، وقد أبقى هولاكو بعض كبار موظفين الدولة في مناصبهم.

لقد كان لسقوط بغداد وقعا مهولا على العالم الإسلامي، فسار حكام بعض الدويلات الضعيفة إلى هولاكو ليعلنوا الولاء، كي يبقيهم في مناصبهم خصوصا حاكم الموصل وسلاطين سلاجقة الروم، وعندها أصبحت الكثير من المدن جزءا من الإمبراطورية المغولية دون أن يغزوها هولاكو.

القائد قطز

برز في تلك الأيام نجم القائد قطز، وهو الملك المظفر قطز محمود بن خوارزم شاه، من أصول مملوكية وهو بطل وقائد ومخطط معركة عين جالوت، وقاهر المغول الذين لم تقم لهم قائمة في الشام بعده. ويعتبر أحد أهم ملوك مصر على الإطلاق، رغم أن حكمه لم يستمر أكثر من سنة، لأنه اغتيل بعد معركة عين جالوت بفترة وجيزة.

كان قطز أحد أولئك الذين أسرهم التتار، وأطلقوا عليه اسما مغوليا وهو قطز، وتعني الكلب الشرس، وكانت تبدو عليه، مذ نعومة أظفاره، علامات القوة والبأس، وهو من أسرة ملكية أيضا، وهي أسرة خوارزم شاه. باعه التتار في أسواق الرقيق في دمشق واشتراه أحد الأيوبيين، وجاء به إلى مصر، ثم انتقل من سيد إلى آخر حتى وصل في النهاية إلى الملك المعز عز الدين أيبك ليصبح أكبر قادته فيما بعد. تربى قطز تربية إسلامية عسكرية، وتربى على الثقة بالله، والثقة بالدين، والثقة بالنفس التي كان لها أثرا كبيرا في حياته، رحمه الله.

وصل قطز إلى الحكم، بعد أن آل عرش مصر إلى طفل صغير، وهو نور الدين أيبك، بعد موت أبيه عز الدين أيبك، وكان السلطان الطفل مشغولا باللهو عن أمور الحكم. وكان بعض أمراء المماليك يستغلون ذلك للتدخل في أمور الحكم، فقام بعزله بعد موافقة العلماء، وأعلن نفسه سلطانا على مصر.

معركة عين جالوت – والانكسار السريع للمغول

وصل رسل هولاكو إلى دمشق سنة 658هـ/ 1260م، وذلك بعد سقوط حلب، وكانوا يحملون فرمانا "مرسوما" أمن فيه هولاكو المدينة وأهلها مقابل تسليمها، وكان ينوي هولاكو السيطرة على الشام ليفتح الطريق تجاه دولة المماليك في مصر التي كانت إحدى أقوى الدويلات التابعة للخلافة العباسية. وتسلم القيادة في مصر خلال تلك الأيام القائد قطز وعمل على مواجهة المد المغولي. جمع القائد قطز الأمراء وكبار العلماء والقادة، وحرص على التواصل مع الدولة الأيوبية التي تسيطر على بعض المدن في الشام، لكنهم لم يستجيبوا له، وكان ناصر يوسف الأيوبي يحكم دمشق وحلب التي خضعت للمغول في العام ذاته.

أرسل هولاكو رسالة فيها الكثير من التهديد والوعيد للقائد قطز، لكن قطزا قتل سفراء هولاكو وعلق رؤوسهم على أحد أبواب القاهرة، يسمى باب زويلة، وترك أحد الرسل

حتى ينقل خبرهم إلى هولاكو. كان القائد قطز يستعد للحرب استعدادا جيدا أثناء ذلك، لأن قتله الرسل كان إيذانا بها. شكل القائد قطز مجلس شورى حربي وأعلن الجهاد والنفير العام في الولايات التي كانت تتبع للدولة المملوكية.

اتبع القائد قطز استراتيجية جديدة ضد المغول، وذلك من خلال الخروج إليهم عكس ما حصل في الدويلات الإسلامية التي اجتاحها المغول حيث كانوا يتحصنون داخلها. اختار منطقة عين جالوت للمعركة الفاصلة، في فلسطين، وهي منطقة تقع بين جبلين ففكر القائد قطز بالاستفادة من أرض المعركة من خلال الرماة الذين يمكن لهم أن يعدو الكمائن على الجبال المطلة على أرض المعركة. اختيار هذا المكان يعطي أيضا فرصة للجنود الذين هربوا من مناطق عدة في بلاد الشام خوفا من المغول حتى يتسنى له تجميعهم في منطقة عين جالوت. تحركت جيوش القائد قطز نحو أرض المعركة وتحدث في الجنود قائلا: "أيها المسلمون قد سمعتم ما جرى من أهل الأقاليم من القتل والسبي والحرق، وما منكم أحد إلا وله مال وحريم وأولاد، وقد علمتم أن أيدي التتار تحكمت في الشام وقد أوهنوا قوى دين الإسلام، وقد لحقني على نصرة دين الإسلام الحمية، فيجب عليكم يا عباد الله القيام في جهاد أعداء الله حق القيام، يا قوم جاهدوا في الله بصدق النية تجارتكم رابحة وأنا واحد منكم، وها أنا وأنتم بين يدي رب لا ينام ولا يفوته فائت ولا يهرب

منه هارب". فضج الأمراء بالبكاء وتقاسموا على أنهم لا بقاء لهم في الدنيا إلى أن تنكشف هذه الغمة.

معركة غزة

تحركت طلائع الجيش المملوكي بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس نحو فلسطين، وحقق الجيش انتصارا كبيرا على الحامية المغولية في غزة. وبعد هذه المعركة الصغيرة، التي كانت أول معركة ينتصر بها المسلمون على المغول، أدرك المغول أن المسلمين ما زالوا يستطيعون ترتيب صفوفهم ويتحركوا من خلال خطط محكمة. وكان لهذه الغزوة أثرا إيجابيا على مقاتلي الجيش المسلم، وكانت دافعا لهم كي يتقدموا نحو عين جالوت.

أرسل القائد قطز ركن الدين بيبرس وفرقة من الكشافة ليستطلع أخبار العدو. وبدأت اشتباكات صغيرة بين طلائع الجيش المسلم والمغول في 25 رمضان من سنة 658هـ /1260م. كان الجيش المغولي بقيادة كبتغا، وهو قائد مقدام إلى حد التهور، ولكن القائد قطز أعد خطة محكمة للإيقاع بالمغول في سهل عين جالوت وذلك من خلال إخفاء قسم كبير من جيش المسلمين بين الجبال وخلف التلال القريبة وذلك ليشجع الجيش المغولي على دخول الموقع أو ما يعرف بالمصطلحات العسكرية بـ "عنق الزجاجة" الذي أرد القائد قطز، رحمه الله، أن يحصرهم به، فتم له ذلك بتوفيق من الله تعالى.

التقى الجمعان بعد طلوع الشمس وجرت مواجهات طاحنة ثم اضطربت ميسرة جيش المسلمين وكادت أن تنكسر فحمل الملك المظفر قطز بنفسه ومجموعة من عساكره حتى ثبت الميسرة، ثم اقتحم القتال وألقى خوذته وكان يصرخ بأعلى صوته "وإسلاماه، اللهم انصر عبدك قطز على التتار" فأيده الله وثبت أقدام المسلمين وبدأت علامات النصر تلوح بعد ساعات قليلة وأنكسر بعدها جيش المغول كسرا لا جبران بعده، وغنم المسلمون بعد هذه المعركة غنائم عظيمة وكسرت أيضا الحاجز النفسي في قتال المغول الذين استمرت هزائمهم بعد هذه المعركة الفاصلة، حيث قتل فيها أعدادا هائلة منهم بما في ذلك قائدهم كبتغا.

لم يتوقف الجيش المسلم عند عين جالوت، بل واصل مطاردة المغول من مكان إلى آخر إلى أن تم تحرير الشام في وقت قياسي. وهكذا كانت هزيمة المغول سريعة مثلما كانت انتصاراتهم في البداية وقد حاولوا عدة مرات احتلال مدن في الشام بعد عين جالوت لكنهم فشلوا رغم أنهم استطاعوا دخول بعض المدن، ولكنهم لم يستطيعوا الصمود فيها بعد معركة عين جالوت.

نزل خبر هزيمة المغول على هولاكو كالصاعقة، وحاول تعويض تلك الخسارة لكنه فشل، وأخزاه الله، إذ أرسل حملة جديدة إلى الشام وباءت بالفشل أيضا، وهلك سنة 663هـ/1265م.

عين جالوت في الأدب

سنتحدث في هذا القسم، إن شاء الله، عن شاعر وأديب عاصر هذه الأحداث الجسيمة التي مرت بالأمة خلال الغزو المغولي وكذلك هزيمة المغول في عين جالوت. إنه شهاب الدين محمود الحلبي وهو أحد شعراء العصر المملوكي، ممن أتقنوا وأجادوا الشعر وفنون اللغة وقد بدى ذلك جليا في شعره. ولد سنة 644هـ/ 1247م في مدينة حلب. انتقل مع والده إلى دمشق وهو في سن العاشرة، ودرس على يد عدد من العلماء واشتغل في الفقه وأجاد علوم اللغة العربية. تولى كتابة السر في مدينة دمشق نحو ثمان سنين قبل وفاته. لقد روى وحدث عنه الذهبي، وقال عنه إنه حسن المجاورة وله كثير من الفضائل. مدح الحلبي الظاهر بيبرس، وهو أحد قادة هذه المعركة، قائلا:

سر حيث شيت لك المهيمن جار واحكم فطـــوع مرادك الاقـدار
لم يبـق للدين الذي أظهرتـه يا ركنه عنـــد الأعـــــادي ثـار
لما تراقصـــت الرؤوس وحركـت من مطربات قسيـــك الأوتـــار
حملتك أمـــواج الفرات ومن رأى بحـــرا سواك تقلـــه الأنهـار
شكرت مساعيك المعاقـل والورى والتـــرب والآســـاد والاطيـار
هذي منعـــت وهؤلاء حميتهـــم وسقيت تلك وعـم ذا الإيســـار

وقال يمدح الرسول، صلى الله عليه وسلم، وكان هذا أكثر شيء اشتهر به والأكثر شيوعا في ديوانه:

محمد سيـــد السادات أكـــــرم من علت بملته فـــــوق الورى الرتــب
محمد المصطفى الهادي الذي شهدت ببعثه أنبيـــــاء الله والكتـــــــب
ومن به طهر البيـــت الحـــرام وقد علت على الكعبة الأوثـــان والنصب
وانشق إيوان كســـــرى يوم مولـــده من فوقه وخبـــا من ناره اللهـــــب
والجن صدت عن السمع الذي صعدت من أجله وتهاوت نحوها الشهـــــــب
وفي الغمامـــــة إذ كانـــــت تظلله أنى توجـــــه مرأى كله عجـــــب

خاتمة

توفي، رحمه الله، ليلة السبت 22 شعبان سنة 725هـ/ 1325م، في بيته وشيعه أعيان الدولة. حضر الصلاة عليه نائب السلطنة، ودفن في دمشق.

المغول

القاهرة عاصمة الخلافة الإسلامية

دخول الإسلام إلى عرين الإمبراطورية المغولية

نواصل، إن شاء الله، الحديث عن الإمبراطورية المغولية وأثرها على العالم الإسلامي وكيفية تحول المغول من شعب همجي لا يعرف إلا الدمار والخراب إلى شعب متحضر ومسلم يدعو إلى الإسلام، بل وأصبحوا من الفاتحين إذ أدخلوا الإسلام إلى بقاع من الأرض لم يدخلها من قبل، خصوصا في مناطق الصين والشرق الأقصى. سنتحدث في هذا القسم أيضا عن شاعر وأديب جديد هو ابن الوردي الذي عاصر بعض هذه الاحداث التاريخية الجسيمة.

تغير الفكر المغولي

من يقرأ تاريخ المغول يصاب بالدهشة نتيجة التحولات العظيمة التي طرأت في أوج قوة هذه الدولة الفتية، ففي بداية نهوض الدولة تتجلى همجية المغول وكان تاريخهم حافلا بالقتل والسلب، ولم يسلم منهم حتى الأطفال، ولكنهم تحولوا خلال فترة وجيزة إلى مسلمين محبين للخير. هذا بفضل دين الله الحنيف الإسلام، إذ إن العرب قبل الإسلام كانوا يعانون من العديد من العادات غير المحمودة وكانوا يرتكبون الجرائم مثل وأد البنات فجاء الإسلام فهذبهم، بل وجعل الأفضلية لأحسنهم أخلاقا ومن هم خيرهم لأهلهم.

إذا تصفحنا تاريخ المغول نلاحظ أن رسالة هولاكو إلى سلطان مصر كانت مليئة بالتهديد والوعيد والتكبر والتجبر ولكن رسالة الحاكم المغولي تكودار، الذي أسلم وسمى نفسه أحمد، إلى سلطان مصر بعد سُنيَّات وجيزة، كانت رسالة أخوة وفيها الكثير من المعاني السامية، وهذا ليس بالغريب لأن الإسلام آخى بين أعداء الأمس.

القاهرة عاصمة الخلافة العباسية الجديدة

كان لسقوط بغداد على أيدي المغول ومقتل الخليفة العباسي أثرا بالغا في نفوس المسلمين، وكذلك خلو الأرض من خليفة للمسلمين وقد اعتادوا ذلك منذ بدايات الإسلام الأولى. عندما تولى الحكم في مصر السلطان المملوكي الظاهر بيبرس أتى بأحد أفراد الأسرة العباسية ونصبه خليفة للمسلمين سنة 659هـ/1260م، وكانت الخلافة في تلك الأيام أشبه بالسلطة الرمزية لأن الخليفة لم يكن الآمر الناهي فيها. وقد أصبحت القاهرة مركز النشاط السياسي والثقافي للمسلمين، وكان الظاهر بيبرس يهدف من خلال إحياء الخلافة إلى إعطاء ملكه صفة شرعية، والتوسع تحت مظلة الخلافة العباسية. وقد استمر هذا الوضع في مصر إلى أن استولى عليها السلطان العثماني سليم الأول سنة 923هـ/1517م.

المغول والإسلام

كان المغول في بدايتهم شديدي العداء للإسلام والمسلمين ونكلوا بالمسلمين في الكثير من المواقع ودمروا بغداد عاصمة الخلافة العباسية ونهبوا الممتلكات وأهلكوا

الحرث والنسل. وكما ذكرنا سالفا، لم يستطع المغول المكوث في الشام إلا قليلا، ولكنهم مكثوا مدة أطول بكثير في بلاد فارس والعراق. في الواقع، لم يدخل المغول كافة بلاد المسلمين كما يظن البعض وإنما دخلوا جزءا منها وهو شرقي الدولة الإسلامية.

ومن أعجب ما حدث بين المسلمين والمغول هو تحول العداء إلى أخوة بعد أن آخى بينهم الإسلام. ولم يمض المغول نصف قرن بعد دخول بعض المناطق الإسلامية حتى تحول معظمهم إلى مسلمين واعتنقوا الدين الحق، بل وأصبحوا دعاة له وفاتحين وحاربوا حتى أبناء جلدتهم من المغول في سبيل نصرة الإسلام، فسبحان الله، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

قال بعض المؤرخين إن بعض المغول لم يستطيعوا التخلص من بعض العادات المغولية التي جبلوا عليها منذ الصغر حتى بعد اعتناقهم الإسلام، ولكن في الوقت ذاته، لا ينكر أحد الدور الكبير الذي لعبوه في نشر الإسلام في أقصى الشرق.

انتشار الإسلام في التتار

بدأت دعوة الإسلام تنتشر فجأة في هذا الشعب الهمجي وتحقق على أيدي دعاة الإسلام ما لم يتحقق بسيوفهم، وبدأ الإسلام يتغلغل في نفوس أعدائه وخضع هذا الشعب، الذي قهر شعوب الشرق المسلمة، للإسلام. تعتبر هذه أحد أغرب الوقائع

التاريخية إذا تحول الغازي المنتصر إلى أخ للضحية يتبع نفس الدين ونفس المنهج، خصوصا أن المغول اعتنقوا الإسلام في أوج قوتهم.

لقد انقسمت دولة جنكيز خان بعد موته إلى أربعة أقسام، وبدأ الإسلام ينتشر في هذه الدولة ومن رأس الهرم، أي من الحكام أولا، ومن ثم انتشر بين الرعية. كان بركة خان الذي تولى الحكم 1256-1267 أول من أسلم من أمراء المغول حيث كان يترأس القبيلة الذهبية. وذكر أنه أسلم بعد أن التقى بتجار مسلمين قادمين من بخارى فسألهم عن الإسلام فشرحوا له ما أراد عن الإسلام واعتنق الإسلام بعدها وأخلص لدينه.

كتب ابن كثير عن إسلام غازان في وقائع سنة 694هـ بارتياح بالغ، ويؤيده في ذلك غيره من المؤرخين، وبينوا أن الفضل في ذلك يرجع إلى الأمير التركي الصالح توزون الذي أدت جهوده إلى إسلام غازان الذي شب على البوذية، وكان سابع الإيلخانات، وأعظمهم شأنا في الدين الإسلامي لأنه جعله دين الدولة الرسمي في بلاد فارس. وبعد إسلام غازان دخلت التتار أو أكثرهم في الإسلام ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ على رؤوس الناس يوم إسلامه، وتسمى بمحمود، وشهد الجمعة والخطبة، وفرض الجزية على غير المسلمين ورد مظالم كثيرة ببغداد وغيرها من بلاد المسلمين.

وبعد سنين قليلة ظهر أول ملك مسلم في كاشغر، الصين. قال عدد من المؤرخين إن إسلام تغلق تيمور خان (1347- 1363م)، ملك كاشغر، كان على يد رجل من أهل

الورع والتقوى من مدينة بخارى، يقال له الشيخ جمال الدين، وكان معه جماعة من التجار، وكانوا قد اعتدوا على الأراضي التي خصصها ذلك الأمير للصيد. فأمر بأن توثق أيديهم وأرجلهم، وأن يمثلوا بين يديه. ثم سألهم بغضب: كيف تجرؤوا على دخول هذه الأرض؟ فأجاب الشيخ بأنهم غرباء ولا يعلمون أنهم دخلوا أرضا محرمة. ولما علم الأمير أنهم من الفرس المسلمين، قال: إن الكلب أغلى من أي فارسي، فأجاب الشيخ: "نعم! قد كنا أخس من الكلب وأبخس ثمنا منه، لو أننا لم ندن بالدين الحق".

ولما راع الأمير ذلك الجواب أمر بأن يقدم إليه ذلك الفارسي الجسور عند عودته من الصيد، ولما خلا به سأله ماذا يعني بهذه الكلمات، وما ذلك الدين؟ فعرض عليه الشيخ قواعد الإسلام بطريقة محببة وصور له الكفر بصورة مروعة اقتنع معها بضلال معتقداته وفسادها، فقال: "ولكني إذا اعتنقت الإسلام الآن فلن يكون من السهل أن أهدي رعاياي فلتمهلني قليلا، فإذا ما آلت إلي مملكة أجدادي فعد إلي".

وبعدها انقسمت إمبراطورية جغطائي إلى إمارات صغيرة وظلت كذلك سنين طويلة، حتى نجح تغلق بن تيمور في توحيد الإمبراطورية كلها تحت سلطانه، وفي هذا الوقت عاد الشيخ جمال الدين إلى بلده لكنه مرض مرضا شديدا فلما أشرف على الموت قال لابنه رشيد الدين: "سيصبح تغلق تيمور يوما ما ملكا عظيما، فلا تنس أن تذهب إليه وتقرئه مني السلام ولا تخش أن تذكره بوعده الذي قطعه لي". ولم يلبث رشيد الدين إلا

سنين قليلة، حتى ذهب إلى معسكر الخان، تنفيذا لوصية أبيه، بعد أن استرد تغلق عرش الإمبراطورية، لكنه لم يستطيع أن يظفر بالمثول بين يدي الخان رغم ما بذله من جهود. وأخيرا لجأ إلى حيلة طريفة، فذات يوم أخذ يؤذن في الصباح الباكر على مقربة من فسطاط الخان فأقلق ذلك الصوت نوم الخان، وأثار غضبه فأمر بإحضاره ومثوله بين يديه، وهناك أدى رشيد الدين رسالة أبيه، ولم ينس تغلق تيمور وعده، وقال: "حقا ما زلت أذكر ذلك منذ اعتليت عرش آبائي، ولكن الشخص الذي قطعت له ذلك الوعد لم يحضر من قبل، والآن فأنت على الرحب والسعه". ثم أقر بالشهادتين وأصبح مسلما منذ ذلك الحين، وأشرقت شمس الإسلام ومحت بنورها ظلام الكفر. ولكي ينشر هذا الدين بين رعاياه اتفق تغلق تيمور ورشيد الدين على أن يستقبل الملك الأمراء واحدا تلو الآخر، ويعرض عليهم الإسلام فمن قبله جوزي الجزاء الحسن، ومن أباه ذبح كما يذبح الوثنيون وعباد الأصنام - البداية والنهاية لابن كثير.

ابن الوردي

سنتحدث في هذا القسم، إن شاء الله تعالى، عن شاعر وأديب عاصر هزائم المغول وانحسارهم عن أرض العرب. إنه زين الدين عمر بن مظفر بن عمر بن أبي الفوارس البكري المعري الفقيه والمؤرخ النحوي الأديب. ويعود نسبه إلى الخليفة الراشدي الأول أبي بكر الصديق، رضي الله عنه وأرضاه.

حياته

ولد في معرة النعمان سنة 689 هـ / 1290 م، في بلدة الشاعر والأديب المشهور أبو العلاء المعري. نشأ فيها فأخذ العلم عن شيوخها، ثم انتقل إلى حلب والتحق بحلق العلم وانتقل إلى حماة ودمشق والقاهرة لطلب العلم فبرع في الفقه والنحو والشعر والنثر.

عمل ابن الوردي في القضاء والتدريس وتولى القضاء في أكثر من بلدة وتولى قضاء دمشق أيضا. وبعد أن أتعبه القضاء تركه وبنى مدرسة في معرة النعمان، ثم تفرغ للتدريس والتصنيف فيما تبقى من عمره.

أعماله الأدبية

يعتبر ابن الوردي أحد الشعراء والفقهاء والأدباء البارزين وله العديد من المؤلفات والكتب والقصائد، مثل: تاريخ ابن الوردي، الشهاب الثاقب، بحور الشعر، الخصاصة في تيسير الخلاصة، ضوء الدرة والعديد من الأعمال الأخرى إضافة إلى مجموعة من القصائد

التي جمعت في ديوانه. سنذكر الآن بعض الأبيات من لاميته المعروفة باسم لامية ابن الوردي:

اعتزل ذكـــر الأغاني والغـــزل وقل الفصل وجانب من هــزل

ودع الذكـــر لأيام الصبـــا فلأيام الصبـــا نجـم أفــل

إن أهنا عيشـــة قضيتهـــا ذهبت لذاتها والإثـــم حل

واتــق الله فتقـــوى الله مـا جاورت قلـــب امرئ إلا وصل

كتب الموت على الخلق فكـم فل من جيش وأفنـــى من دول

أين نمـــرود وكنعـــان ومن ملك الأرض وولـــى وعـــزل

أين عـــاد أيـــن فرعون ومن رفع الأهرام من يسمـــع يخـل

سيعيـــد الله كـلا منهـــم وسيجزي فاعـــلا ما قد فعل

إي بني اسمع وصايا جمعـــت حكما خصـــت بها خير الملل

أطلب العلم ولا تكســـل فما أبعد الخير على أهل الكســل

واهجـر النـــوم وحصله فمن يعرف المطلوب يحقر ما بذل

لا تقل أصلي وفصلـــي أبدا إنما أصل الفتى ما قد حصـــل

قد يسود المـــرء من دون أب وبحسن السبك قد ينقى الدغـل

إنما الورد من الشـــوك وما ينبت النرجـــس إلا من بصل

غير أني أحمـــد الله علـــى نسبي إذ بأبي بكـــر اتصـــل

جانب السلطان واحذر بطشـه لا تعاند من إذا قال فعـــل

كل أهل العصـــر غمـر وأنا منهم فاترك تفاصيل الجمـل

وصـــــلاة الله ربـــي كلمـا طلع الشمـــس نهارا وأفـــل

للذي حاز العلى من هاشـــم أحمد المختـار من ساد الأول

وعلى آل وصحـــب ســادة ليس فيهـــم عاجز إلا بطـل

الخاتمة

كانت حياته، رحمه الله، حافلة بالإنجازات ونشر العلم والمعرفة إلى أن وافته المنية وتوفي بالطاعون في مدينة حلب سنة 749 هـ / 1349 م.

الفصل السابع

العصر العثماني

1923 – 1517

الدولة العثمانية أو الخلافة العثمانية

الدولة العثمانية هي إمبراطورية إسلامية أسسها عثمان الأول بن أرطغرل واستمرت قرابة ستمائة عام. بدأت عام 1517 عندما اجتاحت الجيوش العثمانية بلاد الشام ومصر وتنازل آخر خلفاء بني العباس، المتوكل على الله الثالث، عن لقبه لصالح السلطان العثماني، وهو سليم الأول. انتهت الخلافة العثمانية عام 1923 في عهد السلطان عبدالمجيد الثاني وقد حكم خلال هذه الفترة ست وثلاثون سلطانا.

لا شك أن نظام الحكم ولغة الفئة الحاكمة تؤثر تأثيرا بالغا على الأدب بشكل عام وعلى الشعر بشكل خاص لأن الشعر هو أهم روافد الأدب. لقد شهد عصر الدولة العثمانية تراجعا ملحوظا من ناحية الأدب والشعر لأن الحواضر العربية التي كانت تستضيف الأدباء والشعراء وتجزل لهم العطاء قد أفل نجمها وبدأ هذا النجم بالانتقال نحو الآستانة التي لا تتكلم العربية، بل العربية هي لغة دخيلة في ذاك البلد.

لذلك توجد فجوة أدبية كبيرة من حيث الشعر وكافة العلوم بين نهايات الخلافة العباسية وعصور الممالك التي تلت الدولة العباسية من جهة والفترة التي حكمت فيها الدولة العثمانية من جهة أخرى، ومن ثم انتعاش الأدب مرة أخرى في العصر الحديث في فترة ما بعد الدولة العثمانية، وقلما نسمع عن أشخاص مجيدين في تلك الفترة. عند استعراض التطور الأدبي في البلدان العربية، نجد أن معظم الكلام يركز على العصر العباسي

وما قبله أو العصر الحديث الذي أيضا لا يمكن مقارنته بالقديم، لما دخل على اللغة العربية من لهجات وتدهورت اللغة الفصحى نتيجة لعدة عوامل مثل ضعف الدول العربية التي أصبحت تابعة للدول العظمى أو الأقوى. وقد أصبح كثير من أبناء هذه الدول يهتمون باللغات الأخرى كالإنجليزية مثلا أكثر من العربية وأصبحت اللغة العربية الفصحى غربية حتى في بلاد العرب نتيجة استخدام اللهجات العامية. اتسم الأدب في عهد الدولة العثمانية بقلة الإبداع وركز على شرح المختصرات والاختصار لقلة الاهتمام بالمعرفة والعلوم كما يحدث في أيامنا هذه حيث أصبح معظم الناس يميلون إلى ما هو موجز ومختصر لقلة الشغف بالقراءة والمطالعة وضعف الهمة في طلب العلم.

وفي كل شيء لابد من السلبيات والايجابيات، فإن تراجع الأدب والعلوم بشكل عام في زمن الدولة العثمانية كان أحد المسائل المهمة، ولكن الدولة العثمانية، بعد أن ورثت تركة الخلافة العباسية والممالك المنبثقة عنها وحكمت معظم الدول العربية، وإن كانت بعض المناطق تخرج تارة عن سلطة الدولة العثمانية وتعود تارة أخرى، فقد حافظت الخلافة العثمانية على هذه الدول ولم تستطع الحملات الغربية النيل من الدول الإسلامية التي خضعت للعثمانيين ولا الدولة العثمانية نفسها حتى تآمر بعض العرب عليها وحالفوا النصارى ضد العثمانيين فكان ذلك وبالا على الأمة ولا زال يتردد صداه إلى يومنا هذا.

كان لهذا التآمر نتائج كارثية على المنطقة والدول المسلمة، إذا أن الغرب وكعادته ينكث كل عهد ووعد، وبدأ بعد ذلك مرحلة الاستعمار التي كانت أحد أسوأ المراحل في تاريخ الأمة. وكعادة المستعر في أي بلد وقارة، سواء في قارة أفريقيا التي كانت الأكثر معاناة من الاستعمار أو في آسيا أو حتى جزر الكاريبي، فإنه كان يعمل وفق خطط ممنهجة وطويلة الأمد تهدف إلى حكم البلاد المستعمرة حتى بعد تحررها أو رحيل المستعمر عنها. أدركت الدول المستعمرة خاصة فرنسا وبريطانيا ومن بعدها أمريكا، التي تدعي دعم الحقوق والحريات كذبا وزورا وسجلت أسوأ محطات وانتهاكات بحق البشرية، بأن احتلال الدول، وخاصة بعد كثرة الدول التي احتلوها في آسيا وأفريقيا، قد أثرت على جنودهم الذين كانوا يقتلون في مناطق النزاعات فأدركوا أن الحل الأمثل لهذه القضية هي إيجاد أشخاص من الدول المستعمرة نفسها ليحكموا باسم المستعمر وينفذوا ما يأمر به المستعمر. كان من أبرز نتائج تآمر العرب مع الغرب ضياع فلسطين التي أسلموها لهم وربما باعوها بأبخس الأثمان. إن كل ما حدث ويحدث يعتبر جزء من نتائج متوقعة وسيستمر هذا الوضع وهذه النتائج طالما استمرت صنائع الاستعمار في إدارة ديار المسلمين.

أما من ناحية الأدب في عهد الدولة العثمانية، فقد ظهر بعض الأدباء والشعراء مثل أبي الحسن البكري، وهو شاعر ومحدث وفقيه عاش في القاهرة ومكة وتوفي رحمه الله

تعالى عام 1545، وأحمد محمد الفخري وكان أديبا وشاعرا، وتوفي رحمه الله تعالى عام 1926.

من جهة أخرى، لعبت الدولة العثمانية دورا حيويا في دخول الإسلام إلى دول أوروبا الشرقية وخاصة دول البلقان وجنوب شرق أوروبا مثل البوسنة واليونان وصربيا فتواجد المسلمون بعد ذلك في الدول الأوربية وجزيرة القرم وروسيا. أما أوروبا الغربية، فقد دخلها الإسلام عبر الأندلس من خلال الفتوحات التي بدأت في عصر الدولة الأموية.

الفصل الثامن

العصر الحديث

ما بعد الحرب العالمية الأولى والثانية

العصر الحديث

شهدت الساحة الأدبية العربية انتعاشا بعد الإجهاز على الدولة العثمانية إثر التحالف الذي عقده العرب والغرب، وركز الأدب في تلك المرحلة على الاستعمار ونتائجه الكارثية على الأمة والمنطقة بعد أن تعرض العرب لخديعة كبرى أدت إلى احتلال معظم دولهم من قبل بريطانيا وفرنسا. شهدت هذه الفترة أيضا بداية القضية الفلسطينية وكيف تآمر الإنجليز واليهود على احتلال فلسطين وتسليم القدس لليهود بتخاذل، إن لم يكن تآمر، عربي.

رغم أن هذه الفترة تمثل أحد أسوأ المراحل التي مرت بها الأمة، إلا أن الأدب وخاصة الشعر قد عاد إلى الحياة لينقل معاناة الناس والدول ومحاولة توجيههم للخروج من نير الاستعمار. في هذه المرحلة، نشأت الكثير من الحركات إضافة إلى عدد كبير من الأدباء حول العالم لكشف حقيقة الاستعمار ونوايا الدول المستعمرة بما في ذلك أدباء من الدول المُستعمِرة نفسها خصوصا أن المستعمر كان من الجانب الغربي من هذا العالم وذلك الجانب بدأ يشهد مزيدا من الحريات في ذلك الوقت.

من الشعراء الذي حاربوا الاستعمار الأخطل الصغير، بشارة الخوري، الذي قال في مطلع قصيدة له:

يا جهـادا صفق المجـد له لبس الغار عليه الأرجوانـا

شرف باهـت فلسطين به وبنـــاء للمعالي لا يدانى

ومن الشعراء المجيدين في العصر الحديث أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وغيرهم. وقد شهد هذا العصر تأثرا ملموسا بالأدب الغربي حيث ظهرت الرواية التي لم يكن لها دور كبير في الأدب العربي سابقا، بل وحتى في الأدب الغربي أو الإنجليزي، فقد كان ظهور الرواية متأخرا كثيرا عند مقارنتها بالمسرح الذي ظهر منذ مئات السنين بينما تعود بداية الرواية في الأدب الإنجليزي إلى القرن الثامن عشر، وازدهرت في الأدب الغربي في القرن العشرين.

حقيقة الاستعمار

يدعي الاستعمار دوما، وكعادته، القدوم إلى الدول الفقيرة التي تعاني من بعض المشاكل الداخلية، خاصة الفساد، بأنه قدم إلى تلك الدول لمساعدتها للنهوض في ركب الحضارة. في البداية، ربما تنطلي هذه الكذبة على بعض السذج وضعاف العقول ومن ثم يكتشفون زيف دعوة المستعمر بعد فوات الأوان. كان من سياسة المستعمرين في كل الدول المستعمرة العمل منذ البداية على إنشاء هوية هجينة تعتنق أفكار المستعمر لضرب البنية الاجتماعية للدولة المستعمرة. إذا ما نجح المستعمر بإنشاء شريحة من المجتمع بهذه المواصفات، فإن الطريق سيعبد أمامه لحكم البلاد من خلال القوة العسكرية أو من خلال الطبقة المهجنة التي أنشأها والتي ربما تخدمه أكثر من قواته العسكرية ذاتها.

من خصائص هذه الطبقة أنها تنشأ ضعيفة الولاء لوطنها وأنها مستعدة للتنازل عن كل شيء بما في ذلك شرفها وعزتها وكرامتها في سبيل خدمة المستعمر، لأنه هو الذي يضمن لها البقاء؛ لذا فإن هذه الشريحة تعتبر خالية من كل ما هو حسن وصالح ومشحونة بكل ما هو فاسد وطالح لأنها تنازلت عن كل شيء لصالح المستعمر. قال إبراهيم اليازجي:

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب
فيم التعلل بالآمال تخدعكم وأنتم بين راحات الفنا سلب
كم تظلمون ولستم تشتكون وكم تستغضبون فلا يبدو لكم غضب
ألفتم الهون حتى صار عندكم طبعاً وبعض طباع المرء مكتسب
وفارقتكم لطول الذلّ نخوتكم فليس يؤلمكم خسف ولا عطب
لله صبركم لو أن صبركم في ملتقى الخيل حين الخيل تضطرب
وحكم العلج فيكم مع مهانته يقتادكم لهواه حيث ينقلب
من كل وغد زنيم ما له نسب يدرى وليس له دين ولا أدب

ومما أثرى الأدب في هذا العصر وجعله أكثر تنوعا هو ظهور المقالات الأدبية والفكرية والروايات مع تراجع ملحوظ للغة العربية الفصحى لصاح انتشار اللهجات المحلية لكل منطقة من العالم العربي. وقد ساهم بعد العرب عن اللغة العربية مع حبهم للأدب والشعر في ظهور الشعر النبطي والعامي الذي هو أكثر سهولة للناس في وقنا الحاضر

نتيجة لضعف المفردات الفصحى وانعدام القدرة بين أكثر الناس على استخدام اللغة العربية الفصحى بشكل صحيح، وهذا يعد نتيجة طبيعية لعدم استخدام اللغة العربية الفصحى في الحياة اليومية، بل وصل بهم الحد إلى استخدام اللهجات العامية حتى في دور العلم والمدارس والجامعات، فكان ضعف اللغة نتيجة حتمية لهذه الممارسات.

خاتمة

استعرضنا خلال هذا الكتاب بعض الأحداث التاريخية التي وقعت في مناطق ودول الشرق الأوسط، خاصة الدول العربية والدول التي تحيط بها. وعلى هذا نحمد الله جل وعلا حمد الشاكرين ونستغفره ونتوب إليه، وإن أصبنا فمن الله وحده، سبحانه، وإن أخطأنا فمن أنفسنا. وتم بعون الله تعالى تسليط الضوء على بعض الأحداث التاريخية المهمة لمراحل مختلفة بما في ذلك مراحل ما قبل التاريخ وما قبل العصر الجاهلي والعصر الجاهلي وصدر الإسلام والأموي والأندلسي والعباسي، وعصر الدول المتتابعة أو العصر المملوكي إضافة إلى نبذة موجزة عن العصر العثماني والعصر الحديث .

جاء ذكر الأحداث التاريخية التي سبقت العصر الجاهلي بإيجاز شديد بينما تضمنت الفصول الأخرى من الكتاب معلومات مفصلة عن شخصيات تاريخية وأدبية وعرض جوانب مهمة من حياتهم بما في ذلك الإنجازات وما تركوه من أثر طيب بعد رحيلهم عن هذه الدنيا. لقد بدأ الكتاب بإيجاز شديد وانتهى كذلك من خلال تقديم نبذة مختصرة أخرى عن العصر العثماني والعصر الحديث .

مما لا شك فيه أن هذه الحقب التاريخية الطويلة التي تغطي معظم تاريخ البشرية على هذا الكوكب لا يمكن الحديث عنها بكتاب واحد ولا حتى في عدد من المجلدات، ولكن مع الإيجار والاختصار يمكن تطويع كل شيء وبكلمات قليلة يمكن وصف أحداث

كثيرة تم توثيقها خلال تاريخنا الحافل بالأحداث المهمة. إن اللغة العربية هي لغة الإيجاز، وقالت العرب: خير الكلام ما قل ودل، أي خير الكلام هو الكلام الموجز المعبر وهذا ما برعت به العرب خاصة في الجاهلية وصدر الإسلام .

بناء على هذا، يقدم الكتاب موجزا تاريخيا وأدبيا لمن أراد الاطلاع على تاريخنا وحضاراتنا المجيدة التي ملأت الدنيا نورا وعدلا. وقد تنوعت هذه الحضارات في مختلف أرجاء العالم خاصة خلال فترات العصور الوسطى التي شهدت سطوع نجم الحضارة الإسلامية التي عمت كثيرا من أرجاء المعمورة وعددا من القارات مثل آسيا وأفريقيا وأوروبا وشبه القارة الهندية .

نضع بين يدي القراء الكرام هذا العمل، ونسأل الله جل وعلا أن يكون نافعا لمن تصفحه أو قرأ منه. ومما لا شك فيه أن كل كتاب أو عمل لا يخل من العبر سواء كانت عبر منقولة أو جديدة، ونقصد بكلمة منقولة أي ما تم نقله عن مصادر أخرى كالشعر وبعض القصص، أما الجديدة فهي ما ضم هذا الكتاب بين طياته دون أن ينقل عن مصدر آخر .

ولا يخل كل كتاب أيضا من الدروس المستفادة ومثل هذا الأمر يعود للقارئ نفسه إذ إن كل قارئ قد يتأثر بطريقة مختلفة عن القارئ الآخر لأن لكل قارئ اهتمامات وتوجهات حيث يركز على أمور معينة ويستخلص منها الدروس والعبر. إن بعض القراء يميلون إلى قراءة التاريخ والقصص وبعضهم يميل إلى قراءة الشعر أو أي جانب آخر من

الجوانب الأدبية والتاريخية لذلك يختلف تأثير القراءة على الأفراد وفقا لميولهم واهتماماتهم.

يهدف الكتاب أيضا إلى تذكير القارئ بتاريخ أمتنا العظيم وكيف ساروا ونشروا الدين الحق في بقاع كثيرة وبعيدة من الأرض. ويسلط الضوء على الإنجازات التي حققها أسلافنا في كافة الأمصار التي افتتحوها وكيف نشروا العدل بين رعية تلك الدول وبنوا الديار وأمنت بهم البلاد والعباد، وخير شاهد على ذلك الآثار الإسلامية والقصور التي تم تشييدها في الأندلس ولا زالت تشهد على عظم الحضارة الإسلامية التي قامت هناك في أوروبا ولا زالت آثارها تبهر الزائرين إلى يومنا هذا .

لقد قامت للمسلمين حضارات عظيمة في الشرق بعد انتشار الإسلام وخلال حكم الدولة الأموية والعباسية وقامت مثلها حضارة أخرى في الغرب لا تقل شأنا عن الشرق إن لم تكن فاقتها، حيث ازدهرت من خلالها الأندلس وقرطبة وإشبيلية وغيرها من المدن الأندلسية. في ذلك الوقت، أصبحت الحضارة الأموية في الأندلس منارة للعلم في أوروبا وكان يقصدها طلاب العلم والمعرفة من كافة نواحي أوروبا لينهلوا من علمها وحضارتها .

لقد تم إعداد هذا العمل لتقديم نبذات تاريخية لمحبي التاريخ والمهتمين بأخبار الأمم والدول السالفة متضمنة العديد من الشخصيات التاريخية والأدبية لإظفاء المزيد من التنوع وتلبية تطلعات واهتمامات القراء وكذلك القصص الشيقة حتى لا يشعر من

يتصفحه بالملل. ويقدم الكتاب أيضا مقتطفات أدبية لمحبي الأدب والشعر والعديد من المقارنات بين الشخصيات التاريخية والأدبية. ولا شك أن كل عمل قد يروق لبعض الناس ولا يروق لآخرين، وهذا أمر طبيعي نتيجة اختلاف الأذواق البشرية فكل شخص له ميوله حول ما يحب أن يسمع أو يقرأ .

يتطرق الكتاب كذلك إلى أصل ونشأة اللغة العربية ويركز على رافد الأدب العربي الأساسي وهو الشعر وكيفية توظيفه لخدمة هذه الأمة وحضاراتها وكذلك حفظ تاريخها وأمجادها فهو الرافد الأساسي الذي اعتنى به العرب أيما عناية منذ الأزل. لقد كان العرب شديدي الاهتمام بالشعر وفن الخطابة والكلام وحافظوا على موروثهم الشعري قبل الإسلام وفي مرحلة صدر الإسلام عن طريق الرواية أي رواية الأشعار والقصص إلى أن بدأت حركة التدوين وازدهرت في العصر الأموي وما بعده .

ولا شك أن أهم رافد وعامل ساهم في ترسيخ اللغة العربية وحفظها هو القرآن الكريم حيث ثبتت قواعد اللغة على نحو واحد منذ نزول القرآن الكريم، فأكرم بلغة حملت حروفها الكلام الإلهي فزادها عزة وتألقا وجمالا. لقد ساهم القرآن الكريم ليس فقط في حفظ اللغة العربية وإنما ساهم في إثرائها وبيان جزالتها وشمولية مفرداتها. نتيجة لذلك، لم تدخل تغيرات تذكر على اللغة العربية، خلاف اللغات الأخرى، وذلك بفضل من الله جل وعلا وبفضل كتابه الكريم .

أما الشعر، فقد لعب دورا مميزا في عدة مجالات، ليست الأدبية فقط، إذ نظم الشعراء القصائد لإبراز مميزات قبائلهم والنيل من أعدائهم وكان ذلك واضحا جليا في العصر الجاهلي أكثر من العصور الأخرى. حفظ العرب من خلال الشعر تاريخهم كما أسلفنا في هذا الكتاب، فقد قدم الشعراء وصفا دقيقا لحياتهم وحياة من حولهم وظروفهم الاجتماعية مثل الصعاليك وما قدموه من أدب. صور الصعاليك من خلال قصائدهم حياتهم القاسية والظلم الاجتماعي الذي عانوا منه وكيف خرجوا على قبائلهم وحاولوا مواجهة الواقع الذي فرض عليهم ومواجهة الظلم من خلال قطع الطريق على قوافل الأغنياء وتوزيعها على الفقراء .

يسمى الشعر أيضا ديوان العرب لأنه يضم سجل حياتهم ويسطر أمجادهم ويصور انتصاراتهم. وخير مثال على ذلك قصائد الأعشى التي وصف فيها معركة ذي قار التي حدثت بين العرب والفرس وانتصر بها العرب نصرا عظيما. ويمثل الشعر مصدرا للحكمة إذ لا تكاد قصيدة عربية تخلوا من الحكمة وهذا يظهر أيضا ثراء هذه اللغة وغزارتها .

لذلك يمكننا القول إن الشعر واللغة العربية ساهما في إثراء بعضهما، فقد كشف الشعر جزالة وغزارة اللغة العربية وأظهر ثراءها، بينما مكنت هذه اللغة الشعراء والأدباء من صياغة التعابير والأبيات الشعرية المميزة لنقل أفكارهم وآرائهم بلكمات يزينها حسن السبك والبيان .

لقد ارتبط الشعر ارتباطا وثيقا باللغة العربية وفاق كل الجوانب الأدبية الأخرى مثل المسرح والرواية وكان خلال تاريخ هذه الأمة هو الأشد تأثيرا في نفوس الناس. وكثيرا ما تأثر العرب بالقصائد الشعرية وكانت سببا في وحدتهم في بعض المواقف مثل ما حدث قبل معركة ذي قار كما ذكر سالفا بين طيات هذا الكتاب .

استخدم الشعر أيضا من قبل العرب للدفاع عنهم ووصف شجاعتهم وكرمهم وإقدامهم كقصائد عنترة العبسي وغيره. ومن القصائد الرائعة التي ركزت على عنفوان وعزة العرب في الجاهلية معلقة عمرو بن كلثوم كما ذكرنا في فصل العصر الجاهلي .

في الختام، نحمد الله جل وعلا الذي أعاننا على هذا العمل ونسأله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد في القول والعمل وأن ييسر أمورنا وأمور المسلمين في كل مكان وأن يغفر لأحيائهم وأمواتهم، والحمد لله أولا وآخرا.

تم الكتاب بحمد الله تعالى

المصادر

- تاريخ الإسلام – للذهبي
- البداية والنهاية – ابن كثير
- الفرج بعد الشدة – التنوخي
- الأغاني – أبو فرج الاصفهاني
- العقد الفريد – ابن عبد ربه الأندلسي
- قصص العرب – إبراهيم شمس الدين
- مروج الذهب ومعادن الجوهر – المسعودي
- معجم البلدان – ياقوت الحموي
- معجم الأدباء – ياقوت الحموي
- ويكيبيديا – الموسوعة الحرة

الفهرس

الموضوع رقم الصفحة

المقدمة ----------5

تمهيد ----------9

العصر الجاهلي

امرؤ القيس ---------- 26

طرفة بن العبد ----------38

الأعشى ----------45

عنترة ----------50

السموأل ----------56

عمرو بن كلثوم ----------61

عروة بن الورد ----------68

الشنفرى ----------74

تأبط شرا ----------79

صدر الإسلام

البراء بن مالك و كعب بن مالك ----------90

النعمان بن مقرن ولبيد بن ربيعة ----------98

كعب بن زهير ----------104

القاضي شريح ----------110

الخنساء وليلى الأخيلية ----------116

العصر الأموي

أبو الأسود الدؤلي ----------132

الحجاج بن يوسف الثقفي ----------137

جرير ----------148

الفرزدق ----------152

قيس بن الملوح وليلى العامرية ----------155

العصر الأندلسي

صقر قريش ----------169

ابن زيدون ----------175

المعتمد بن عباد ----------179

أبو البقاء الرندي ----------185

أمير غرناطة يوسف الثالث ----------189

العصر العباسي

أبو العتاهية ----------210
الأصمعي ----------216
أبو تمام ----------224
محمد بن جرير الطبري ----------229
أبو الطيب المتنبي ----------235
ابن زريق البغدادي ----------241
أبو عبدالله ياقوت الحموي ----------246

عصر الدول المتتابعة (العصر المملوكي)

المغول بين الانتصارات السريعة والسقوط الخاطف----------256
القاهرة عاصمة الخلافة الإسلامية----------268
ابن الوردي----------274

العصر العثماني

نبذة عن العصر العثماني ----------279

العصر الحديث

نبذة عن العصر الحديث ----------285

الخاتمة ----------289

أهم المصادر ----------295

الفهرس ----------296

عن الكاتب

يوسف الياس عبد الله كاتب وباحث أكاديمي، حاصل على درجة الدكتوراة في الأدب الإنجليزي من جامعة كارابوك التركية. إضافة إلى دراساته الأكاديمية في الأدب، التحق يوسف ببرنامج للدراسات الإسلامية في "دار القرآن" الكويتية الذي استمر لمدة أربع سنين.

تضم أعمال يوسف كتبا وبحوثا متنوعة باللغتين العربية والإنجليزية منها كتاب "فكر بمنطق"، و"مقتطفات أدبية وتاريخية"، إضافة إلى عدد من الكتب الأخرى والقصص القصيرة والروايات.

يمكنكم المتابعة من خلال:

الموقع الالكتروني: yusifelias.com

فيسبوك: https://facebook.com/yusif.abdullah.589